الكتاب الثالث والستون

بحث فريد فى حقيقة الإلهيات

الإلهيات

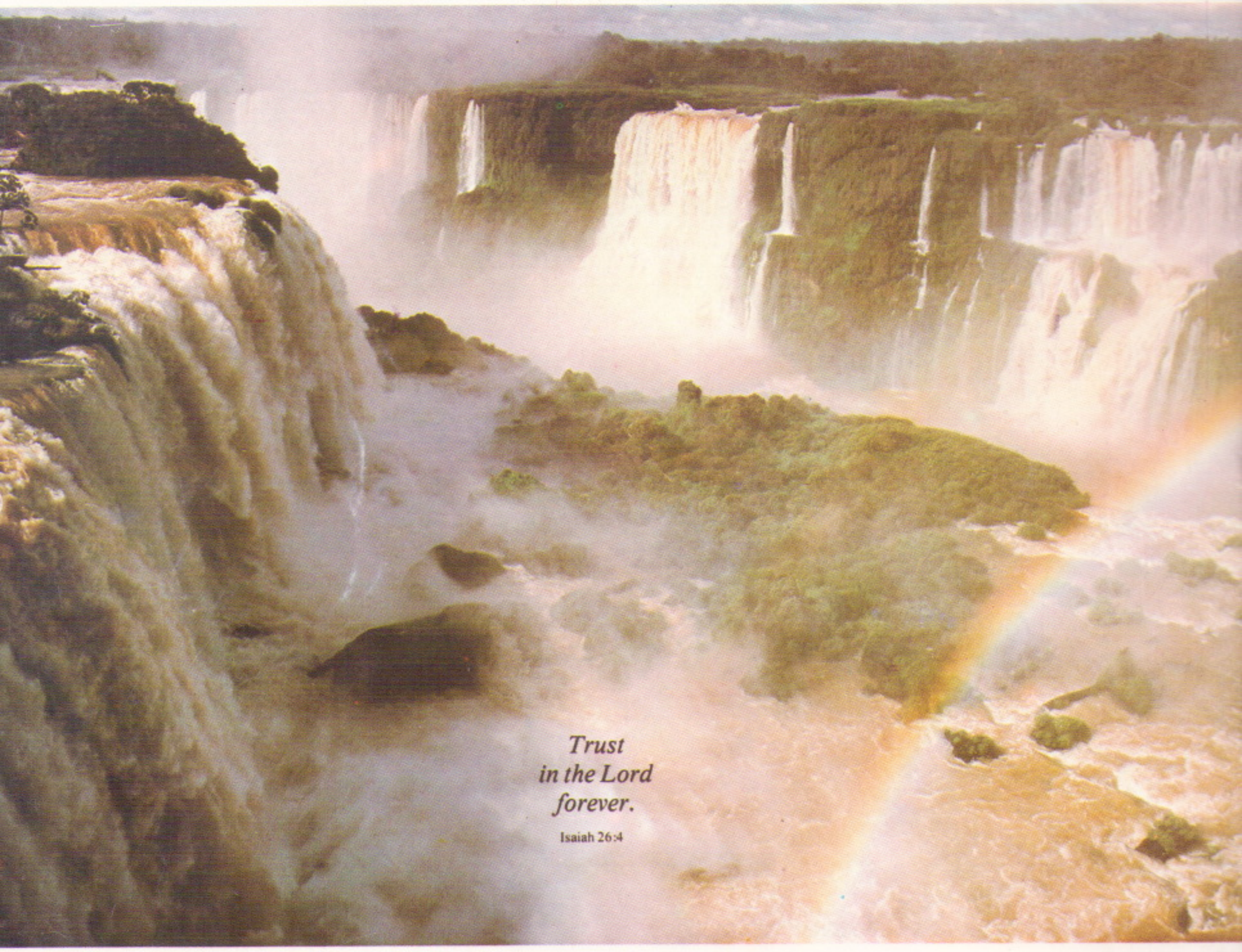

بقلم

القس صموئيل مشرقي

كتاب الثالث والستون

فريد فى حقيقة الإلهيات

الألهيــات

THE DIVINITIES

بقلم

القس صموئيل مشرقى

رئيس المجمع العام لكنائس الله الخمسينية

الطبعة الثانية ١٩٨٧

صدر عن الكنيسة المركزية للمجمع

٨ ش احمد باشا كمال ــ جزيرة بدران شبرا مصر ت : ٧٧٥٦٧٦

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى شكل حلقات بلغت اثنتا عشر حلقة وقد لاقت رواجا عظيما وقت صدورها فى أوائل الستينات ولما كانت قد نفذت نسخها منذ وقت بعيد فقد ألَّح كثيرون على إعادة طبعها ...

ولما كان إعادتها كاملة كما صدرت يُشكل عبئا كبيراً لتغير الزمن من جهة تكاليف الطباعة وغيرها عما كانت عليه من قبل ، لذلك فقد آثرنا أن ننتخب منها أهم الحلقات ، وفى هذا المطبوع الخاص بالإلهيات راعينا التخصيص فجعلنا هذه الطبعة الثانية منها حاوية لحلقات :

- الأدلة على وجود الله .
- وحدانية الله .
- سر الثالوث الأقدس .
- وحدة الأقانيم الثلاثة .
- صدورات اللاهوت السرمدية .

وإننا نستودع هذا البحث العميق فى جوهر إعلان « الإلهيات » وفقا لما انفرد به الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد نبراسا لهذا الجيل ووصولاً بالعقيدة الخاصة « بالالهيات » إلى منابعها الأصلية التى صدرت منها منذ أن ظهر الانسان على الأرض وبدأ يتلقى نور الاعلان . والله سبحانه هو الهادى عن تابع نوره هذا واهتدى به .

المؤلف

الباب الأول

الأدلة على وجود الله

تأليف

القس صموئيل مشرقي

مايو سنة ١٩٦١

كنيسة يوم الخمسين
٨ شارع احمد باشا كمال
جزيرة بدران - شبرا

تقديم الكاتب والكتاب

عرفته دون أن أعرفه ...

كان ذلك فى غضون عام ١٩٤٤ . وسمعته أول ما سمعته متكلما من منبر جمعية معروفة كانت تتخذ مقراً مؤقتاً لها فى مكان ما بشارع الفجالة بالقاهرة .. كنت أعجب من ذلك الشاب الذى يقف متكلما ساعة كاملة أو يزيد ونبرات صوته القوى تجلجل فى المكان . وقد رفع إحدى يديه ، وأغمض عينيه .. نعم فقد كانت هذه عادته حينما يلهب روح الله كيانه ليتقدم للعابدين برسالة نارية من السماء وكنت أتمنى أن أتعرف على ذلك الشاب . ولكن المنبر فى ذلك الحين كان بعيداً جداً علىّ . وكنت أتصور أن هناك هوة عميقة بين المنبر والمقعد بحيث أن الجالسين لا يستطيعون أن يعبروا إلى هناك ... ولكن الحقيقة بخلاف ذلك، فالمنبر والمقعد سواء بسواء أمام الله ـ وأقصد بالطبع الذين نالوا الحياة الجديدة فى شخص المسيح ، ذاك الذى دعانا لنكون جميعاً ملوكا وكهنة لله الآب ...

وعرفنى وصادقنى دون أن يعرفنى ....

وما هى أهم مستلزمات الصديق المحب ؟ أليست هى إسداء خدمة لصديقه ؟ وقد أسدى إلىّ هذا الأخ العزيز خدمة لا تقدر دون أن يدرى ... كنت فى ذلك الحين فى عامى الأول من دراستى الجامعية ، ولم تكن أمامى سوى فرصة واحدة تفتح بعدها الأبواب أمامى ، أو يغلق باب الجامعة فى وجهى إلى الأبد ...

وكنت فى ذلك الحين فى وسط من الطلبة أقل ما يقال فيه أنه وسط عالمى لا يعرف شيئاً عن الله .. وكان يغيظ هذا الوسط أن يجد شاباً يخالفه فى الحياة والعادات ... وهكذا ظهرت المعاكسات القاسية إذ وجد أفراده تسليتهم الكبرى فى وضع العقبات والمشاكل أمام شاب يختلف عنهم أتى حديثاً من الأقاليم ...

وفى غمرة ارتباكى وحيرتى وجدت الشكوك طريقها إلى قلبى ... قلت فى نفسى هل هناك إله يستجيب الصلاة ؟ أم أن لله إرادة سامية لن تتغير مهما صلينا ، وصلينا ، وتساقط عرقنا كقطرات دم ! ؟ وظننت أن الأمر كذلك وثبتت هذه العقيدة الخاطئة فى نفسى فسببت لى الكثير من الألم والحزن !..

لم أكن قد اختبرت بعد أن الله آب محب . . . كنت أتصوره يمسك على الدوام بمبضع

الجراح ، وترتسم على وجهه عبوسة الطبيب القاسى ، ولا يرق قلبه لصراخ المريض المسكين الذى بين يديه ...

وأذكر أننى التقيت يوما بالمرحوم الطيب الذكر القس مرقس عبد المسيح ، كان ذلك بعد أحد الاجتماعات التى كان يتحدث فيها عن المجىء الثانى .. ورافقته وأنا أتحدث معه إلى القطار الذى يقله إلى ضاحية الزيتون ، وكان موضوع حديثى هل يستجيب الله الصلاة ؟ وأذكر أنه أجابنى بجفاء ، ولم يتقدم إلىّ بحل للمشكلة التى كانت تعصف فى صدرى .

كنت فى ذلك الحين ، أحتاج أكثر ما أحتاج إلى نفس عطوفة ، ويد رقيقة تضمد جراح قلب . . .

ووجدت كل هذا فى مواعظ صديق القس صموئيل مشرقى ...

ودارت عجلة الزمن دورات . وتوالت أزمات ، وانفرجت أزمات ، إلى أن كانت شهور التقيت فيها بصديق ، فإذا به كالصخر فى ثبات ، يهزأ بالأحداث والملمات ..

نعم فالبيت المؤسس على الصخر ، لا تزعزعه نوائب الدهر ...

يقولون عنه ويقولون . . . ولكن دعهم يقولون . . . إنه يعرف بأنه فى جانب الحق ، وسيظهر النور عمل كل واحد . ومن ثمارهم تعرفونهم ...

وها هو يقدم لقراء العربية ثمرة من ثمرات قلمه المبدع فى موضوع يحتل المكان الأول فى الأهمية لأبناء هذا الجيل الذى لم يعد يقنعه تسليم الإيمان الذى درجت عليه الأجيال السالفة فأخذ يطالب ببحث الموضوعات الدينية عقلياً ومناقشتها علمياً .

ولن أحدث القارىء العزيز عن هذا الكتاب ، فصفحاته تتحدث عن نفسها . وقلم صديقنا ليس بالقلم الجديد فى عالم الكتابة . وإنى أثق بأن القارىء ، لن يترك الكتاب حتى يأتى على الكلمة الأخيرة فيه .

ليت الرب يستخدم هذه الثمرة المباركة لفائدة شعبه . آمين ؟

دكتور عزت زكى

(١)

دليل الفلسفة

المحرك الأول

« الأشياء تبدأ من بدايتها لأنه لا يمكن أن يوجد شيء منها بدون أن يكون له بداية . ، والبداية حركة إذ أنها المرور من حالة العدم إلى حالة الوجود ، وهذه الحركة يلزمها محرك ، والتسلسل ممتنع هنا ، فاذاً يوجد محرك أول حرك الأشياء من العدم إلى الوجود »

لقد آمن الإنسان بالله عن طريق العقيدة منذ فجر التاريخ البشرى ، حتى أن موسى لما سأل ربه قائلا « ما اسمك ؟ » كان الجواب الإلهى له : « أهيه » وتفسيرها « أنا الموجود » ! ! (خروج ٣ : ١٣ و ١٤) .

ولكن الفلاسفة لم يعرفوا « المحرك الأول » إلا حوالى القرن الرابع قبل الميلاد وكان جل اعتمادهم فى ذلك على الدين . فقد قالوا أن الطبيعة هى « مبدأ حركة » والكتاب المقدس قد سبقهم جميعاً إلى إعلان هذه الحقيقة بآلاف السنين فقد سجل أنه فى البدء أى بدء تكوين العالم كان « روح الله يرف » (تكوين ١ : ٢) والرفّ هو الحركة بعينها .

ولقد تساءلت الفلسفة [١] عن علة هذا الوجود بنظامه البديع وإتقانه الرائع وقررت بداهة عن طريق ترجيح المنطق الصادق ضرورة وجود موجد للكائنات فإن كل موجود فى السموات والأرضين يحدثنا بلسان الحال وهو أفصح من لسان المقال عن وجود مبدع له وهو الذى أوجد جميع ما فى الكون بل هو المحرك لكل شيء : لأنه لما كانت جميع الحركات مقيسة بالنسبة إلى المكان والزمان فهى إذاً متناهيه وعلى ذلك تكون محدثة ، وكل محدث يحدث عن علة ، ولا يمكن التسلسل فى العلل ، فلزم القول بعلة أولى غير محدثة وهى الله .

* * *

وكان أرسطو أول من وضع نظرية « المحرك الأول » فى الفلسفة وساق على إثباتها ما يأتى من البراهين [٢] :

---

(١) الفلسفة لفظة يونانية معناها محبة الحكمة وهى تستعمل العقل فى أبحاثها .
(٢) كتاب « ما وراء الطبيعة » لأرسطو .

الأول : مجموع الحقائق والطبائع تنتقل من الأدنى فى الكمال إلى الأعلى فى الكمال ، ولهذا يجب أن تكون نهاية السلسلة كمالا أبدياً على الإطلاق يتجلى فى محرك ثابت لا متحرك إذ لو تحرك لاحتاج إلى محرك آخر ويتسلسل الأمر أو يدور : وهذا مستحيل لأن حلقات السلسلة يجب أن تصل إلى نهاية ! ومعلوم أن كل متحرك ناقص لأنه إما أن يتحرك إلى أكمل من حالته ومعنى ذلك أنه لم يكن فى الحالة العليا من الكمال أو إلى أنقص من قيمته ومعنى ذلك أنه يجوز عليه الانحطاط . والله عين الكمال لا يجوز عليه أن ينحط وليست هناك مرتبة أعلى من مرتبته حتى يتحرك إليها . فهو المحرك الأول الذى يجب أن يكون أولا وأزلياً يقف عنده العقل حتى لا ينتهى به البحث إلى التسلسل فى الأزلية إلى ما لا نهاية له . وهذا المحرك لا يجوز عليه التغير وهو واحد بالعدد .

الثانى : كل حركة لا بد لها من علة محركة وهذا ضرورى لتفسير الموجود المتغير وبالسير فى سلسلة المحركات نجد ضرورة الوقوف فى النهاية عند محرك أول هو العلة الأولى لكل حركة وضرورة إيجاب الوجود لهذه العلة الأولى وإلا لم تكن أولى: إذ من المؤكد والواضح لحواسنا أن كل متحرك يحركه آخر يغايره وهذا عام فى كل الأشياء ـ وعلاقة التحريك والتحرك متجلية للأنظار فيما بينها . ولكن الأمر لا بد أن يصل إلى محرك أخير أخص خصائصه أنه لا يتحرك بشىء آخر ، ولكن ما المانع فى العقل من أن يكون هذا المحرك الأخير غير محتاج إلى محرك آخر مغاير له وفى نفس الوقت متحركا بذاته ما دام أن هذا المحرك الثابت الذى تنتهى اليه سلسلة المحركات وهو الله لازم لتفسير الحركة فى الأشياء ! فالمحرك الأول إذن موجود بالضرورة، والتغييرات والحركات الدائمة فى الكون تدعو إلى إثباته فلكل حركة منها تستتبع حركة قبلها ولا يمكن أن يستمر الأمر إلى غير نهاية بل لا بد من الانتهاء إلى محرك أول أزلى . إذ أن الحركة فى العالم الطبيعى تبقى بلا تفسير معقول إذا لم نقل بمحرك أول له الثبات وحده دون باقى المحركات والمتحركات ويكون سبباً فى تحرك الأشياء !

الثالث : الحركة مجاز من الإمكان إلى الحقيقة يحدث بموجود حقيقى بالفعل . وبناء على هذا يجب أن يكون هناك قوة محركة خالية من الإمكان . ومعنى ذلك أن العالم المتحرك بكل ما فيه من أشياء متحركة ممكن الوجود فقط فإذا لم تكن له علة أولى واجبة الوجود فمن أين أتى ؟ وكيف هو موجود الآن ؟ لأنه يتحتم حينئذ ألا يكون موجوداً وهذا غباء ! ومعلوم أن الكون أوسع وأكبر من أن يدركه الإنسان أو يقف على حدوده كما أن الإنسان بلا شك

يعجز عن خلقه ، فوجود هذا الكون إذاً مستحيل بدون موجد واجب الوجود ، وهو أيضاً عبث إن لم يكن هناك إله أكبر من الإنسان أوجده لأنه لا يمكن أن يكون قد خلق للإنسان وحده .

* * *

ويعتبر « المحرك الأول » أقدم الأدلة وأبسطها وأقواها على الإقناع وخلاصته أن كل موجود يتوقف على غيره فى وجوده إذ لا بد لكل متحرك أن يكون له محرك يحركه ، وهذا المحرك لا بد أن يستمد الحركة من غيره حتى ينتهى ذلك إلى قائم دائم لا متحرك ذاك الله يحرك كل شيء : فهو مصدر جميع الحركات الكونية على اختلاف معانيها ومنها الحركة بمعنى الانتقال من حال إلى حال والحركة بمعنى الإنتقال من حيز الإمكان إلى حيز الوجود ، وتبعاً لذلك فهو الفاعل إذ هو نبع كل نشاط فى الكون وكل حركة فى الوجود ، وهو ثابت لا يتحرك ومعنى ذلك أنه تعالى لا يقبل الانفعال والتأثر والتحول فهو من هذا الوجه لا تجوز عليه الحركة ، ولكن ليس معنى ذلك الجمود لأن له تعالى خصائص فعالة ذات نشاط مطلق ظاهر فى تكوين الكائنات وحركتها ومصيرها ، الأمر الذى تحققناه عن طريق شعورنا بوجودنا ووجود الأشياء حولنا . ونحن متأكدون أنه من لا شيء لا يأتى شيء لذلك وجب أن يكون هناك كائن أزلى لأن كل ما ليس موجود أزلياً له بداية ويجب أن يكون أوجده آخر ، والذى يوجده آخر يأخذ كل الخصائص منه ، ولذلك وجب أن تكون العلة الأولى هى الأقوى . ومن حيث أن الأشياء التى فى العالم متغيرة فقد لزم أن تكون مخلوقة وإذا كانت مخلوقة فلا بد أن يكون لها خالق ، ولا بد من أن يلحقه ألا يكون متغيراً لأنه ليس بمخلوق . فإذا كان « المحرك الأول » ليس مخلوقاً ولا متغيراً فهو العلة الأولى ـ العليا العاقلة ـ التى أدركها الجنس البشرى تحت اسم « الله » ! !

(٢)

دليل الفلك

الناموس الكونى

« إن ديني ينظر إلى آفاق أبعد حينما يواجه الكون. لأن الله عندى لا يغزو فقط مناطق الحياة الإنسانية كلها بل يبسط سلطانه أيضاً على المناطق المجهولة فيما وراء هذه الحدود المطروقة »

كان للعالم الفلكى كيرشنر صديق ساورته الشكوك عن وجود الله . ولما جاءه ذلك الصديق يوماً وشاهد على مكتبه نموذجاً للمجموعة الشمسية سأله : « من صنع هذا ؟ » فأجاب الفلكى : « لا أحد » . ولما ضحك الصديق من هذه الاجابة قال له الفلكى : « أنت تضحك لأن هذا القول هراء إذ يستحيل عليك الإيمان بأن هذا النموذج الصغير صنع نفسه فكيف تصدق بأن النظام الفلكى الذى يمثله قد صنع نفسه بنفسه ؟ ! »

لذلك فقد اعترف أناس من المشاهير بوجود الخالق من مجرد النظر إلى السماء فقال إفلاطون: « أحكم من مشاهدتى نظام العالم بأنه يوجد روح عالى الفهم وسامى الحكمة » وقال لنكولن : « إننى لا أستطيع أن أدرك كيف يصوب إنسان نظره إلى السماء ثم ينكر وجود الله » وأعلن كبلر الفلكى الألمانى : « بأن نظام الأجرام السماوية يؤكد وجود البارى » وشهد بسكال العالم الفرنسى مكتشف ناموس تغير ضغط الهواء لنفس الحقيقة عندما تأمل النظام العجيب الذى يسود الكون . أما اسحق نيوتن العالم الانجليزى مكتشف ناموس الجاذبية فقال : « إنى رأيت الله فى أعمال الطبيعة وفى نواميسها » ومن ثم كان يؤكد : « بأن النظام الذى يتجلى فى الكون يدل على وجود إله له » . وقال بيركلى : « إن الانسجام الوظائفى فى الكون يرجع الفضل فيه إلى الله » ومن ثم قال أينشتين : « إن كل الظواهر الطبيعية وقوانينها الخارقة تؤكد وجود كائن أعلى يسيطر على هذا الكون » .

فلا غرابة إذا كان هذا النظام الفلكى البديع يؤكد وجود الله مما يتفق مع قول الكتاب المقدس : « السموات تحدث بمجد الله . والفلك يخبر بعمل يديه » (مزمور ١٩ : ١)

* * *

ولقد سعى الإنسان وهو ذرة كربون يعيش على شظية كوكب (١) صغير أن يدرك أسرار الكون وحاول تفسير جميع الظواهر الطبيعية التى يراها واكتشاف علاقة الأرض بالكواكب الأخرى وموقعها بالنسبة لها وهل توجد بها حياة أم لا . . . الخ

ولكن ماذا يكون الإنسان بالنسبة إلى الكرة الأرضية التى يحيا فوق سطحها ؟ !

وكم يكون بالنسبة للشمس وهى أكبر من الأرض مليون وربع مرة ؟ !

وكم يكون بالنسبة إلى مجموعة شمسية واحدة من مجموعات هذا الكون ؟ !

وكم يكون بالنسبة للكون بأسره ؟ !

لذلك ربض فى عقل البشرية وضميرها فى كل العصور هذا السؤال الطبيعى وهو : كيف بدأ هذا الفلك العجيب وكيف يدور فى مداراته فى مسافات لا تحد وبدرجات متفاوتة من السرعة بين كل مدار وآخر ؟ مَن الذى أوجده ومن الذى يتولى ضبط، بهذه الدقة العجيبة التى تحفظه من الخطأ والانحلال ؟ بل من الذى ألزمه هذا النظام وحدد لكل كوكب فيه مداراً لا يتعداه ولا يتحول عنه ؟

لا شك أن هذا الناموس الكونى الثابت الذى يحتوى على قوانين المغناطيسية والجاذبية والنسبية وغيرها مما يتحكم فى ضبط أصغر أجزاء الكون فيجمع العالم إلى ترتيب ونظام بدلا من الفوضى والانقسام يتطلب حتما واضعاً له وهذا برهان كاف به نعلم وجود الله ! ! فهذا الفلك بما يشمله من رفعة وجلال هو نور ساطع كمصباح وضعه الله لإضاءة الكون . وإذا وقف البصر عند حده هنا فليجاوزه الانسان إلى الخيال ولكن هذا الخيال ليتوقف فى تصوره قبل أن ينتهى من الاحاطة بجزء يسير من موضوعاته . فإن العالم المنظور كله يكاد يكون خطاً غير منظور فى صدر الطبيعة الرحب !!

* * *

وواضح أن المعلومات عن الفضاء الكونى قد زادت مؤخراً باختراع التلسكوب الفلكى ـ فاستطعنا أن نعرف بأن الأرض كرة هائلة يبلغ طول قطرها ٨٠٠٠ ميل وهى موجودة داخل غلاف غازى معلقة فى الفضاء على لا شىء تماماً كما يذكر الكتاب المقدس (أيوب ٢٦ : ٧ مع اشعياء ٤٠ ، ٢٢) وهى ثالث الكواكب بعداً عن الشمس ، وتدور ضمن مجموعة الكواكب التى تحيط بالشمس فى مدارات منتظمة بقوة جاذبية الشمس : وسرعة دوران الأرض حول

---

(١) الكوكب هو الجسم المعتم فى الفضاء ، وأما النجم فهو الجسم المضىء نتيجة التهابه

الشمس ١٩ ميل فى الثانية ، وتقطع دورتها التى تبلغ ٥٨٤ مليون ميل فى ٣٦٥ يوماً هى عدد أيام السنة ! وهى تسير فى فلكها هذا بحالة منتظمة تامة الاتقان !

ونحن نحسب الأرض شيئاً كبيراً ولكنها ليست إلا شبه حصاة أو حبة رمل على شاطىء الكون العظيم (١) حتى من على مسافة مليون ميل تبدو فى الفضاء أشبه بالقمر بينما إذا بعدت المسافة أكثر لا يمكن رؤيتها بل تبدو الشمس نفسها أشبه بنجم مثل النجوم التى نراها فى السماء ـ علماً بأن بعض هذه النجوم أكبر حجما من الشمس ولكنها تظهر هكذا مضيئة فقط لبعدها الكبير عن الأرض !

فالأرض إذاً جزء ضئيل من الكون كائن فى ركن زاوية من زوايا مجموعة شمسية هائلة تسمى « المجرة » لأن النجوم فى السماء تتكون فى شكل مجموعات تعرف بأسماء خاصة مثل نجوم الدب الأكبر والميزان والجبار ... الخ . وبعض هذه المجرات تجمع نحو ٤٠٠٠٠ مليون نجم ويسميها العلماء «بالجزر الفلكية» لأنها تتجمع معاً فى محيط دائرى يشبه سحابة بيضاوية الشكل ويقدر الفلكيون قطرها بحوالى ٢٠٠٠٠٠ سنة ضوئية وهى تتم دورتها فى الفضاء فى حوالى ١٠٠٠ مليون سنة ضوئية . وهذه المجرات اكتشف منها ١٠٠ ألف مجرة يبلغ متوسط المسافة بين كل واحدة والأخرى نحو ٢ مليون سنة ضوئية وهى تندفع فى الفضاء فى مختلف الاتجاهات بسرعة هائلة ويبدو أنها كلما زادت بعداً ازدادت سرعة فى اندفاعها مما جعل العلماء يحققون بأن هذا الوجود باتساعه ومجراته التى لا حصر لها صورة لا يمكن للعقل أن يتخيلها ، فهذا الكون الغامض أعظم وأرحب مما يمكننا تصوره، «والكواكب التى فيه لا تعد» (أر٣٣:٢٢)

وبالرغم من صعوبة الرصد بسبب كروية الأرض وطول موجة الضوء وسرعته، قد تمكن العلم الفلكى من مشاهدة مجموعات نجمية على بعد ١٠٠ مليون سنة ضوئية ، واخترق مرصد كليفورنيا إلى مسافة ٥٠٠ مليون سنة ضوئية ويسعى الراصدون إلى مشاهدة ما على مسافة ١٠٠٠ مليون سنة ضوئية !

وتبلغ مجموعتنا الشمسية من الضخامة والسعة بحيث يقضى شعاع الضوء ١٠٠٠٠٠ سنة ضوئية فى مسيرة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ! ومركز هذه المجموعة « الشمس » وهى كرة ضخمة جداً يبلغ قطرها مليون ميل ودرجة حرارتها ٦ آلاف وهى ترسل اشعاعاتها فى جميع الجهات ولا يصل إلى الأرض من هذه الطاقة إلا واحد على البليون (١/١٠٠٠٠٠٠٠٠٠)

---

(١) كتاب جوهر الايمان المقرون بالعلم للسير أوليفر لودج

ومع ذلك فإن شعاع ضوئها يلف الأرض فى سبع ثانية . ويصل الينا هذا الضوء فى ٨ دقائق مع أن المسافة التى بين الشمس والأرض ٩٣ مليون ميل ، ويمكن الوصول اليها (وهـــذا مستحيل لأنها نجم ملتهب) لو تصورنا طائرة تسير باستمرار بسرعة ٤٠٠ ميل فى الساعة فى زمن قدره ٢٧ سنة . وتعتبر الشمس مع ذلك من النجوم القريبة منا ، فإن النور المنبعث من نجم « بيتلجة » يصل فى ١٠٠ سنة . ونور النجم « سريوس » الذى هو على بعد ٥٠٠ ألف مرة كبعد الشمس عن الأرض يصل فى ٩ سنين ضوئية . ومع ذلك فهذه كواكب تعتبر قريبة منا نسبياً وهناك ما هو أكبر منها حتى أن أكبر تلسكوب اخترعه الإنسان يرى نوراً باهتاً فى نجوم بعيدة جداً استغرق سيره بليوناً (ألف مليون) من السنين بهذه السرعة الرهيبة (١) .

ومع أن سرعة الضوء هى أعظم سرعة أمكن قياسها ولكنها ليست أعظم سرعة فى العالم فإن سرعة الجاذبية التى تسير بها الكواكب فى مداراتها أضعاف سرعة الضوء بسبعة ملايين مرة! وهى تبلغ فى النجم سريوس ١٧ كيلومتر فى الثانية وتصل فى السديم أندرميد إلى ١٢٠٠ كيلومتر فى الثانية وهذا أمر يدعو إلى العجب ! أما كيف لا تصطدم هذه النجوم مع كثرتها وسرعتها فإن هذا فوق متناول عقولنا !! وتزداد الدهشة بخضوع هذه البلايين من الأجرام السماوية لناموس ثابت بحيث يستطيع الفلكيون أن يحددوا موقع أى نجم منها فى أى وقت بحساب دقيق بل وقد بدأوا فى الوقت الحاضر فى إطلاق الصواريخ الفائقة السرعة إلى الفضاء بقصد الوصول إلى الكواكب الأخرى .

أما زنة الكواكب فأمر يفوق الحصر فإذا فرضنا أن أرضنا تزن درهماً واحداً يكون وزن الشمس بالنسبة إلى ذلك ٢٣ قنطاراً . وهناك كواكب أكبر من الشمس بملايين المرات !

* * *

كل هذه لمحات من الكون الفسيح الذى يقول عنه فلاماريون الفلكى الفرنسى : « إنك إذا ذهبت لأى جهة منه بسرعة البرق أى بقطـــار يسير بسرعة ٣٠٠ كم فى الثانية وعبرت تلك المجموعات الشمسية العديدة ومررت بهذه السرعة المدهشة بغير توقف بين الشموس والسيارات وسائر الكواكب والأسدمة وسرت ألف سنة أو عشرة آلاف سنة أو مليون سنة ثم توقفت وأردت أن تعرف المسافة التى قطعتها وهل اقتربت من نهاية الكون أم لا ، فما الذى تجده ؟ تجد

---

(١) السنة الضوئية هى المسافة التى تقطعها الأشعة الضوئية فى سنة بواقع ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية وهى تساوى ٦ مليون مليون ميل أو على وجه التحقيق ٩٫٤٦١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو متر

بدهشة وعجب ويأس أنك لم تنتقل سوى خطوة صغيرة فى عالم الفضاء أو كأنك لم تنتقل أبداً لأن الكون لا يمكن أن تتصور له حداً (١) » .

° ° °

هذا هو العلم الفلكى الذى أكد لنا وجود الله وأنه كان قبل كل شىء وهو الخالق المبدع لكل شىء وحاشا أن تكون الخليقة نقطة ابتداء وجوده .

قد يقول الكافر بأنه لا يستطيع أن يبدأ بالله فيزعم بأن النظام الفلكى نشأ نشوءاً طبيعياً فقفز إلى الوجود من ذاته بدون أى تداخل من جانب أى مصدر معقول ولكن هذا لغو سخيف لأن النظرية السديمية التى يعتبرها بداية تفترض وجود شيئين لا تعلل وجودهما فهى تبدأ بفرض وجود المادة ولكن من أين أتت المادة؟ إنهم لا يعرفون. ومتى أتت وكيف أتت؟ إنهم لا يدرون. إنهم يقررون فقط أنها وجدت وانقسمت إلى أجزاء دقيقة انفصلت عن بعضها وجمعتها القوة . ومرة أخرى نجدهم لا يعرفون : من أين أتت القوة ؟ ومتى أتت ؟ وكيف وجدت ؟ إنها مجرد فروض يحاولون بها إنكار وجود الخالق !!

والجواب الوحيد (٢) على كل هذه الأسئلة قد أعلنه الوحى فى بساطة نادرة فى الكلمات الافتتاحية للكتاب المقدس وهى : « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ولن تجد فى جميع كتابات البشر ما يماثل هذا الإعلان الإلهى الموافق للعقل الواضح للإدراك مما يجعل الإيمان به أمراً سهلا حتى أنه يعتبر الصخرة القوية الوحيدة فى العالم كله !! فإنه بكل تأكيد التعليل الوحيد المعقول لوجود الخليقة بعد أن عجز البشر عن أن يجدوا لها مصدراً آخر غيره . وهو يكشف لنا عن القواعد الأساسية التى تأسس الكون بمقتضاها وهى : الزمن والفضاء والمادة والقوة والحركة .

فما أعجب اتفاق العلم الصحيح مع كلمة الله الصادقة التى جاء فيها : « بأن البهائم والطيور وسمك البحر كلها تتحدث بأن يد الرب صنعت كل هذا » (أيوب ١٢ : ٩) وأيضاً : « لأن أموره غير المنظورة (أى قدرته السرمدية ولاهوته) تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات » (رومية ١ : ٢٠) فهل من غرابة فى قوله تعالى : « أنا الرب صانع كل شىء » (اشعياء ٤٠:٢٦)

---

(١) دائرة المعارف الروحية والأدبية

(٢) دفاع عن الإيمان باب ٣ ص٧٢ و٨٣

(٣)

دليل الطبيعة

التوازن المعقـــول

« ما دامت الـكائنات خاضعة للزيادة والنقصان فلا بد من وجود سلطة فائقة فى تقدير الزيادة وسحب النقصان لإيجاد توازن ثابت فى الـكون حتى لا يحدث فى الطبيعة تغيير جوهرى يؤدى لاختلالها »

ظهر حديثاً قوم تسموا «بالطبيعيين» قالوا إن الطبيعة أوجدت كل شىء وأنها علة الوجود ، ونسبوا بذلك إلى « الطبيعة » اسم « الخالق المبدع » وهم لا يدرون وذلك لأن الطبيعة ليست هى المبدع بل هى فى حقيقة الأمر آثار إبداعه !

والطبيعة لغة على وزن فعيلة بمعنى مفعول أو مصنوع أو مطبوع وهى تدل على الـكيفية التى طبعت عليها الـكائنات من طبائع وخصائص وتوجيهات مما يبعث المفـكر المتأمل على الإيمان بوجود الفاعل الطابع وراء المصنوع المطبوع !

لذلك فإن القوة التى ينسبونها خطأ للطبيعة هى عبارة عن نشاط القدرة الإلهية فى إنتاج الـكون وتنظيمه وضبطه ـ وليست العلية الطبيعية التى ترجع إليها جميع ظواهر العالم هى العلة الوحيدة بل من الضرورى التسليم أيضاً بعلية حرة سامية !

وليست الطبيعة إذاً على حقيقتها سوى اسم اصطلاحى لمجموع العوالم الـكونية التى أبدعها الخالق ـ وهى تسير على نظام دقيق مضبوط من بدء الخليقة إلى قيام الساعة . وهى فى ذلك تنادى الملأ بوجود منظم حكيم وقدير جداً . فالذى ضبطها هو الذى أنشأها . ويشهد بذلك التغييرات الـكونية الفعلية التى تجرى فى الطبيعة باعتراف العلم نفسه فإنها تنفى افتراض الطبيعيين بأن هذا الـكون وجد هكذا ، وهكذا كان ، وهكذا سيظل قائماً إلى الأبد . . إذ أن هـــذا الافتراض وهم ، إذ كيف يتصور عاقل أن الطبيعة وجدت هكذا بلا موجد فحدث الـكون من ذاته وتـكوّن من لا شىء ، وكيف يستساغ القول بأن الطبيعة نظمت نفسها بلا منظم ودارت أفلاكها بلا مدبر ! ؟

فهذا الكون إذاً لا بد له من صانع لذلك هتف نيوتن حين اكتشف ناموس الجاذبية قائلا: « باركى يانفسى الرب . باركى أيتها الطبيعة الرب » !

فإذا ما نسب الطبيعى بعد كل هذا وجوده للطبيعة الجامدة فحسب فإننا نسأله : « كيف تسنى للطبيعة المجردة غير العاقلة طبعاً أن تخلق رجلا ثم تخلق معه كائناً آخر مماثلا له فى التركيب الخارجى ومبايناً له فى التركيب الداخلى بقصد تعمير الأرض وإدامة النسل ! ؟ ففى خلق الزوجين الذكر والأنثى معجزة فريدة تحمل برهاناً قاطعاً فى ذاتها على وجود الله وإلا فهل يمكن للطبيعة أن تخلق خلائق متميزة وهى جامدة ، وهل ننتظر من غير عاقل أن يخلق عاقلا مميزاً ! ؟

* * *

فإذا ما عدنا للتأمل فى الانسجام الكائن بين الطبيعة والانسان وجدنا عند فحص غرائب الطبيعة أن الخليقة كلها تبدو كمعرض عجيب يبين حكمة الله ووجوده تعالى ، ففى عملياتها الدقيقة التى تجرى فى كل ذرة من ذراتها بغير توقف وبدون خطأ أو نسيان أسرار فائقة الإدراك لو حاولنا اكتشافها لحطمت عقولنا ولا عجب :

فمن الذى حدد موقع الأرض على بعد مناسب من الشمس، لو نقص لاحترقت الأرض من شدة الحرارة وتبخر الماء وصارت الحياة مستحيلة ، ولو زاد لكانت الحرارة والضوء الواصلين إلى الأرض قليلين فتكون شديدة البرودة فلا تصلح للحياة ! ؟

ومن الذى ألزم الكرة الأرضية السير فى مدارها حول الشمس بوزنها الهائل (الذى يبلغ ٥٨٧٥ سكستيليون كيلو جرام أى ٢١ صفراً أمام هذا الرقم) معلقة فى الفضاء على لا شىء ! ؟

ومن الذى جعل دوران الأرض حول الشمس فى مدار معين وبسرعة معينة تخلق قوة طاردة تدفع الأرض بعيداً عن الشمس وقوة أخرى تجذب الأرض نحو الشمس ، وهاتان القوتان متعادلتان مما يسبب دوران الأرض حول الشمس بصفة دائمة وبانتظام ! ؟

ومن الذى جعل الأرض متحركة وإلا كان نصفها ساخناً والنصف الآخر بارداً وذلك لأن دوران الأرض يجعل الحرارة المنبعثة من الشمس تتوزع على سطحها توزيعاً متساوياً يجعلها صالحة للسكنى والحياة (١) ! ؟

بل من الذى أحاط هذه الأرض الكروية بهذا الغلاف الهوائى وجعل سمكه بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة الكيميوية التى يحتاج إليها الزرع والتى تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامين ،

---

(١) كتاب صوت الاختبار

وفى نفس الوقت لا تسمح للشهب أن تصطدم بالأرض فتضرب وتشعل وتمزق فى أنحائها ما تصدم به ، بل وتمتص الاشعاعات الضوئية الضارة بالحياة ! ؟

أما عن تكوين الفصول فقد تجلت فيه حكمة الله بوضوح : إذ هو يتطلب ضبط سرعة الأرض بغاية الدقة أثناء دورانها حول محورها فى مدارها حول الشمس بحسب قوانين الجاذبية غير المنظورة دون أن يختلف ذلك الدوران جزءاً من مائة من الثانية مدى آلاف السنين . كما يستلزم إمالة محور الأرض حتى تواجه الشمس وهى تدور بكيفية خاصة . ولهذا لم يحدث قط فى تاريخ البشرية ان اختلفت الفصول حتى أصبح الصيف شتاء ولا الشتاء ربيعاً مما لا تخفى أهميته فى تقويم السنين وتنظيم الزراعة التى تقوم عليها معيشة الإنسان . أما إمالة محور الأرض بزاوية قدرها ٢٣½ درجة فهو لكى لا يصبح القطبان فى حالة ظلام دائم ولمنع تحول البخار المنبعث من المحيطات إلى قارات من الجليد ! !

أما عن تحديد نسبة اليابس إلى الماء على سطح الأرض بجعل مساحة الماء تفوق بكثير مساحة اليابس فهو حقاً من نعم الله علينا لأن مساحة الماء المتسعة تلطف من حرارة اليابس !! ثم هناك الهواء فإنه لو نقص عن علوه الحالى بضعة أميال لاختنق البشر جميعاً ، ولو زاد بضعة أميال لاشتدت الحرارة فوق طاقة الاحتمال ! !

ثم هناك الحجم والوزن المتناسبان ما بين الانسان والأرض : إذ لو انتقل الانسان إلى القمر لقل وزنه خمس مرات عما هو عليه على الأرض ولصار يثب كالجراد فيصير من السهل انكفاؤه ، ولو كانت الأرض فى حجم جوبيتر لزاد وزننا عشر مرات فما كان يمكننا أن نمشى أو نقف معتدلين ! !

ثم هناك نظام الليل والنهار وتوزيع مقادير الحرارة والبرودة تبعاً له ، فإنه لولا وجود القمر قريباً من الأرض لدارت الأرض حول نفسها فى ٤ ساعات بدلا من ٢٤ ساعة وعندئذ يختل النظام الحالى لليل والنهار ! !

وأيضاً هناك تحديد المسافة بين الأرض والقمر فبلغ مقدارها ٢٤٠ ألف ميل مع انها لو كانت ٦٠ ألف ميل فقط لغرقت جميع الأراضى المنفخضة من عملية المد التابعة لجاذبية القمر ، ولتحطمت الكرة الأرضية من جراء مثل هذا الاضطراب الخطير ! ؟

ولقد بحث نيوتن فى وضع القمر نفسه فتساءل[1] : « ما الذى يمنع وقوع القمر على الأرض

---

(١) كتاب الدين والعلم

أو ابتعاده عنها فى الفضاء سوى حصره بين قوتين متعارضتين وهما قوة الجذب التى تكون من الأرض له ، وقوة الطرد أو الدفع التى حصلت له عند دورانه حول مداره فى المجموعة الشمسية ، ولو ترك لقوة الجذب وحدها لسقط إلى الأرض ، ولو ترك لقوة الطرد وحدها لذهب بعيداً فى الفضاء فسبحان المبدع العظيم ! !

وبعد كل هذا هناك الطبائع[1] وهى تخالف بعضها بعضاً من النار والماء والهواء والتراب من الذى جعلها تتفق وتتآزر بعضها بعضاً على تمام عالم واحد فصيرها متآلفة وهى شديدة الاختلاف وحفظها بلا انحلال ودون أن يفنى بعضها بعضاً ـ فكيف لا يعرف من له ذرة من العقل أن هذه العناصر قد خلقتها قوة قادرة قاهرة هى التى ألزمتها ذلك ! ؟

أفلا يدل تجمع الذرات وانضمام العناصر إلى خالق حاذق بارع[2] ! ؟ فهذه المواد الصماء منها المتجانس ومنها المتنافر لا يمكن أن تجمع نفسها بنفسها ولا أن تنظم تركيبها من تلقاء ذاتها ، ولا قوام لها بنفسها ، فلا بد أن يرجع وجودها إلى قوة فائقة صادرة عن كائن حى مدبر لكل الكائنات قابض على زمامها . فهى تستند فى كل فعل إلى مشيئة خارجة عنها حتى الجمادات منها وهى صماء عمياء ليس لها إرادة فى نفسها ولا قوة فى ذاتها فهى تستلزم إذن وجود من قيدها بحدود ويتصرف فى حركاتها وسكناتها وهو بذاته الذى أحدثها وقيد ثبوتها أو أجرى حركتها وهو « الله » تعالى سبب وغاية كل موجود ! !

* * *

وليس ذلك فقط بل أننا نقف فى دهشة أمام عجائب الله فى « التوازن المعقول » الذى ضبط به كل ما فى الكون فى مكانه لدرجة أن تغيير أى شىء قد يحدث اختلالا خطيراً . فهو تعالى قد وزن كل جزء بما يقابله فجعل الوادى جانب الجبل ، وأوجد الجلد (المحيط الهوائى) ليفصل بين الغيوم الخفيفة والمياه الثقيلة ، وجعل نسبة المياه فى البحار ثابتة لا تنقص بسبب التبخر لأنه جعل الأنهار تجرى إلى البحار فترجع إليها المياه المأخوذة منها (جامعة ١ : ٧) ، وجعل للريح مدارات ترجع إليها بعد دورانها ، ومخازن تجمع فيها (مزمور١٣٥:٧، أرميا١٠:١٣) .

وهو الذى أعد النبات ليمتص ثانى أوكسيد الكربون فى عملية التنفس فيحتفظ بالكربون ويبادلنا بالأوكسيجين ، ولولا ذلك لذوى النبات ومات الحيوان والانسان .

وهو الذى ركب لكل شىء ما يناسبه : فخلق الحرشف ليناسب الماء والجناح ليناسب

---

(١) كتاب كمال البرهان على حقيقة الايمان (٢) كتاب الخليقة غير المنظورة

الهواء . وأوجد النغم للأذن والنور للعين : فجعل الأذن تستقبل اهتزازات الهواء وتنقلها إلى مركز أعصاب السمع حيث تتميز الأنغام بأقواس صغيرة . بينما صنع العين بطريقة فنية ترتسم فيها المرئيات وعلى مثالها صنعت آلة التصوير الفوتوغرافية . فالذى صمم العين آلة النظر العجيبة هو هو الذى صمم الشمس وأخرج منها الأشعة : فهذه العين تكون عبثاً بغير هذا الضياء ! !

* * *

وأما عن غرائب الطبيعة فى مملكة الحيوان البادية فى تنوع الغرائز وتأثيرها ودقة توجيهها فقد أثارت الدهشة لدى علماء الأحياء إذ كيف تسلك الإبل والأفيال بأصحابها أياماً وليالى وتحفظهم فى الظلماء ، والخيل تميل بأصحابها لتجنبهم السهام . كما أن حيوانات الجرى أرجلها رفيعة ودقيقة تساعدها على خفة الركض بينما نجد أقدام الجمل مفلطحتان حتى لا تغوصا فى الرمل . ومما يدهش حقاً إتصال أنثى الفراشة بالذكر بإشارات خفية كأن لتلك المخلوقة الضئيلة جهاز لاسلكى وكأن لزوجها جهاز إستقبال ! ؟ بل لقد وجد أن الحمام الزاجل يذهب إلى حيث يرسل ويعرف طريق العودة إلى مراكزه بجذب المغناطيسية الأرضية مع القوة المتولدة من دوران الأرض ، وبهاتين القوتين متحدتين معاً يسير على هديهما فلا يضل الطريق مطلقاً ! ! فمن أين للحيوانات هذه الحكمة الغريزية لو لم تكن مودعة فيها من إله خالق حكيم ! ؟

وأما فى عالم النبات فإن التأمل فى الأزهار البديعة الأشكال والألوان والأشجار المختلفة المتنوعة الأثمار يقطع بوجود المبدع العزيز الذى أوجدها كلها من ذات التربة الواحدة ! ولقد استطاع الكيميائى أن يحلل ورقة النبات إلى عناصرها الأولية ولكنه اعترف بوجود سر خفى يسمى كلوروفيل يجعل النبات رطباً تجاه الشمس ويمتص أشعتها لتحويل هذه العناصر الكيميائية إلى مادة حية (أيوب ٨ : ١٦) ولكن إتمام هذه المعجزة سر مستغلق !

* * *

وأما الانسان ذلك المخلوق العجيب فيقول عنه العلامة ادنجتون فى كتابه « ماهية الكون الطبيعى » : « اننا إذا أبعدنا الفراغ من جسمه وجمعنا ما فيه من بروتونات وذرات فى كتلة واحدة فإن ذلك يتقلص ويتقلص حتى يصير نقطة صغيرة لا يمكن رؤيتها إلا بالعدسة المكبرة » ومع ذلك فإذا تعقل الانسان خلقة ذاته وحقيقة إبداعه لحكم من تركيبه العجيب بأنه لم يأت اعتباطاً بل لا بد أن يكون قد خلقه مبدع حكيم جبله على أحسن تقويم !

(٤)

دليل العلم

أصل الوجود

« لا شك أن الوجود سر يقف أمامه العقل متسائلا عن أين ولماذا؟ ومن ثم قام العلم يبحث عن أصل الوجود ! والبديهيات العلمية التى تقول بأن الأثر الظاهر دليل قاطع على وجود المؤثر الفاعل تؤكد أن للخليقة خالق عظيم »

اكتشف العلم وجود دقة متناهية فى الكون حتى أن الذرة وهى أصغر العناصر تتركب من أجزاء أدق تدور فى أفلاك لها ـ فمن أين جاء هـــذا النظام الدقيق ؟ وما هو ذلك السر المطلق التصرف الذى أوجد الكائنات بكل ما عليها من حياة ونشاط ؟!

زعم أصحاب المذهب المادى أو الحسى أن المادة هى أصل الوجود : واعتقدوا بأزليتها ولكن جابهتهم هذه الحقائق وهى استحالة أن تنشأ الحياة من المادة غير الحية ، واستحالة أزلية الكون حيث كونه يتغير وشموسه تفقد حرارتها وتصغر وتتلاشى ، وهـذا التغير ينافى أزلية المادة . لذلك قرر العلم بأن المواد الخامدة التى يتكون منها الوجود ليس فيها القوة الخالقة لتخلق نفسها فمن المستحيل أن تتخيل صخرة لم توجد بعد تعزم فى فكرها أن تتكون من نفسها وتظهر فى عالم الوجود . وحتى إذا قيل لنا بأن هذا الوجود كله كان كتلة ضخمة من الغاز الخامد ابتدأت تتجمع وتتكاثف فوجد منها النجوم والكواكب فإن هذا القول يحمل فى ثناياه حقيقة وجود بداية محددة فى الزمن . وهذه الكتل الغازية التى تجمدت لا يمكن أن تعود إلى حالتها الغازية مرة أخرى . وقوى الجاذبية بين الكواكب والسدم الفلكية أقوى من أن تسمح بأن يحدث هذا . هذا مع العلم بأن كبار رجال الفلك يخبروننا بأن مجموعات الكواكب التى فى الكون جميعها فى حركة سريعة مستمرة فى ابتعاد عن مركز الكون وهى تتباعد إحداها عن الأخرى بسرعة فائقة مما لا يمكن معه إعادتها إلى محيطاتها الأولى أو وضعها الأول . ودورة الحياة للكواكب والسدم وكل عناصر الوجود المادى واحدة وهى من الحالة الغازية (السيولة) ذات الحرارة المرتفعة إلى درجة الحرارة المحتملة ثم إلى البرودة الثلجية المطلقة وانتفاء الحياة ...

وحتى إن افترضنا وجود حالة أولية بدائية كانت درجة الحرارة الغازية فيها باردة منخفضة

فلا يمكن أن نقبل الافتراض بأن هذه الدورة تعود إلى الوراء فتتحول المادة الصلبة بعد أن بردت وتجمدت إل حالتها الأولى الغازية : لأن هذا يلزمه درجة عالية من الحرارة وتعرفنا قوانين الطبيعة أن الشمس والنجوم كانت فى وقت ما كتلة نارية درجة حرارتها عالية جداً ابتدأت شيئاً فشيئاً تشع حرارتها فى الفضاء فتفقد درجة حرارتها العالية ...

فكيف تسنى لهذه الكتل الغازية أن تتجمد رغم إشعاعها لهذه الحرارة العالية جداً الأمر الذى يجعلها فى حالة غازية باستمرار لأن الإشعاع يحول هذه العناصر الثقيلة إلى ما هو أخف منها !؟ ومن أين نشأت العناصر الثقيلة إذاً !؟ ومن الذى رفع حرارتها إلى هذه الدرجة العالية وكيف تجمدت رغم ذلك ! ؟

لا يمكننا أن نجزم بأن هذه العناصر الثقيلة وجدت من البدء هكذا لأنها عناصر غير ثابتة ولأن هذا ينافى قوانين الطبيعة ـ إذاً لا بد من التسليم بأن هذه العناصر قد خلقت فى وقت ما . وهذا يستلزم أن يكون لهذا الوجود المادى بداية ! وبناء عليه فإن الكون يستحيل أن يكون قوة تتوهج بانتظام وتخبو بانتظام من تلقاء ذاتها حسب رأى الماديين !![1] .

* * *

إذن فقد أثبت العلم عدم أزلية المادة كما أثبت أن الموجود ليس ما يقع تحت الحس . وكان للحاسة الدينية الفضل الأول فى الكشف عن « العالم الخفائى » إذ علمت الإنسان أن يؤمن بوجود شىء لا يراه ولا يلمسه . وكان هـذا فتحاً علمياً لم ينحصر فى عالم التدين بل وسع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عن الوجود فى عالم غير العالم المادى ، وجاء التحليل العلمى مؤيداً لهذه النتيجة فقد أثبت بأن المادة ليس لها وجود حقيقى ثابت فقد تكشفت الأجسام عن عنصرها الأول فإذا هى إشعاع (أى تموجات من الأشعة) والإشعاع هزات فى الأثير وشحنات كهربية ومغنطيسية متحركة تملأ الفضاء ـ وإذا بالحرارة حركة وبالوزن جاذبية ـ وإذا بالمادة كلها كهارب وذرات ! وقد استطاع الكيميائيون أن يحللوها ولكن هيهات لهم أن يركبوها ويبينوا لنا كيف يتحول الشعاع الى ذرة وتتحول الذرة إلى خلية حية! مما يدل على أن المادة لم توجد نفسها !

ولكن هذا التحليل جعل العالم المادى نفسه قريباً فى وجوده من عالم المعقولات والمقدورات

---

(١) كتاب الإيمان بالله فى القرن العشرين ـ الفصل الأول

فأصبح من غير الممكن للحواس أن تستوعب معنى الوجود فى الصميم لأن الموجود لا يقتصر على التجسم والكثافة بل تكفى فيه حركة مقدورة أو معنى معقول لنفى العدم عنه وبذلك فقد ضاق النطاق الذى بقى للحس الظاهر من أسرار الوجود (١)!

فالعالم المادى إذاً يتكون من ذرات مركبة سريعة الحركة دائمة الانحلال والتحول والتجدد والفناء ، وليس هناك أية قوة طبيعية أو صناعية فى الكون يمكن أن تمنعها من ذلك فكم بالحرى لا تستطيع إيجادها من العدم ! ؟

وهذه الذرات هى مجرد طاقة (مجال نشاط) لقوة غير منظورة كونتها ، وتلك القوة الخفية إذاً هى أصل المادة ولكنها لا يمكن أن تكون علة الوجود لأنها لاشعورية إذ لا عقل لها ولا إدراك وإنما هى تسير بقوانين تنظمها وتحتاج دائماً فى أفاعيلها إلى منظم مدرك يوجهها وضابط يحكم تصرفاتها لأنها لا تدرك الكيفية التى بها تنفع ولا الأخرى التى بها تضر ، ولذلك فمن خلف القوة توجد القوانين التى تسيطر على حركاتها ! !

ولكن هذه القوانين لا يمكن أن تكون هى أيضاً مصدر الوجود لأنها فى حد ذاتها ليست قوة عاقلة بل هى مجرد فروض ضرورية افترضها العلم لتفسير وفهم الحوادث الكونية إبان ظهورها ، ولكنها تقف عند حد معلوم إذ ليس بمقدورها أن تبين لنا لماذا حدثت تلك الظواهر ولا من العامل الذى أحدثها فهى لن تدلنا على كنه الحوادث ولا على الأسباب الخفية الكامنة وراءها . إنها تبين لنا فقط كيف تنشأ علة من أخرى دون أن تتعرض لنشأة الكون كله كمجموعة واحدة أو لماذا وجد هذا الكون ولم يوجد آخر غيره !

وتبعاً لذلك ليس فى مقدور نواميس الكون أن تخلق الكون إذ لا عقل لها ولا إرادة حتى يمكنها أن تصمم وتنفذ كما أنها متشابكة متداخلة بعضها فى بعض ، ولا يتم العمل فى الوجود إلا باتحادها معاً ـ الأمر الذى يدل على وجود حقيقة عليا وراءها جميعها تقننها وتوجهها وتسيطر عليها وتلك هى « الذات الإلهى »(٢) .

* * *

وإزاء هذه البحوث العميقة والاكتشافات الحديثة وقف مذهب الشك موقف التردد

---

(١) كتاب عقائد المفكرين فى القرن العشرين ـ فصل قوانين المادة
(٢) كتاب الوجود

معلناً الامتناع عن إدراك الحقيقة . وحجة اللأدريين (أصحاب هذا المذهب) فى ذلك هى أن عقولهم لم تستطع الوصول إلى وجود الله وإدراكه ولكن تلك العقول نفسها استطاعت أن تؤمن بأمور أخرى لا تفهمها ، فهى تؤمن بالجاذبية وبانتقال الحركة وبالمادة وبالفكر وبغير ذلك كثير دون أن تفهم !! فإذا ارتفعت الصيحة من قلب أحد هؤلاء متسائلا عما حوله : « ما كل هذا ؟ » لم يكن جواباً صالحاً أن يقال : « إن كل هذا ذرات وفوضى وكرات نارية تحوم فى الفضاء إلى قضاء محتوم ... كلا بل الأحرى أن نقول إن وراء كل هذا روح يستوى الحق فى محرابه !! »

* * *

ولقد حاول المذهب المادى رغم كل هذا أن يفسر الوجود تفسيراً آلياً فقال بأن الكون آلة أوجدته الضرورة ويسير من تلقاء نفسه بالصدفة ، مع أنه لو كان الأمر كذلك لأصبح العالم مجرد خليط من المصادفات لا قانون لها ولا ضابط ! وذلك يختلف عما نراه فى الموجودات من تنوع وتصنيف ونظام وترتيب ! ولذلك من المحال أن تخلق الصدفة شيئاً مهما كان صغيراً ولا أن تدبر الحركة المنظمة فى الكون التى تسير على قواعد خاصة وأحكام معينة .

ولذلك قال نيوتن : « لا يعقل أن تكون الصدفة هى قاعدة الوجود ! » لهذا فإن نسبة التكوين الأول للأشياء إلى تركيبات غير مقصودة للمادة أى إلى الصدفة أمر مستحيل ! فمن الذى لديه عقل ويحكم بأن الصدفة عامل زكى ـ مع أنها لا شىء .

يقول العلامة لابلاس : « إن النظام المحير العقول الذى يشاهد فى حركات الأجرام لا يمكن أن يحمل على التصادف ، بل المصادفة كلمة لا يصح النطق بها فى لغة العلم . إن التصادف معدوم ومحال فى هذا العالم الذى نرى فيه كل شىء خاضعاً لقوانين الموازنة وقوانين الحساب التى عينتها إرادة غيبية » .

ومن ثم فإن من حقنا أن نتساءل كيف أوجدت الصدفة النظام والتماسك فى الكون ولم توجد الخلل والفوضى وهما على حال واحدة من الاحتمال بإزاء الصدفة !؟ ثم لماذا تماسك الكون فى نظامه هذا مفضلا إياه على الخلل والفوضى !؟ (١) .

---

(١) كتاب الله للعقاد

يقول الأستاذ كريبى موريسون فى كتابه « الانسان لا يقف وحيداً » . « أؤمن بوجود الله لأن الناموس الرياضى الذى لا يتبدل والتناسق العجيب فى عالمنا الفذ والروعة الظاهرة فى نظام الحياة تؤكد وجوده ... ولا يمكن أن يكون هذا الناموس قط وليد الصدفة » .

وقال سير أدنجتون : « إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث وأن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل عاقل ولأن الإنسان هو سر الكون فهو الذى يدرك هذه النسب ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة » .

ويعلن العلامة سير جيمس جينز نبذه للتفسير الآلى للكون ويستدل بالنسب الرياضية على وجود الله لأننا لم نستخرج هذه النسب من الكون بل استخرجناها من عقولنا فلما عرفناها وطبقناها على ما حولنا عرفنا أنها كانت موجودة عاملة قبل أن نهتدى اليها ونترقى إلى مراقبة عملها فى نواميس الكون والحياة فحق لنا أن نفهم أن هذه الحقائق الرياضية هى حقائق عقل إلهى أودعها أفكارنا كما أودعها العالم من حولنا . فالكون أحرى أن يسمى « فكرة عظيمة » لا « آلة عظيمة » إذ من المستحيل أن يكون وجوده أو توماتيكياً لأنه لم توجد آلة قط بمقدروها أن تدير نفسها بنفسها بدون عقل وقصد وراءها ، ومجرد بحثنا ووجودنا كمفكرين فى هذا العالم ينكر تلك الآلية بتاتاً » .

ولذا قال أينشتين [1] : « إن دينى يشتمل على الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة التى تكشف فى سرها عن بعض التفصيلات القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها . وهذا الإيمان القلبى العميق والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الإله » .

* * *

وقد أدت هذه الآلية إلى ما يسمى « بالقدرية أو الجبرية » وهى الاعتقاد بالقدر المحتوم الذى اخترعته الوثنية [2] فى الأصل عندما شعرت بعدم كفاية معبوداتها فوضعت وراءهم شيئاً غامضاً أسود اسمه « القضاء والقدر » له ينحنى الآلهة والبشر أجمعين ؟ وقد تسرب تأثير هذا الاعتقاد إلى سائر الديانات حتى ظن معظم الناس أن هذا الشىء المجهول الذى يحمل اسم «القدر»

---

(١) كتاب العالم وأينشتين

(٢) كتاب العالم قبل الطوفان ـ فصل الأمم ودياناتها

هو الذى يجلب الحظ أو يلحق النحس بالإنسان فيرفعه إلى مرتبة عليا أو يفاجئه بضربات متلاحقة !

وظنوا أن قسوة الذئب على الحمل مثلا تتعارض مع وجود خالق لهما ولم يدروا أن هذه الحالة وغيرها من سائر الأوضاع المقلوبة فى مملكة الحيوان بل والانسان أيضاً مرجعها خضوع الخليقة للبُسطل بسبب خطية البشر إلى أن تعتق من عبودية الفساد وحينئذ تصحح الأوضاع وتنتهى المظالم ولا يعود الذئب يأكل الحمل !

وتخيل بعضهم الله كمن يملأ زنبرك الساعة ثم يتركها تدور من تلقاء ذاتها وقد أدى ذلك إلى التواكل والتأخر بل هو سبب النظرة المتشائمة إلى الحياة !

والحقيقة ليس هناك قدر محتوم ولا صدفة غاشمة بل إرادة قدسية تسوق الوجود وتحدد سيره ولا مناص من التسليم بذلك !!

° ° °

ولقد اتخذ المذهب المادى شكلا جديداً حين خلع عليه داروين حلة علمية شائقة أطلق عليها اسم « النشوء والإرتقاء » (١) . وقد كان دروين مؤمناً بالله إلى وقت ظهور كتابه « أصل الأنواع » وقال فى ختامه : « إن الصور الحية الأولى مخلوقة » ثم تغير فكره شيئاً فشيئاً حتى أعلن أسفه لاستعماله لفظ الخلق مجاراة للرأى العام ، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز وأن ما فى العالم من ألم يعدل بنا عن القول بعناية إلهية وأنه هو ، لا أدرى « لا يقول بالعناية ولا بالصدفة » وأن الكلمة الأخيرة عنده هى أن المسألة خارجة عن نطاق العقل ولكن بوسع الانسان أن يؤدى واجبه » .

ولما أراد أن يحقق ذلك زعم أن الانسان ليس مخلوقاً من الله بل من الانتخاب الطبيعى ولم يشأ أن يستثنيه من قانون التطور العام . ثم قال : « إنه فى أزمنة غير معلومة ظهرت المادة والطاقة وفى داخلهما الخلية الحية التى تحتوى على شرارة الحياة » . ومن أشهر القائلين بنظرية التطور « توماس هكسلى » طبق هذه النظرية على الانسان قبل دروين فى كتابه « مكان الانسان فى الطبيعة » زعم فيه اكتشاف مادة هلامية هى حلقة الانتقال من عالم الجماد إلى عالم الحياة واتضح أنها طين لا أكثر أو راسب جرف مواد عضوية !!

---

(١) كتاب تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٤٢

ولقد زعم هذا المذهب أن الحياة بأسرها من نباتية وحيوانية نشأت من بذرة واحدة اختلفوا فى زمن ظهورها ولكن أى عقل فى الوجود يصدق أن بذرة واحدة تلد نباتاً وحيواناً ثم نجدهم يقولون : « وبعد أن تفرعت جرثومة الحياة إلى مليونين أو ثلاثة ملايين من الأنواع أصبح تكوين الحياة يسير بعدئذ حسب ناموس الوراثة والبيئة » .

ولكن من أوجد المادة ؟ ومن أوجد الخلية ؟ ومن أطلق الشرارة الأولى للحياة ؟ ولماذا بقيت الخلية الأصلية التى هى مصدر الحياة كما هى فإنها لا تزال موجودة فلماذا لم تتطور كما فعلت فى الأزمنة السحيقة ؟! هذا ما لم يستطيع أصحاب هذا المذهب أن يجيبوا عليه !!

وهم يفسرون التطور [1] بفرض أن القوقعة صارت سمكة والسمكة زحافة وهكذا إلى أن ظهر القرد ومنه جاء الإنسان ! ! وأخذوا يجتهدون فى البحث عما يسمونه « بالحلقة المفقودة » بين القرد والانسان ! ! ورغم كل ما بذلوه من جهد فى هذا السبيل لا تزال القفزة بين القرد والانسان حلقة مفقودة ـ فإذا كان التطور صحيحاً فلماذا لم تظهر الحلقات المفقودة التى يبحثون عنها عبثاً مدفونة فى الرواسب ! ! أما البقايا التى يقولون إنهم اكتشفوا بها بعض الحلقات المفقودة فقد وجد بعد الفحص أنها بقايا حيوانية ! ! ولذلك يقول العلماء المعاصرون : « إننا إذا سرنا فى نظرية درون لا نصل إلى شىء . هناك حلقة مفقودة باستمرار » ويقول الأطباء : « إن مخ الانسان يختلف عن مخ القرد » بل إن كثيرين من علماء التاريخ الطبيعى لا يقرون العلاقة النوعية بين الانسان والقرد وقد أثبتوا اختلافات عديدة بينهما تجعل هذه النظرية مستحيلة ! فضلا عن كونها لا تفسر لنا ولا تساعدنا على معرفة أصل الإنسان ، ولا كيفية حصوله على المميزات السامية التى يمتاز بها عن كافة المخلوقات الأخرى ـ وخاصة فى الادراك والنفس ـ لهذا كله قرر العلماء اليوم بأن نظرية التطور ليست فى حكم اليقين بل هى تستند إلى قانون الاحتمالات فقط .

فقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الانسان نوعاً قائماً بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين وهى مظاهر للعقل لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان . وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى الاقرار بموجد للمادة موجه لها ، لقصور المادة عن تنظيم نفسها .

---

(١) كتاب صدق كلمة الله الباب الثالث « أصل الانسان »

ولذلك أثبت أحدهم [1] ببراهين قاطعة فساد هذه النظرية فقال عنها أنها تخالف نواميس الطبيعة وتفتقر إلى الدليل العلمى إذ لا تزال تبحث عن الحلقات المفقودة أى الكائنات التى لها تركيب وسط بين نوع وآخر ! كما أن ثبات الأنواع ومنشأ الحياة من المعضلات العظمى التى حيرت أصحاب هذا المذهب مع سهولة تعليلهما عند المعتقدين بوجود الخالق ، ولذلك لم يستطع نشوئى واحد أن يقدم مثلا واحداً للتطور الذى ينادون به !

وفضلا عما سبق ذكره فإن التطور الذى يعلنون عنه هو وصف لطريقة يزعمون حدوثها ولكنه ليس علة لحقيقة أصل الوجود فإن دارون نفسه لم يقل قط أن التطور يفسر خلق الحياة ولم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفى وجود الله بل ويقول [2] : « بأنى لم أكن ملحداً بالمعنى الذى يفهم فيه الالحاد على أنه إنكار لوجود الخالق » ولذلك نجده يقول فى كتابه « أصل الأنواع » : « بأن الأنواع تفرعت من جرثومة الحياة التى أنشأها الخالق » كما كتب يقول : إنه لا يعرف لماذا يتهمه الناس بالكفر مع أنه لا يعتقد أن نظريته تنفى وجود الله » بل يقول أيضاً : « إن استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب وفيه نفوسنا الشاعرة قائماً على مجرد المصادفة ـ هى فى نظرى من أقوى البراهين على وجود الله » . ويؤيد ذلك قول زميله والاس فى كتابه « عالم الحياة » متحدثاً عن عقيدة دارون : « إنه على ما يظهر قد صار إلى نتيجة واحدة وهى أن الكون لا يمكن أن يكون قد وجد بغير علة عاقلة » وسبقه لامارك فى تقرير نفس الحقيقة إذ قال : « بأن الحياة فى الأصل من خلق الله فهو تعالى الذى أوجد الأصول الطبيعية والنماذج الأصلية للأحياء » .

* * *

ولقد تأسست الشيوعية على المبدأ المادى فاعتبرت أن المادة هى كل الوجود وأن نمو الحياة الانسانية فردية واجتماعية يتوقف على الظروف المادية والاقتصادية فحسب، بل أن مظاهر الوجود على اختلافها هى نتيجة تطور متصل للقوى المادية . . . وقال كارل ماركس بسبب ذلك أن الدين أفيون الشعب فيجب إبعاده ولكنه لم يفطن إلى ما ينتج عن الإلحاد من الهبوط بالإنسان إلى درك البهيمة بل إلى أدنى إذ أن الإنسان حينذاك يجرىّ مع غرائزه

---

(١) كتاب تصدع مذهب دارون

(٢) كتاب عقائد المفكرين فى القرن العشرين فصل مذهب التطور

مطلقاً من القيد الطبيعى الذى نشاهده فى البهيمة ، والذى يقفها عند حد الاعتدال . وإذا كان الشيوعيون يشبعون الجسم كما يعتقدون ويأملون أن يستغنى الإنسان الشبعان عن الدين فإنهم واهمون : إن الحاجة إلى الدين أصيلة فى النفس ! كما أن العدالةلا توجد إلا حيث يعترف بماهية إنسانية مشتركة بين أفراد النوع ، وبحياة إنسانية أرفع من الحيـــاة المادية وهذان ركنان لا يعترف بهما المذهب المادى !

* * *

كذلك ظهرت الوجودية من المذهب المادى وهى تقول بأنه يجب البدء من « الذاتية » لأجل دراسة الإنسان بدون تحديد لسلوكه أو حريته بل باعتباره كائن حر كل الحرية يعمل ما يشاء ولا يتغير بأى شىء إذ أن الوجوديه لا ترى أن بوسع الإنسان أن يجد معونة فى علامة على الأرض تهديه السبيل ، لأنها ترى أن الإنسان يجب أن يفسر الأشياء بنفسه كما يشاء وهو ليس إلا ما يصنع نفسه وما يريد نفسه وما يتصور نفسه من بعد وجوده ـ وهى ترمى بذلك إلى إنقاذ الحرية من الجبرية فتصف الوجودية نفسها بأنها مذهب تفاؤل لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه فتجعل الحياة الإنسانية ممكنة وتصل إلى تحليل النواحى القذرة البشعة من الإنسان فى قصص تلقى رواجا كبيراً . وهذه هى خاتمة المذهب المادى بلا شك ! !

* * *

ومن ثم فقد اتجه أصحاب المذهب العقلى أو الروحى الذى يفسر الوجود تفسيراً منطقياً إلى ما يسمونه « القوة الحيويه » فاعتبروها أصل الوجود : فقال هنرى برجسون أشهر زعماء مذهب « التطور الخالق » بأن هذا الوجود ليس كله مادة مسيطرة على الفكر والحياة بل هو قوة غير مادية تتطور من تلقاء ذاتها فهى انبعاث من باطن وخلق مستمر !

ولكن هذه القوة الحيوية التى هى جوهر الحياة لم يستطيعوا أن يبينوا لنا حقيقتها وليس بمقدور أحد أن يتوصل إلى ذلك لأن كنه الحياة أى سرها أو ماهيتها لم يقف عليه أحد كما أن الحياة لا وزن لها ولا حجم ولا طول ولا عرض ولا كثافة حتى تعرف ! كما أثبتت التجارب العلمية أن الحياة ليست ذاتية فى الخلائق لأنها عرض يوهب ويسلب ، وهى لم تنشأ ذاتياً من مواد عديمة الحياة إلا عن طريق حياة أسبق ، فمن المحقق إذن أن تكون الحياة منبعثة من كائن حى هو ذاته ينبوع الحياة وهى تبعث منه على كيفية عجيبة فائقة الإدراك لا يعلم العلم سرها .

إذن فنظرية التوليد الذاتى للقوة الحيوية مستحيلة علمياً إذ لا حياة بدون حياة سابقة لها ، ومعنى ذلك أن توليد الحياة لا يتأتى إلا بلمسة من حياة أخرى . وأما عن منشأ الحياة فقد وقف العلم صامتاً مما يستوجب الإيمان بأن بدء نقطة تكوين الحياة هو حتما فى اليد الإلهية مباشرة (١) !

وفضلا عن ذلك فإن أصحاب مذهب التطور الخالق قد اعترفوا بأن للحياة منافساً يتحداها فيعترض سبيلها ويعوق اقتدارها ويتبادل معها الانتصار والهزيمة وهو المادة . ومعلوم أن الخلائق الحية بأسرها بما فيها الإنسان خلقت من مادة صماء عديمة الحياة فى أصلها وعناصر تحليلها فمن أين جاءت هذه الحياة فى الخليقة يا ترى إلا من خالق حى قدير له سلطة الخلق والإحياء؟!

وبما أنه لا يمكن أن يكون المبدع الأصلى لروح الانسان روح سابقة لأن تلك الروح أيضاً معلوله لعلة ، ولا يمكن أن يكون الجسد أو قوى أخرى طبيعية غير عقلية هى علة الروح لأن من البدهى ألا تكون العلة أدنى مرتبة من المعلول لذلك وجب أن يكون وجود أرواحنا دليلا على وجود خالق للأرواح منه نبعت الحياة بكل مظاهرها فى الكون (٢) !

ومن ثم فإن خلق المادة وظهور الحياة فى المادة ثم ظهور العقل والضمير وحرية الارادة فى الحياة معجزات ثلاث تدل على وجود الله !!

* * *

فإذا ما انتقل أصحاب هذا المذهب إلى العقل وحسبوه أصل الوجود باعتباره أهم مظاهر الحياة فى الكون ، تقف أمامهم حقيقة عدم كفاية العقل مراراً حتى بعد أن تفتح أمامه أبواب العلم الحديث ووصل إلى عصر الفضاء وحاول أن يوقف الموت ولو قليلا ... فإنه حتى الآن لا يدرك كنه العمليات العقلية نفسها ولا كيف تتعطل حين تضطرب الأجهزة المحركة لها فى الدماغ . فالعالم قد يتفرس إلى الأبد فى مخ الانسان المنظور له ويفكر تفكيراً ملياً فى الذرات والجزئيات التى يتألف منها ولكنه لن يقدر أبداً أن يشرح لنا كيف يستخدم المخ هذه التركيبات فى عملية التفكير ، وهذا يثبت أن العقل لا يفهم الحالة التى بها يعقل ، فالعقل لا يدرك ماهية ذاته . إذاً يستحيل أن يكون جوهراً قائماً بذاته ، ولذلك لا يمكن أن يصح اعتباره أصلا للكائنات .

---

(١) هنرى درامند فى كتاب « الناموس الطبيعى فى العالم الروحى ـ الفصل الأول : أصل الحياة » .

(٢) جيمس أنس فى كتاب « علم اللاهوت القويم » الفصل الثانى ص ١٤٩ .

هذه هى محاولات العلم لاكتشاف أصل الوجود ونحن نجد فيها أنه يقر بالخلق ولكن كيف حدث ؟ وما هى كلمة العلم الأخيرة فى مسألة خلق الكون ؟ وهل يتفق فى ذلك مع ما يقول به الايمان الدينى ! ؟

يقول العلم : « إن الخلق حدث ذرى هائل يفوق الخيال : فإن قدرة خالقة بثقت وقت الخلق من العدم بحراً من النور والاشعاع فتفجرت العناصر الكيميائية فى ملايين الأشكال من المجرات والنجوم وصارت تسبح فى الكون كالجزر العائمة فى غياهب الفضاء - ويسمى ذلك « بالخلق الانفجارى »

وقد أيد البابا بيوس الثانى عشر هذه النظرية ووحد بين العلم والدين فى شأن الخلق فقال : « إن انفجار الكون قد انبثق من لاشىء بوحى من الله جلت قدرته - وهذا الوحى هو الذى قال عنه فى التوراة : « كن فكان » وأثبت البابا بهذه الكلمات إمكانية اتفاق العلم الحديث مع العقيدة الدينية التى تقول بقدرة الخالق فى إيجاد الكون من العدم ولو أنه من العسير علينا أن ندرك كيفية هذا الخلق المباشر لأن وسائله لا يحيط بها العقل لكونها مخالفة تماما لجميع ما نعرفه بعلمنا وما نتصوره بأفهامنا عن طرائق العمل وأصول الصناعة ووسائل الابداع . والمشيئة الإلهية فى هذا الصدد هى القوة المنفذة وهى تفوق كل القوى وتجاوز نطاق كل الممكنات لدرجة أنها تقوم مقام جميع العوامل الفعالة فى الكون وتسد مسدها ، ومصدر تنفيذ هذه المشيئة العليا هو أمره « كن » وأمره هذا من القوة والنفاذ بحيث لا راد له ولا دافع ، وحدوث الموجودات عنه تعالى تم بغير حركة وبغير زمان وبغير مكان وبغير أدوات ومن غير أن يحتاج فى إيجادها إلى شىء آخر معه ! فالعالم المنظور لم ينشأ أصلا من مواده المنظورة بل بكلمة الله ، وهى كلمة التكوين التى بها قال الله للشىء « كن : فكان » وهى التى أتقنت العالمين بما تحمله من قدرة فى إيجاد ما شاء أن يخلقه ويحدد له زمان وجود ! ».

* * *

وقصة الخلق وحدها التى سطرها الوحى فى فاتحة سفر التكوين هى التفسير الوحيد لبعث الموجودات إلى عالم الوجود - وهى تترك التفاصيل جانباً لأن الوقوف على مبدأ الوجود أمر لا نستطيع إدراكه بل هو يحير أكبر العقول ! ومهما بذلنا من الجهد لاستجلاء حقيقة ما حدث وقت الخلق فإننا نعترف صاغرين بحدودنا التى يجب أن نقف عندها لدى التأمل فى نقطة ابتداء الزمان والمكان أى لحظة الخلق التى لم يكن فيها أمس ولم يكن هناك مكان !! فتاريخ بدء الوجود

مجهول بالنسبة لنا ولسائر الكائنات العاقلة ولذلك ليس فى مقدورنا أن ندرك الأصل المباشر أو البداية المطلقة للوجود ! ويكفينا أن نعرف أن هذا الوجود أوجده الله !! وكان النور أول الموجودات فبه بدأت حركة الوجود الأولى ولذلك اعتبره بعضهم أصل الوجود - وقد استغرب البعض لوجود النور فى اليوم الأول قبل خلق الشمس ولكن العلم نفسه قد انتهى إلى أن هناك سدم منيرة كانت تدور فى الفضاء وهى التى قصدها الوحى فى اليوم الأول من الخلق أما فى اليوم الرابع فقد جمع الله الأنوار فى جلد السماء ومن بينها النورين العظيمين !

وأما الاختلاف على وقت خلق العالم بين العلم والدين فقد انتهى أيضاً . وذلك أن رجال الفلك والجيولوجيا يحسبون أن الكون قد وجد منذ ٢ بليون سنة ، وهذا القول يزعزع إيمان البعض فى حساب التوراة للخليقة . ولكن باحثى الكتاب المقدس لم يجدوا فيه أى تاريخ يثبت متى بدأت الخليقة وإنما استنتجوا من القول « فى البدء » أن هذا التاريخ أبعد من أن تستطيع عقولنا إدراكه . ويعتقد بعض الباحثين أن الآيات الواردة بعد تك ١ : ١ تدل على إعادة الخليقة وليس بدء الخليقة . وهم يعتقدون أن فى البدء خلق الله كل شىء كاملا ثم حدث شىء ما (وهو سقوط الشيطان) أتلف الخليقة فعاد الله وأصلحها بعد فترة من الزمن وهم يستندون فى ذلك إلى نصوص واردة فى أسفار الأنبياء الكبار (أشعيا وأرميا وحزقيال) وكل الأدلة تثبت أن الكارثة حدثت فجأة فى زمن سحيق فى ما قبل التاريخ !

وعلى ذلك يكون الخلق الأول البعيد المدى غير إعداد الأرض وخلق آدم عليها وبدء تاريخ البشرية الذى تعاون المؤرخون على تقديره التقريبى المعروف ولذا يقول بعضهم : إن بين عددى ١ و ٢ من تكوين ١ ملايين السنين التى لا نعرف مداها . وليس ذلك فقط بل لقد تأكد اتفاق العلم مع الوحى من ناحية تسليمه بترتيب الكتاب المقدس فى ظهور الأشياء المخلوقة . وهكذا تأيدت قصة الخلق علمياً إلى أبعد الحدود !

(٥)

دليل المنطق

الانسان نفسه

« لكل فرد من أفراد الجنس البشرى تمييز خاص بأنه الوحيد من نوعه وأنه مخلوق فى قالب معين لم يشاركه فيه آخر . وفى نفس الوقت يحوى فى ذاته مجموعة فريدة من البراهين المنطقية التى تدل على وجود الله »

عندما فكر الانسان فيما حوله وتأمل داخل نفسه وجد دافعاً قوياً للإيمان بالله . ويظهر ذلك مبدئياً فى الشعور بحضور الله فى الحياة وحاجة الإنسان إليه تعالى فى كل الظروف إلى أن تأخذ شمس حياته فى الغروب .

كان هذا فتحاً أكيداً للإيمان فى عالم المنطق ونزيد عليه فى هذه الدائرة ما يثبت وجود الله فيها بالكفاية التامة لمن يريد الاقتناع . وفيما يلى استعراض للبراهين المنطقية :

أولا - برهان الرهان :

وقد جعله بسكال أساس ضرورة نفعية تتعلق بمكسب هائل أو خسارة عظمى متسائلا : فى أى الناحيتين مصلحة الانسان ومنفعته ؟ ذلك أن الانسان مائت حتما فإعراض الكافر عن التفكير فى شقائه وحقارته لن يغير شيئاً من حاله - فإذا لفتنا نظره إلى الموت فإنما نلفت نظره إلى نفسه وإلى منفعته الكبرى . هذا ما يجب أن نعاونه على فهمه حتى يبدو له الدين حقاً لأن الدين يعرف شقاءه ويعده بالعلاج ، فلنذكر الملحد بالموت وبالأبدية : ماذا لديه من القول عنهما ؟ هل يقول أنه لا يبالى ؟ أليس منتهى الحماقة ، ونحن نعنى أكبر العناية بصغائر الأمور ، ألا تثير المسألة الكبرى التى يتوقف عليها النعيم الأبدى أو الشقاء الأبدى ؟ هل يقول إن العقل يثبت أن الدين غير مفهوم ؟ فليكن ولكن كيف نستنتج من هذا أن الدين ليس حقاً ! ؟ لنفرض الغموض متساوياً من جهة إثبات الدين ومن جهة نفيه ، يبقى أن الاختيار بينهما واجب . ولنلاحظ أن عدم الاختيار هو فى الحقيقة اختيار ضمنى للنفى ، من حيث أننا حينئذ نحيا كما لو لم يكن الله موجوداً ولم تكن النفس خالدة . وهو اختيار الجهة

الأشد خطراً ، من حيث أنه استهداف للعذاب الأبدى . فلو قبلت هذا الفرض فقد خسرت كل شيء وأوقعت نفسك فى العذاب الدائم ـ فى حين أنك لو قبلت الفرض الأول وهو أن الله موجود فقد كسبت الحياة الأبدية والسعادة اللامتناهية ! !

وإزاء الفرض الثانى : الله غير موجود . أقول : سواء قبلت الفرض أو رفضته ما كسبت ولا خسرت شيئاً . لأنك حتى لو قدرنا خيبة الأمل فى الحياة الآجلة . فليس لنا أن نأسف على شيء ـ وهذا ما يعطى حجة الرهان قوتها الظافرة ـ فإن المسيحى أحسن حالا من الكافر وأسعد فى هذه الحياة العاجلة : إنه أمين صالح متواضع عارف للجميل محسن صديق وفىّ . فإذا رجعنا إلى منفعتنا الحقة فحسب ، وجب علينا أن نتمنى أن يكون الدين حقاً ـ وعلى ذلك فإن راهنت على أن الله موجود كسبت كل شيء فى الفرض الأول ولم تخسر شيئاً فى الفرض الثانى ! !

ثانيا ـ برهان النزوع :

ومعناه أن هناك نزوعاً غريزياً فى وجدان كل انسان نحو الإله وهو ظاهر فى « الحاسة الدينية » التى تعتبر بمثابة إقرار من الانسان بأنه مدين بوجوده لخالق عظيم وبدون الاعتراف بذلك لا يعرف لِمَ وجد على الأرض! فالانسان يأتى إلى العالم بغير إرادته ، وهو لا يدرى فى أى عصر وبين أى جيل من الناس يولد ويعيش ، ومتى جاء إلى العالم فلا يدرى كم يعمر ، ولن يستطيع أن يضمن لنفسه المناعة من الموت أو المرض ـ ولكن رغم ذلك هو سيد الكل فمن يمكنه حل هذا اللغز ؟ وما سر البرنامج الخاص الذى بحسبه يشعر كل كائن فى الكون بمكانه ، ولذلك نجد الكائنات تنزع لشغل أماكنها وأداء عملها . بل الانسان نفسه ليست لحياته من ضرورة إن لم يكن الخالق قد نظم لها برنامجاً حافلا ولولا هذا التنظيم لحدث اضطراب واختلال فى نظام العالم بأسره !

وفضلا عن ذلك ففى نفس كل امرىء فراغ لا يملؤه سوى الله ، وعطش لا يمكن أن يرويه غيره تعالى . والانسان إشباعاً لهذا الجوع الروحى الغريزى يبحث عن الله فى كل مكان وزمان ومهما اختلفت درجة العلم والعرفان !

فكما أن جوع الجسد دليل على وجود طعام يكفيه ، وجوع العقل دليل على وجود معرفة تشبعه ، كذلك وجود هذا الدافع الغريزى هو من أقوى الأدلة على وجود الله : إذ من

المعروف أن وجود غريزة ما فى أى كائن يحمل بين طياته الدليل على وجود ما تدعو إليه هذه الغريزة . فلو لم يوجد فى الكون طعام لما تولدت فينا غريزة الجوع، ولو لم يوجد فى الكون إله الله نشأت فينا غريزة التدين !

وكما وجد الانسان لكل حاجة ما يلائمها هكذا نجده يتوق لكائن أعلى يحميه ويرشده ويشبع قلبه فيتطلع إلى من يسد هذه الأعواز فيجد هذا كله فى الله !

ثالثا ـ برهان الغاية :

لقد أثبت البحث العلمى سخف الزعم بأن التطورات فى الطبيعة هوجاء تحدث جزافاً، وقرر بوجود القصد والتنسيق الذى يهدف إلى غرض معين . والقصد والتدعيم فى الكون يدلان على سيد جبار حكيم منظم للطبيعة وإلا لسارت فى طريق الفوضى بلا ترتيب أو غرض ! ويقول أغسطينوس : « إن تكوّن الأحياء يدل على غائية ، وتدل الغائية على حكمة الله » . إذن وجود القصد الحكيم واضح فى تكوين الموجودات وكذلك فى تسييرها وتعيين مكانها وناموسها سواء فى ذلك ذرات الهواء أو سير الكواكب أو سريان الحرارة فى الأجسام ! ونحن نشاهد بين الأشياء التى فى العالم أجسام طبيعية لا عقل فيها ولكن يبدو من تصرفاتها أنها تسلك دائماً طريقاً معيناً لا تحيد عنه . فمن الذى ألزمها التحرك فى مدار معلوم لا تتعداه ! ؟

واضح هنا أن مثل هذا القصد لا بد أن يصدر عن كائن عاقل عليم ، وأن أعماله هذه تشبه السهام التى يلقيها رامى القوس فتصيب أهدافها ! ! وانه بالطبع قبلة الكائنات العاقلة التى تسعى للارتقاء إليه — ولذلك قال ملتون مخاطباً إياه : « إن بناء هذا الكون العجيب هو بناؤك فكم أنت فى ذاتك عجيب » !

ويقول شكسبير : « إن هناك إلهاً يحدد نهاياتنا ويتحكم فيها مهما نرد » ! فالوسائل والخطط التى ينطوى عليها سجل الخليقة إن هى إلا برامج منظمة للحياة . فالمخلوقات جميعها بمجموعة استقبال هائلة يستجيب فيها بعضها لنداء البعض الآخر وفق برنامج عام أعده الله وجعل لكل كائن مكاناً فيه ! وهذا يدل على أنه لا بد للكائن المحدود من غاية تستوجب تقدير وتدبير مصدرهما لما الذى لا غنى لمخلوقاته عنه تعالى مع سمو حكمته عن عقول الأنام فى كافة ما يحدث بينها . فهذا القصد أى الغاية البادية فى سائر المصنوعات بما فيها الانسان دليل على وجود صانع لها ، وأن هذا الصانع قبل أن ينشىء مخلوقاً كان يرتب له نظام حياته مقدماً ولذلك أوجد النبات ثم الحيوان ومن بعد ذلك الإنسان ! !

وهو تعالى خالق البرايا كلها ومبديها من العدم إلى الوجود وضابطها من بعد إبداعه إياها ويعتنى بها طول مدى دوامها على نحو ما يشاء : فأعماله المنظورة فى السماء والأرض والبحار والسائرة بدون مساعدة منظورة برهان منطق قاطع على وجوده تعالى وحكمته اللامستقصاء وقدرته اللامتناهية ! ! فإننا نعلم أن العقل الجبار الذى خلق العالم ورتبه بنظام خاص هو الذى أعد فيه برنامجاً معيناً لحياة كل كائن فيه ! !

وهذه حقائق بديهية يقينية يشعر بها القلب كما يقتنع بها العقل ملزمة بوجود الله ! !

رابعا ـ برهان المسئولية :

يقول كنط : « شيئان يملآننى إعجاباً ـ السماء ذات النجوم فوق رأسى والقانون الخلقى فى نفسى » هذا هو الوازع الأخلاق الذى يسمى « الضمير » وهو علامة فى النفس الانسانية لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله لذلك يصف أحدهم الضمير بأنه غريزة إلهية مفطورة فينا يحملها كل إنسان فى أعماق نفسه ويخاطبه بالقول[1] :

« أيها الضمير ـ أيها الغريزة الإلهية ـ والصوت الخالد السماوى . أيها الحكم المعصوم فى الخير والشر الذى يجعل الانسان شبيهاً بالله ... أنت هو الذى تسمو بى وبدونك لا أشعر بشىء فى نفسى يسمو بها عن مستوى الحيوان » .

فإذا كان لا بد من وجود سعادة مرتبطة بالفضيلة وعلى قدرها فلا يمكن أن تحقق هذه السعادة إلا بوجود علة هى الخير الأعظم الأصلى مصدر كل خير إضافى وكل سعادة ممكنة وأساس قواعد الفضيلة والعدالة والخير وهو الله تعالى وإلا[2] :

« فمن أين استوجب الانسان أن يدين نفسه للحق ما لم يكن فى الكون حق مطلق قد غرس فى نفسه هذا الوجوب ؟

ومن أوحى للانسان بأن الحق ولو كان مؤلماً خير من الخطأ ولو كان عذباً ؟

ومن أين تقرر فى طبع الانسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه ولو لم يطلع أحد على دخيلة نفسه » ؟

إن هذا التساؤل يؤدى حتما إلى وجود إله أودع فى نفوس البشر محبة الخير وكراهية الشر وبذلك كانت الأخلاق الفاضلة والصفات الأدبية قبس من نور الطبيعة الإلهية !

---

(١) روسو فى كتاب اميل أو فى التربية (٢) كتاب الله للعقاد

إن الملحد ليبدو فى الواقع فى موقف يثير الدهش حين يزعم أن هذه الأشياء حدثت وكنى لأن من الحق والمنطق أن يقال أنها صادرة عن كائن أسمى استمد البشر هذه الصفات منه وشعروا بالمسئولية نحوه وهو الله تعالى المقياس المطلق للخير والصواب . وهذا هو لب الحياة ومحور الوجود الانسانى بل هو الذى يجعل الإنسان قوة روحانية لها مبادىء وأهداف ومثل عليا ! !

ومعلوم أن هذه المبادىء أبدية قد كتبت فى ضمير الانسان من يوم وجوده على الأرض وستظل باقية أبد الدهر ـ وهى ضرورية عملياً إذ لا صلاح للمجتمع البشرى بدون الرجوع إلى السلطة العامة التى تتقابل كل المصالح البشرية حولها وتجد هدفها وقيمتها فيها . ولهذا يقول بسكال :

« يرغب الذين ضلوا السبيل أخلاقياً أن ينكروا وجود الله ليخفوا خطيتهم . لذلك سيبقى فى العالم زنادقة وملحدون ما بقيت الخطية ، تحرجهم أشد الحرج فكرة وجود الله وذلك لأنهم لا يريدون سلطاناً صارماً كهذا السلطان . إنهم يريدون أن يقيموا من أنفسهم إلهاً . وإذ يجعلون إرادتهم حكماً ومقياساً يعكسون الأشياء ويفسدون الميزان الذى يميز بين الصواب والخطأ . وحسب قياسهم يحسبون كل شىء يتعارض مع رغباتهم شراً ، وكل شىء يتفق مع خيالاتهم بل حتى مع شهواتهم الظالمة خيراً . كأن بهم جنون الذات الذى يلح عليهم لتعظيم ذواتهم . أما معيار الصواب والخطأ فينبغى أن يكون له مرجع أسمى وهو الله حتى لا يعبث به الانسان عبثه الذى يريد . وينبغى ألا يسترخص هذا المعيار ويستهان به بحيث يلائم الفرد وما ينزع إليه .

فليغرق الملحدون فى جنونهم فإن الحياة لا تتأثر بهم وهى تسير بخطى خاشعة إلى الأمام دائماً . وعلى من يطلب الله أن يكشف أولا النواميس الثابتة التى تعمل خارج نفسه ، ويدرك فى داخل نفسه أيضاً القوة التى تجرى فيه قصداً خفياً عميقاً يتلاءم مع النظام الأدبى والأخلاقى العام ، وأن الله يملأ الحياة داخلا وخارجاً وإنه خالق كل الأشياء وحافظها ـ بهذه كلها يقدر الانسان أن يصون نفسه من الضلال » .

خامساً ـ برهان الوراثة :

يؤيد علم الجينات (وحدات الوراثة) نظرية الخلق الإلهى إذ أنه يرينا أن كل خلية من

خليات التذكير أو التأنيث تحتوى على عدد من الكروموزوم (المادة العضوية) التى تعتبر العامل الحاسم فى نقل الصفات الوراثية وما يكون عليه الكائن الحى(١) .

وتبلغ هذه الجينات منتهى الدقة بحيث لو وضعت جميعها فى حيز واحد - وهى التى يتولد منها سكان الكرة الأرضية جميعاً - لما زادت على قمع الخياطة . فمن المدهش حقاً أنه فى حيز صغير كهذا تحتشد خواص أكثر من ألفى مليون من البشر بجميع أسرار خصائصهم الفردية والنفسية الموزعة بينهم . فكيف إذن تنطوى فى هذه الناسلات جميع عوامل الوراثة المتخلفة من حشود الأسلاف وتستبقى لكل فرد مقوماته الشخصية فى مثل هذا الحيز المتناهى فى الدقة والصغر ! ؟ فإننا هنا بصدد حقيقة غريبة وهى وضع النوع الانسانى كله فى قمع صغير لا يتسع إلا لأنملة وهو يتسع لكل المميزات التى لكل فرد فيه » !

وهكذا تبدأ الحياة لكل منا فى لحظة غير مدركة لا تدعو إلى الزهو من نطفة دقيقة غاية فى الصغر تحوى من القوى الكامنة مدداً لأجيال من البشر لا عداد لها وذلك عند إهتداء نطفة واحدة من ملايين إلى بويضة تقرر وجود الكائن البشرى الجديد الذى يبرز من بين ثنايا المجهول ! !

فمن أين لهذه الناسلات أن تحفظ التصميم وسجل السلف والخواص التى لكل كائن حى وتقرر حفظ الأنواع بحسب قانون الوراثة الذى وضعه الخالق العظيم فى الكائنات الحية المنظورة ! ؟ مما يظهر معه أن ناموس الإنتاج بحسب قانون الوراثة هذا الذى أعلنه موسى فى فاتحة سفر التكوين من أن « كل شىء يخرج كجنسه » هو من أعظم الحقائق العلمية التى تؤكد وجود الله . فقد فشلت كل محاولة فى مناقضة هذا القانون الذى يحفظ أصل الأنواع ! !

فليقل العلم إذن أنه يجهل سر هذا القانون لأن الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط به ولكن لم يزل العلم يجهل أشياء كثيرة فهو لم يستطع أن يدلنا على ماهية الحياة وحقيقة الموت ولا ماذا كان قبل الحياة وما سيكون بعد الموت ! !

بل إن تركيب هذا الجسم البشرى لم يزل سراً لا سبيل لادراكه والاحاطة به : تبلغ أعضاء هذا الجسم ٢٤٨ وأعصابه ٣٦٥ وقد اتحدت عظامه معاً فى انسجام وتناسق وهيأت له القوة والحركة! فمن ليّن النخاع، ومَن صلّب العظام ، ومن وزّع الأعصاب! ؟ بل كيف انضمت آلاف الخلايا التى يتكون منها بعضها إلى بعض بحسب الترتيب المطلوب ! ؟

---

(١) الأستاذ كريسى موريسون فى كتابه « الانسان لا يقف وحيداً »

أما القلب فيشبه مضخة ماصة كابسة يأخذ من الجسم ليعطيه، ويقول العلم أن الدم الذى يصرفه كل ٢٤ ساعة يكفى أن يملأ ١٥٠ برميلا على فرض أنه يمر ولا يرجع ثانية كما يفعل . أما صماماته فغريبة وهى أشبه بأبواب تفتح عند دفع الدم ، ثم تنثنى إلى الخارج من تلقاء نفسها حتى لا تعود كمية الدم التى يدفعها إليه . فمن الذى نفخ الشرايين وأدخل فيها الدم ورسم له دورته من القلب وإليه ! ؟

أما الحواس فهى من العجائب حقاً فمن الذى وزع لكل حاسة منها أعصابها التى تنقل بها التأثيرات الخارجية إلى الدماغ دون اختلاط فيما بينها وكيف يميزها الدماغ ويفهمها فى مركز الأعصاب العام ! ؟

أما بصمات الأصابع التى يختلف فيها الواحد عن الآخر فقد أضحت دليلا على تحقيق شخصية الفرد . وأما الخيال والمشاعر وسائر الملكات فالمتأمل فيها يرى عجباً . .

ومع ذلك فإن هذا الجسم يزن فى المتوسط ١٥٠ رطلا من المعادن والعناصر الزهيدة القيمة ـ وهو فقط الخيمة التى تسكنها الروح التى تجعل من كل هذه المواد إنساناً حياً .

فمن أين للانسان هذا الكيان المدهش[1] بما يحتويه من خلايا تبلغ الملايين فى الجسم الواحد وهى أكثر فى العدد من عدد الجنس البشرى كله على وجه الأرض ! ؟

وأما كيف تنال كل خلية غذاءها اللازم لها وحدها فتحصل على المواد التى تحتاج إليها من المعمل الكيميائى « المعدة » وتحولها إلى عظام ولحم ودهن ودم وأوتار وجلد وشعر بل إلى أميال من العروق والشرايين ومئات من المواد والسوائل كل بخاصياته ومنافعه ـ وتفعل كل خلية عملها هذا بحسب اختصاصها فى اتقان بالغ فهذا ما لا تزال تجهله كل الجهل . وهكذا الحال فى سائر التغييرات والتحويلات التى لا تزال آخذة مجراها فى تركيبنا العجيب كالافراز وتكوين الدم ووظائف سائر الأعضاء .

فإن هذا كله يقود حتما إلى الإيمان بالله ـ فإن تركيب أجسادنا العجيب بحسب قانون الوراثة دليل قاطع على وجود الله ! !

---

(١) لورد انبرى فى كتابه « السعادة والسلام »

(٦)

دليل العقل

نموذج الكمال

« حقيقة راهنة أن الإيمان بالله أكبر فكر يخطر فى عقل البشرية ويدل على أن وجود الله حقيقة طبيعية يبرهن عليها العقل ولا يقنع بقبولها من المجتمع »

أساس اليقين بالحقائق الحاصل عليها عقلنا هو إجماع العقول عليها وعدم التسليم بها هو الجنون بعينه . فاليقين يقوم فى قبول حقائق العقل الكلى والحقائق التى يستنتجها منها العقل الفردى . والله هو العقل الكلى إذ هو أصل المعرفة الكلية .

ثم أن رجوعنا إلى أنفسنا يكشف لنا عن مثلٍ أعلى نحس أننا ملزمون بتحقيقه ، والله متضمن فى هذا الشعور بالمثل الأعلى بل أن هذا الشعور هو أكثر من دليل على وجود الله ـ إنه حضور الله فينا ـ وهكذا ينتهى العقل إلى الإيمان ويتكمل به .

أجل لقد عثرنا على فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية (أى كالها) كل ما فينا وهى لكائن كماله بالفعل لا بالاكتساب ـ وهذه الفكرة هى فكرة فينا لموجود كامل لا متناه . وهذه الفكرة واضحة متميزة فإنها تحوى كل ما تتصوره من كمال .

من أين جاءتنى هذه الفكرة ؟ هل استنبطتها من نفسى ؟ ولكنى موجود يشك ويتردد والشك علامة النقص إذ من البين أن العلم خير منه ـ فكيف أستطيع استحداث فكرة الكامل وأنا ناقص؟ هل أقول أنها جاءت من الأشياء الخارجية ؟ ولكن العالم الخارجى ناقص مؤلف من أشياء كل منها محدود ، ومهما أجمع أشياء أو أفكاراً ناقصة بعضها إلى بعض ، فلن أبلغ إلى تأليف فكرة الكامل اللامتناهى . هذا إلى أن هذه الفكرة بسيطة لا مجال فيها لتأليف وتركيب ، ومن حيث أنها تمثل موجوداً واحداً حاصلا على جميع الكمالات وأنى لا أستطيع أن أنقص منها أو أزيد فيها شيئاً ... لهذا فإنه لو لم تسبق لى فكرة هذا الموجود الكامل الذى لا نقص فيه لما استطعت أن أعتبر نفسى ناقصاً . وإذن فليست هذه الفكرة حادثة ولا مصطنعة ولا يبقى إلا أنها فطرية بسيطة أولية .

إذن فالله موجود وهو نموذج فكرة الكامل اللامتناهى وعلتها . وهذه الفكرة فى نفسى

هى التى تجعلنى أتصور وأفهم حدودى ووجودى ونقصى ! وواضح أنه لا يمكنى أن أكون سبب وجودى أنا الذى أفكر فى الكائن الكامل إذ لو صح ذلك لاستطعت الحصول على تلك الكمالات التى أتصورها فى الله والتى أعرف نفسى خالية منها مفتقرة إليها . فوجودى يفترض العدم الذى خرج منه وخروجى من العدم يفترض قدرة مطلقة لا متناهية لا يمكن أن أكون حائزاً عليها ـ إنها للكائن الكامل الذى أفكر فيه الذى يؤدى البحث عنه إلى الإقرار بوجوده! ولا مفر من ذلك لأن قدرته كاملة ولأن كماله لا متناه ! ويكفى لإثبات وجوده أن تكون ضرورة وجوده متضمنة فى المعنى الذى لدينا عنه !

ومن ذلك نرى أن فكرة « نموذج الكمال المطلق » لا يمكن أن تكون صادرة فينا إلا عن كائن كامل جداً أى عن إله موجود بالحقيقة ! وأن كل الكمالات كانت فيه فيما مضى وأنها لا بد قائمة فيه الآن بما أنها لامتناهية !

وهكذا قد أدركت الله إدراكا مباشراً وبلغت إلى موجود محقق هو « المثل الأعلى » للكائنات . وبذلك تكون فكرة الله محدثة فىّ منذ خلقت وهى طابع الله فى خليقته ـ ولهذا لا يكاد الانسان يصل إلى منزلة حتى يطلب ما فوقها وهيهات أن يقف عند حد وهذا هو سر النبوغ والعبقرية .

فالعقل الانسانى كلما تصور شيئاً عظيما تصور ما هو أعظم منه ، وما من شىء كامل إلا والعقل البشرى متطلع إلى أكمل منه ثم أكمل إلى أن يصل إلى كائن له الكمال المطلق الذى لا مزيد عليه ولا نقص فيه كما سبق البيان !

أما كل كائن فى الوجود — غيره تعالى — من حيث الحقيقة والمسئولية والثبات فهو ناقص غير كامل فى شىء من هذه الصفات ولن يجمع فى شخصه كل المحاسن أو الفضائل .

وهنا وجب أن ندرك أن بقاء الأشياء الناقصة بغير الاعتماد على موجود كامل أمر محال تماما لأن النقص والبقاء الذاتى المستقل أمران متناقضان إذ انعدام الكمال فى الشىء موجب لانعدام بقائه. وكذلك النقص دليل على أن الشىء إنما يستمد وجوده من مصدر آخر وآية ذلك أن البقاء التام المستقل بذاته يجب أن يقوم بنفسه لا بالانتساب إلى أى مصدر آخر ، لذلك فإن وجود كائن كامل أمر ضرورى لأن خلو العالم منه يترتب عليه استحالة البقاء لكل ما فى العالم . وما دام العالم وما فيه باقياً وموجوداً فهذا دليل واضح على وجود كائن كامل فيه وتكون هذه النتيجة حقيقة مقررة ثابتة يؤيدها ما نشاهده من مظاهره وآثاره التى فى الكون

فيكون وجوده أمراً ثابتاً محققاً واجب الايمان بكل تأكيد كحقيقة عليا للكمال الأعظم إذ هو تعالى كامل تمام الكمال لأنه إذا نقص فى شيء ما فلن يكون رباً فوق الجميع ولن يكون إلهاً .

* * *

وفضلا عن ذلك فإن فكرة الكائن الكامل هى فكرة كائن لديه جميع الكمالات، ولن يكون هذا الكائن تام الكمال ما لم نقرر الوجود فيه لأن الوجود كمال، فكماله يتضمن وجوده بالضرورة إذن فهذا الموجود الكامل موجود لا محالة لأن وجوده فى التصور يحتم بالضرورة وجوده فى الحقيقة : لأن الكمال المطلق ينتفى عنه بسبب عدم وجوده ولا يبقى له شيء من الكمال بل يكون نقص مطلق فى حالة عدم الوجود ـ ولو كان الكامل غير موجود لكان ناقصاً مفتقراً لموجد !

فوجود الله لازم من ذات فكرة الله لأن ماهية الله تقوم فى حصول جميع الكمالات . وأن فكرة الله هى الفكرة الوحيدة التى تتضمن الوجود الذاتى . إذاً مجرد تصور هذا الكمال برهان فذ على حقيقة وجود الله تعالى . ومع أن ذلك الوجود بطبيعته الروحانية السامية وجود خفائى إلا أن الفطرة السليمة تشعر به إذ هو المثل الأعلى لكل الموجودات ومن ثم تنجذب هى اليه إذ أنها لا تستكمل أسباب الرقى والنهوض إلا به تعالى !

وهذا دليل على وجود الله هو دليل القديس أنسلم مهّد له ديكارت فيلسوف الايمان بالله ودعمه ! !

* * *

وبهذه الأدلة كلها قد تأيدت حقيقة وجود الله بمنطق العقل والقلب ومنطق الحقيقة والواقع، ومنطق البحث الدقيق والعلم الصحيح ، مما تنهار أمامه أدلة المنكرين ولا تقم لها قائمة ! !

فهرس

صفحة

تقديم الكاتب والكتاب ٦

١ ــ دليل الفلسفة : « المحرك الأول » ٨

٢ ــ دليل الفلك : « الناموس الكونى » ١١

٣ ــ دليل الطبيعة : « التوازن المعقول » ١٦

٤ ــ دليل العلم : « أصل الوجود » ٢١

٥ ــ دليل المنطق : « الانسان نفسه » ٣٣

٦ ــ دليل العقل : « نموذج الكمال » ٤٠

﴿ تم بعون الله ﴾

ويليه الكتاب الرابع وموضوعه

﴿ وحدانيـــة الله ﴾

الباب الثانى

وحدانية الله

مارس سنة ١٩٦٢

تمهيد

بدأت « الديانة اليهودية » باختيار ابراهيم الذى تلقى إعلاناً مباشراً من الله يأمره بالخروج من أرضه وعشيرته لكى يعزله عن البيئة الوثنية ويهيء له الجو الصالح لتأسيس الدين السماوى الذى يقوم على إعلانات إلهية : وهو دين الوحى الذى استندت الديانة اليهودية فى اعتقادها الدينى عليه . ولذلك دعى ابراهيم « خليل الله » واعتبر بحق « أب المؤمنين » فى كل من الأديان الثلاثة !

وظهرت « الديانة المسيحية » فى أعقاب اليهودية التى كانت تمهيداً لها ، فقد نادت تلك بالوحدانية وكانت تعمل فى نفس الوقت على إعداد نسل مقدس يأتى منه « المسيح » ليعلن الديانة الروحية السامية . لأنه وإن كانت الوحدانية لازمة لتحرير البشر من تعدد الآلهة ولكن إعلانها لم يكن كافياً للانتقال بهم إلى الحالة الروحية العليا !

* * *

ولم يكن الطريق أمام الشرائع السماوية ممهداً بل لقد واجهت دعوتها إلى الحق كثيراً من الصعاب . وتاريخ الأديان حافل بالبطولات والتضحيات والأعمال المجيدة التى كانت لازمة لإنارة العقول البشرية ورفع الجهل الذى كان يخيم عليها والذى كان ماثلا فى الخرافات التى نشرت ظلالها على من كانوا يبتعدون عن نور الحق ويستسلمون لأوهام الباطل .

ولما ارتقت الانسانية وتحضرت وسارت بخطى واسعة فى سبيل العلم ، قام الإلحاد العصرى ـ الوثنية الحديثة ـ لمناهضة الإيمان ومصارعته من جديد بدعوى أن الأديان معطلة للقوى مضيعة للجهود ، ورغم هذا وذاك فإن الإيمان لم يخذل فى أية معركة بل سار الركب الدينى فى طريقه يشهد لله تعالى بين كافة الأمم والشعوب ولم يزل يتابع سيره فى كل بقاع الأرض!

الفصل الأول

تدرج الإعلان :

كان من الطبيعى أن يجىء إعلان الوحى المكتوب متدرجاً أى على مراحل يكمل بعضها بعضاً (اشعيا ٢٨ : ١٠) إلى أن تم ذلك الإعلان وأصبح كاملا . وليس معنى هذا أن الأديان تتطور أى تتبدل وتتغير بحسب تتابعها لأن دين الوحى واحد ، وإنما كان لا بد من ذلك التدرج لأن البشرية لم تنضج نضوجاً تاماً دفعة واحدة ، فكان من المنتظر مرور وقت كاف حتى يتلقى عقل البشر نور الوحى ويهتدى به كاملا ! ! وإذ قد تم ذلك لم تعد أجزاء ذلك الإعلان الإلهى متناقضة بحسب ما يبدو بينها من اختلاف بل نجدها بحسب هذا التدرج متكاملة لا مجال فيها لتطور مزعوم يتلاءم مع تطور الأجيال والجماعات وإلا لكان هناك داع لظهور ديانات جديدة باستمرار تتناسب مع تطور البشرية الطبيعى الأمر الذى يستحيل معه ثبات شريعة الوحى ولزوم اهتداء البشر بها ! !

ومعلوم أن كل شريعة سواء فى الطبيعة أو فى الضمير أو فى الإعلان المكتوب مبنية على إرادة الله وهى عبارة عن مطاليب طبيعته تعالى وهذه غير قابلة للتغيير ولذلك فإن النواميس الطبيعية التى وضعها الخالق فى العالم الطبيعى لم تتغير وتتبدل رغم تطور الإنسان وتقدمه وبالمثل الناموس الأدبى الذى يحدد صلة الانسان بخالقه وهو المعروف بالوصايا العشر التى استلمها موسى على الجبل مكتوبة بيد الله فهى أيضاً غير قابلة للتغيير أو النسخ بل هى لازمة وثابتة ثبوت نواميس الطبيعة التى لا تتغير ! ! فالمسيحية لم تنقض ناموس موسى بل تأسست عليه كما أن ديانه موسى ابتدأت بالوعد مع ابرهيم وهذا أخذ مبدأه عن عهد آدم الذى وعده به الله تعالى وهو « ونسل المرأة يسحق رأس الحية » (تكوين ٣ : ١٥)

ومن ثم لا يدّعى الدين المسيحى أنه جاء ناسخاً أو مبطلا للديانة الموسوية وإنما هو مكمل لها ولذلك قال مؤسسه العظيم : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ٥ : ١٧) ولذلك كان العهد القديم نصف كتاب المسيحية المقدس والنصف الآخر هو العهد الجديد : وإذ قد أخذت المسيحية العهدين معاً فقد دللت بذلك لا على نسخها الديانة اليهودية بل على انها امتداد لها ولباب وتفسير وتحقيق . . ومن ثم لا يصح اعتبار ظهور المسيحية بعد اليهودية تعاقب فى الأديان ! !

* * *

تدرج الاعلان :

كان من الطبيعى أن يجىء إعلان الوحى المكتوب متدرجاً أى على مراحل يكمل بعضها بعضاً (اشعيا ٢٨ : ١٠) إلى أن تم ذلك الإعلان وأصبح كاملا . وليس معنى هذا أن الأديان تتطور أى تتبدل وتتغير بحسب تتابعها لأن دين الوحى واحد ، وإنما كان لا بد من ذلك التدرج لأن البشرية لم تنضج نضوجاً تاماً دفعة واحدة ، فكان من المنتظر مرور وقت كاف حتى يتلقى عقل البشر نور الوحى ويهتدى به كاملا ! ! وإذ قد تم ذلك لم تعد أجزاء ذلك الإعلان الإلهى متناقضة بحسب ما يبدو بينها من اختلاف بل نجدها بحسب هذا التدرج متكاملة لا مجال فيها لتطور مزعوم يتلاءم مع تطور الأجيال والجماعات وإلا لكان هناك داع لظهور ديانات جديدة باستمرار تتناسب مع تطور البشرية الطبيعى الأمر الذى يستحيل معه ثبات شريعة الوحى ولزوم اهتداء البشر بها ! !

ومعلوم أن كل شريعة سواء فى الطبيعة أو فى الضمير أو فى الإعلان المكتوب مبنية على إرادة الله وهى عبارة عن مطاليب طبيعته تعالى وهذه غير قابلة للتغيير ولذلك فإن النواميس الطبيعية التى وضعها الخالق فى العالم الطبيعى لم تتغير وتتبدل رغم تطور الإنسان وتقدمه وبالمثل الناموس الأدبى الذى يحدد صلة الانسان بخالقه وهو المعروف بالوصايا العشر التى استلمها موسى على الجبل مكتوبة بيد الله فهى أيضاً غير قابلة للتغيير أو النسخ بل هى لازمة وثابتة ثبوت نواميس الطبيعة التى لا تتغير ! ! فالمسيحية لم تنقض ناموس موسى بل تأسست عليه كما أن ديانه موسى ابتدأت بالوعد مع ابرهيم وهذا أخذ مبدأه عن عهد آدم الذى وعده به الله تعالى وهو « ونسل المرأة يسحق رأس الحية » (تكوين ٣ : ١٥)

ومن ثم لا يدّعى الدين المسيحى أنه جاء ناسخاً أو مبطلا للديانة الموسوية وإنما هو مكمل لها ولذلك قال مؤسسه العظيم : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ٥ : ١٧) ولذلك كان العهد القديم نصف كتاب المسيحية المقدس والنصف الآخر هو العهد الجديد : وإذ قد أخذت المسيحية العهدين معاً فقد دللت بذلك لا على نسخها الديانة اليهودية بل على انها امتداد لها ولباب وتفسير وتحقيق . . ومن ثم لا يصح اعتبار ظهور المسيحية بعد اليهودية تعاقب فى الأديان ! !

* * *

ولا شك أن الله جعل الديانة اليهودية مقدمة للديانة المسيحية لأنه نظراً لسمو هذه الديانة الأخيرة وصعوبة مرتقاها لم يعلنها الله من مبدأ الطريق بل رتب أن تسبقها اليهودية لكى تمهد لها حتى لا يفاجأ البشر بها فى وقت مبكر لا يقدرون فيه على هضمها وخصوصاً ونحن نجد فيها بجانب التوحيد إعلان التثليث وسنرى سبب ذلك فى بحث آخر .

أما لماذا قامت الديانة اليهودية على أساس مجموعة من الطقوس والفرائض الجسدية التى كانت موضوعة إلى وقت الإصلاح « أى ظهور المسيحية » (عب ٩ : ١٠) فقد كان معناه إعطاء الإنسان فرصة ليصلح حالة السقوط التى جعلته خليقة عتيقة لا يمكن للبشر معها أن يقتربوا إلى الله ولا أن ينالوا رضاه : لأنه تعالى لا يستطيع أن يرحب بالإنسان فى الجسد مطلقاً . ولذلك لم تضمن الديانات الأخرى لأتباعها القبول لدى الله عن ثقة تامة ويقين أكيد . وكانت هذه التجربة لازمة لتجهز البشر لقبول إعلانات المسيحية المجيدة باستحالة إصلاح الإنسان فى الجسد وبإنشاء خليقة جديدة يتم بها معجزة تغييره بالولادة من الروح ! !

ولقد كان تعامل الديانة اليهودية مع دائرة الجسد أمر لا بد منه فى البداية لأن البشر لا يمكنهم الانتقال إلى المعنويات بدون المرور على المحسوسات لأن وجودهم لا يبدأ له ظهور إلا فى الجسد أولا : « فالروحانى ليس أولا بل الحيوانى وبعد ذلك الروحانى » (١ كو١٥ : ٤٦) فكان من المستحيل إنتقال البشر من ديانة الجسد إلى ديانة الروح بدون اختبار يثبت فشل الديانة الأولى ويعلن إستحالة دوامها فيمهد بذلك الطريق إلى الديانة الثانية ويثبتها وهكذا « ينزع الله (العهد) الأول لكى يثبت الثانى » (عب ١٠ : ٩) فلم يعد هناك مكان لديانة الجسد بعد أن ظهرت ديانة الروح السامية العظيمة ! !

° ° °

كانت الديانة اليهودية إذن مبدأ دين الوحى السماوى اختص به الله شعب معين لا ليحرم الناس كافة من الهداية كما ارتأى بعضهم بل ليوقف سريان الوثنية وينشر نور معرفته تعالى فى أرجاء العالم فكانت تلك الديانة نوراً متألقاً قوياً يشهد بين سائر الشعوب بوحدانية الله ، وكان قصده تعالى هو تركيز هذا النور أولا فى هذه الديانة لتكون مركز إشعاع يتم بواسطته توزيع نور معرفته فى كل الأنحاء . . ولكن اليهود أصحاب تلك الديانة لم ينجحوا فى ذلك إلا على قدر ضئيل بل أنهم كثيراً ما انغمسوا فى عبادة آلهة الأمم الأخرى ولذلك كان لا بد

أن يقيم الله شهادة جديدة تقوم بنشر نور الحق الإلهى إلى أقاصى المعمور وتم ذلك بإظهار المسيحية :

كان لا بد إذن من ظهور « الديانة المسيحية » لكى تعلن محبة الله للبشر وترفعهم إلى المستوى الروحى العالى الذى تضمنته دعوة المسيح التى تعجب لها البشر وأقروا بأنه لا يوجد لها مثيل قط حتى استشعروا صعوبة ممارسة تعاليمها ومبادئها السامية ! ونظراً لذلك اعتبرها البعض عقيدة الأفراد الأفذاذ ولا غرابة فهى « دين الروح » والسواد الأعظم من البشر لم يستطع الارتفاع إلى ذروة روحانيتها التى ميزتها كخاتمة الدين الموحى به ! ومن ثم فالقول باحتياج البشر إلى دين آخر يراعى الفطرة السوية يعتبر رجوع إلى الوراء معناه نكسة أعادت النظام الجسدى الأول فى ذات شكله فعاد إلى الظهور فى الغسلات والفروض والصلوات المرتبة الآلية تحت اسم دين جديد يتعامل مع الإنسان فى دائرة وجوده الجسدى وهذا تراجع عن السمو الروحى الذى هو طابع الديانة المسيحية التى تتعامل مع الإنسان فى دائرة وجوده الروحى !

ومن ثم لا يعيب المسيحية قط بأنها « دين القلب » الخالص من كل علائق المادة وهـــذا لا يعنى أنها ليست دين العقل أيضاً حتى يحتاج الناس إلى دين غيرها يجمع العقل والقلب معاً فهى ليست دين السذج ولم تنشر قط بالإغراء ولا بالإكراه ! كما أنها لا تختص بفريق من البشر دون فريق فهى ليست لشعب خاص أو بلد خاص أو لغة خاصة حتى كان العالم بحاجة إلى غيرها ـ وهى بذلك « دين البشر » . فإنها ـ رغم مبادئها السامية التى تنفر منها الطبيعة البشرية التى لم تنضج ـ بلغت ما يقرب من نصف البشر وآخذة فى الإمتداد فى كل الأقطار بلغات البشر جميعاً ! !

الفصل الثانى

الوحدانية فى الأديان

(١)

اتفاق الاديان فى الوحدانية :

ليست عقيدة التوحيد بالشىء الجديد قط ولا كانت بأى حال من الأحوال وقفاً على ديانة بالذات دون غيرها من الديانات فقد أثبتتها عقائد الأديان القديمة - رغم وثنيتها - فالله عند قدماء البراهمة إله واحد متصرف لا شريك له ، وقد كتب دفندرانات طاغور كتاباً أوجز فيه أصول عقيدته فى ثلاثة بنود تدور كلها حول إله واحد لا ثانى له خالق للكون . كما أن العقيدة السرية التى كانت تلقن فى المعابد الفرعونية منذ أقدم العصور كانت تستند إلى التوحيد . وقد دلت صلوات أخناتون فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد على إيمانه بإله واحد هو روح رابض وراء الشمس دعى إلى عبادته وبشر الناس به فارتفعت من قلب ذلك الرائد القديم صيحة التوحيد فى أرض الفراعنة ، قال عنه فى نشيد له : « أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك . . . » كذلك أعلن سقراط أشهر فلاسفة اليونان فى زمانه بأنه قد تلقى وحياً أو رسالة من الله ومات شهيد هذا الإعلان ! ولكن خليفته أفلاطون آمن بعده بالإله الواحد !

وهكذا بلغت عقائد الديانات القديمة غاية حدها حين بحثت عن الإله الواحد والرب الأعلى الذى يعلو على سائر الآلهة والأرباب قدراً وقدرة وينفرد بالجلالة عليها ، ووصلت بذلك إلى حدود الإيمان بالوحدانية !!

* * *

ولقد ظهر « دين الوحى » بعدئذ فى صورة انقلاب عظيم فجائى : فقد قام ابراهيم بمفرده منادياً بهدم عقيدة الكلدانيين الوثنية أيام ملكهم الظالم نمرود ، فوضع دين توحيد بخلاف العقائد الموروثة فى زمانه ، وأصبح أول رائد فى العالم القديم الغارق فى الوثنية لعقيدة التوحيد. ومن المؤكد إذن أن عقيدة « الوحدانية » التى أصبحت أساساً لدين الوحى قد أذيعت عن طريق ابراهيم « أبو الأنبياء » . وقام موسى من بعده طاعناً على معتقدات الفراعنة وسلطانهم فأنقذ قومه منهم وأسس ديناً على عقيدة « وحدة الإله » ضد عبادة الأصنام الشائعة فى بيئته ، بيد أن

أن المسيح أيضاً قد أكد دين التوحيد فى زمان الرومان بآلهتهم العديدة . ولا غرابة إذاً أن جاء القرآن بعد كل ذلك يأمر بالتوحيد ويعترف بأن الأديان السماوية التى تقدمته كانت هى أيضاً تدعو إلى التوحيد فقد أقر فى مواضع كثيرة منه أن إله اليهود والنصارى هو واحد وهو نفسة الله الذى فى الاسلام كقوله : « آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد » (٢٠ : ٤٥) إذن فقد اتفقت الأديان فى الوحدانية وشهدت كتبها على توحيد الله باعتبار أن ذلك أهم أركان دين الله الحق المعلن فى الكتب المقدسة بلسان النبيين وأبرز نقطة فيه .

* * *

ومن ثم فقد أدركت « الديانة اليهودية » منذ البداية الانتصار التام للتوحيد فرفعت رايته ونادت به كعقيدتها الأولى وهى من الوجهة التاريخية أول الدين السماوى من ناحية الترتيب الزمنى . وقد أتاها موسى الكليم « بالوصايا العشر » وكان القصد الأساسى منها هو إعداد بيئة تبعد أمته عن أوثان الشعوب وتفصلها عنها بسياج متين ضماناً لسلامة دين الوحى فأعلنت الوصية الأولى منها « أسمى توحيد » ونصها : « أنا الرب إلهك . . . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى » (خروج ٢٠ : ٣) وبهذه الكلمات أسبغت الديانة اليهودية على « التوحيد » شكلا رسمياً فإن هذه الوصية تعلن الوحدانية وتنفى التعدد وتنهى عن صنع التماثيل المنحوتة وعبادتها . وهذا هو « التوحيد المثالى » الذى أعلن به الله وحدانيته تعالى ومحاربة الوثنية إذ لم يكن من علاج للبشر الغارقين فيها غير توجيه النظر إلى ذاته العلية .

وكان الله يكرر هذا الإعلان عن طريق موسى والأنبياء ليحفظ له مهابته وقدسيته ! فقد عاد موسى إلى تقرير هذه العقيدة وتعليمها لشعبه فيما عرف « بالاعتراف العظيم » الذى كان على ذلك الشعب ترديده من حين لآخر وجاء فيه : « أن الرب إلهنا رب واحد » (تثنية ٦ : ١٤) كما ذكر موسى لأمته أقوال كثيرة عن التوحيد منها : « فأعلم اليوم وردد فى قلبك أن الرب هو الإله فى السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل . ليس سواه » (تثنية ٤ : ٣٩) كما خاطبه داود النبى بالقول : « لأنك أنت الله وحدك » (مز ٦٨ : ١٠) وكذلك قوله تعالى بلسان أشعياء النبى : « أنا الرب وليس آخر . لا إله سواى » « أنا الرب ولا إله غيرى . . أنا الله وليس آخر » (٤٥ : ٥ و ٢١ وأيضاً ٤٦ : ٩)

ولقد تزايدت أقوال الأنبياء فى هذا الشأن لتحريم الوثنية وحفظ شعب الله منها إلى أن رسخت عقيدة توحيد الذات الإلهية وبقيت إلى ما بعد عصر موسى بل وأصبحت محور الارتكاز فى الاعتقاد بالله ! ولذلك قال الدكتور هربرت لوى أستاذ اللغة العبرية فى كلية اكستر بأكسفورد

بأنه : « يصح وصف الديانة اليهودية بأنها أشد الديانات استمساكا بفكرة التوحيد وهى أقدم الديانات السماوية فى الأرض بل أن هذه الأديان قد ولدت فى أحضانها وتصر الديانة اليهودية على عقيدة التوحيد الخالص إذ هى التى ابتدأت بالاعتراف به » .

* * *

قد بدأت « الديانة المسيحية » كفرقة يهودية أضطهد اليهود دعاتها لمخالفتهم فى الدعوة التى راموا نشرها ، رغم عدم خروج المسيحية عن التوحيد الذى هو القاعدة العامة المتبعة فى أصول دين الوحى : فقد دعم المفكرون المسيحيون منذ الأيام الأولى للمسيحية بأن أعظم ما تفوقت به المسيحية على الوثنية بآلهتها العديدة هو تصريحها الأكيد بوحدانية الله وما تقديمها السجود الإلهى ليسوع المسيح إلا بسبب إيمانها بأنه الله المتجسد وذلك لما حوت شخصيته من السمو الروحى والجاذبية الإلهية والنور الباهر الأخاذ ! !

ولقد جاءت أقوال الانجيل تشهد للوحدانية كأقوال التوراة على قدم المساواة ، فكانت تصريحات الكتاب المقدس بعهديه فى هذا الأمر واحدة ولذلك جاء فيه بلسان السيد المسيح : « أن الله واحد وليس آخر سواه » (مرقس ١٢ : ٣٢) كما سجل فاتحة الانجيل دفاعه المجيد عن التوحيد بقوله لإبليس : « إذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) وهذه تصريحات قاطعة فى شهادة المسيحية للوحدانية !! .

ولقد كانت المشكلة الرئيسية من بدء الحركة المسيحية هى التوفيق بين لاهوت المسيح والتوحيد وهل هناك إلهان بدلا من واحد ؟ أم هل المسيح إله أقل من الإله الواحد ؟ وكان جواب المسيحية الأكيد هو أن هناك إله واحد وما عبادة كلمته (أى المسيح) إلا عبادة تتجه بالطبع إليه ! ؟ وهذا ما أيدته نصوص العهد الجديد نفسه . فقد جاء ذكر « الإله الواحد » فى مواضع منها (يوحنا ٥ : ٤٤ وكورنثوس الأولى ٨ : ٤ و٦ وتيموثاوس الأولى ٢ : ٥) كما ورد أيضاً القول : « الله واحد » فى (رومية ٣ : ٣٠ وغلاطية ٣ : ٢٠ ويعقوب ٢ : ١٩) فهذه كلها شهادات ظاهرة تثبت موقف المسيحية من الوحدانية ، ودفاعها عن « عقيدة التوحيد » فى أنحاء شتى من الإنجيل .

وكل هذه الشواهد تدل دلالة قاطعة على أننا نحن المسيحيون نؤمن بالله ونتحدث عنه بنفس المعنى المفهوم لدى سائر الموحدين به ونحن فى ذلك معهم على حد سواء ! !

* * *

وليس بغريب إذن أن يؤيد القرآن هذا التوحيد البادى فى اليهودية والمسيحية بقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً »(٦٣:٣) ومن المحقق أن مبدأ التوحيد عند العرب لم تكن بدايته عند ظهور الاسلام إذ كان فى الجزيرة العربية توحيد من قبل لدى من كانوا يهوداً أو نصارى فإننا نقرأ عن قبائل يهودية عاشت فى بلاد العرب ، كما وعن أناس من العرب ضمن الذين كانوا حاضرين يوم الخمسين وحملوا رسالة المسيحية إلى بلادهم ، ولقد كان من بينهم أسقف نجران وقس بن ساعدة الأيادى . بل جاء فى حديث للبخارى عن ورقة بن نوفل القرشى أنه كان يكتب بالعربية ما تيسر من الانجيل إذ كانت أجزاء من الكتاب المقدس قد ترجمت إلى اللغة العربية ، ولكن رغم ذلك كان أكثرية العرب رغم معرفتهم الله الواحد قد اتخذوا الأصنام للتوسل بها إليه ، ولذلك شهد القرآن بالغيرة الشديدة على توحيد الله وبذل فى ذلك الاهتمام الأول وجعل من التوحيد كل شىء فى عقيدته لأجل رد عرب الجاهلية عن العبادات الوثنية المختلفة . .

فلا اختلاف إذن بين الأديان فى الوحدانية لأن الاعتقاد بها هو أساسها بصفة عامة . وقد أدرك كثير من الفلاسفة وعلماء الدين هذه الحقيقة فقال ربوبورت : « اليهودية والنصرانية والاسلام تدين بالتوحيد » وقال قتادة : « للتوراة شريعة وللانجيل شريعة وللقرآن شريعة ولكن الدين واحد الذى لا يقبل غيره وهو التوحيد والاخلاص لله » .

إذن فقد اتفقت الأديان فى التوحيد وليس من فارق بينها إلا سوء الفهم الناتج من عدم البحث ، وإذ قد انتهت الأديان الكتابية إلى وحدانية الله فإنها قد أتمت مهمتها العظمى وهى هداية الناس إليه تعالى إذ أنها قد وضعت لإرشاد بنى البشر إلى طريق الحق . وليس دين الحق عقلا وعلماً إلا ما قام على الوحدانية لأنه لا ينفى عن الله الوحدانية إلا من ينكر وجوده . ودين الوحى ـ بعد كل هذا ـ هو الذى بلغ بالتوحيد غاية مرتقاه وأتم فيه تعالى القول :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحـــد

(٢)

وجوه الوحدانية المتفق عليها :

الواحدانية اسم معنى من الواحد والألفاظ التى استخدمت فى وصفها مثل أحد وأوحد ومتوحد تعنى حسب رأى الشراح : « ذاك الذى هو واحد فى الجوهر بلا شبيه ولا ند » ، فهو

واحد أحد أى لا مثيل له ولا نظير ! ، والأحدية هى محض الذات الصرف أى الجوهر القديم القائم بذاته وهى واجبة للذات الإلهى ، فالأحـــد ، اسم شريف لا يوصف به إلا الله سبحانه وتعالى .

ولكن ما المقصود من أنه تعالى واحد وما وجوه وحدانيته التى يمكن الاتفاق فيها ؟ إن الوحدانيه عدة وجوه واجبة التسليم والقبول وهى : -

الأول : أنه تعالى واحد فى وجوب الوجود :

فهو الموجود الوحيد الذى له رتبة الوحدانية فهو لا غير واجب الوجود ، وأما كل ما سواه فهو ممكن الوجود فقط أى حادث .فهو واحد وجوده عين وحدته لأن له تعالى المرتبة الأولى من الوجود وهو متوحد بوجوده لا يشركه فى وجوده شىء قط . فواحدانيته فى المعنى الأول هى أنه تعالى واحد فى وجوب الوجود وسائر الكمالات اللائقة به واستحقاق العبادة . وهذا هو المعنى المقصود لقول القرآن : «وإلهكم إله واحد» وأيضاً قل هو الله أحد » (١ : ١٦٣ - ٣٠ : ١) فإن الألهية هنا قد ترتبت على الأحدية لأن معناها استغناؤه عن الكل واحتياج الكل إليه وهى من حيث ذلك تقتضى التفرد بالوحدانية . وهذه تستلزم أنه لم يكن مسبوقاً بعلة أو زمن وهذا هو معنى وجوب وجوده [1] !

وهذا المعنى قد أكده من قبل الكتاب المقدس حين أعلن تعالى اسمه لكليمه موسى قائلا له : « إن اسمى هو أهيه ، وتفسيرها « الموجود الذى هو الموجود » (خروج ٣ : ١٣ و ١٤) مما يفيد « الوجود الدائم غير المتغير » وكذلك وصفه تعالى « بالحى القيوم » (دانيال ٦ : ٢٦) فإن معناها أنه قائم بنفسه ! !

قال موسى بن ميمون من فلاسفة اليهود : « الله واجب الوجود بالبرهان وهو واحد » وقال القديس غريغوريوس : « الله ليس له ابتداء ولا انتهاء » وقال القديس أغسطينوس : « الله هو الموجود الحقيق وحده » ومن فلاسفة المسلمين قال الفارابى : «الله واحد وهو واجب الوجود » وقال بن مسكويه : « الصانع واحد وهو واجب الوجود » .

الثانى : أنه تعالى واحد فى النوع :

فهو موجود لا يوجد فيه غيره من حيث أن حقيقته ليست حاصلة لغيره فوحدانيته تعالى

---

(١) براهين الكتاب والسنة الناطقة ص ٤٧٧

تتركز فى تمييزه الكلى عن سائر الكائنات المخلوقة ، فمثل هذه الوحدانية تميز اللاهوت وتجعله فريداً فهو تعالى إله واحد لا ثانى له فى ألوهيته ولا شريك معه لكونه غير متناه ...

وليس معنى وحدانيته توحيداً مجرداً لله فى العدد بل تأكيد الفرق بينه تعالى وبين الآلهة المتعددة ونفى التعدد فى وحدانيته فهو غير قائم بآلهة مشابهة : لأن التوحيد الصحيح لا يقوم أساسه من ناحية العدد وليس هو مجرد إثبات أن الله واحد فى الكم بل أنه تعالى الموجود الأوحد فهو الله وليس مثله شيء وهو القائل « أنا الله وليس مثلى » (أشعيا ٤٦ : ٩) .

ولقد شهد لهذه الحقيقة ترتوليانوس فليسوف المسيحية بقوله : «إذا لم يكن الله واحداً لا يكون هو الله لأن الله لا يكون إلا فريداً فى العظمة . ولا يكون فريداً فى العظمة إلا من لا مساوى له . ومن لا مساوى له لا يكون إلا واحداً مفرداً » وهذا القول لا يبقى أى مجال لإله آخر معه ؟!

كما شهد لهذا المعنى من الوحدانية فيما بعد القديس يوحنا الدمشقى الذى اقتبس علماء الاسلام من أقواله عن التوحيد ـ قال[1] : « لو كان هناك آلهة كثيرون لحدث اختلاف بينهم وحينئذ ماذا يكون مصير كالهم .. ألا يحد الواحد منهم الآخر بالطبع .. وكيف يحكم العالم آلهة كثيرون وينجو من الخراب والدمار بسبب ما يقع بين حكامه . إذن ليس سوى إله واحد حائز على الكمال المطلق وهذا يوجب أن يكون واحداً مفرداً » .

لأنه إن كان هناك إلهين متساويين واتفقا على خلق العالم لما كان كل منهما مستقل فى عمله ، ولكان سلطة كل منهما محدودة وهذا يتعارض مع الألوهية . أما إذا كانا قد اختلفا فمن أين جاءت هذه الوحدة العامة بين الكائنات ؟ ولذلك ليس من المعقول أن يكون هناك إلا إله واحد ولولا ذلك لظهر فى الكون التناقض وعدم الاتفاق مما يؤدى إلى الاختلال والتصادم ! ومن ثم فإن سريان الوحدة فى الكون تؤكد أنه ليس هناك سوى إله واحد لا شريك له وإلا لما استطاع أن يفعل ما يريد ، وفضلا عن ذلك لو كان له تعالى شريك لحد الشريك من سلطته التى لا يثبت له الكمال إلا إذا كانت لا حد لها وهو القائل : « بمن تشبهونى وتسوونى وتمثلونى » (أشعيا ٤٦ : ٥) فهذه الوحدانية النوعية الفريدة هى الأساس الوحيد لوحدانيته تعالى وتميزها عن سواها والتسليم التام بها .

الثالث : إنه تعالى واحد فى الذات :

من المتفق عليه أن الله ذات واحدة فلا هو ذوات فى ذات ولا ذات فى ذوات وقد أعلن فى التوراة والانجيل عن ذاته الواحدة بالقول : « بذاتى أقسمت يقول الرب » .

---

(١) الإسلام واللاهوت المسيحى لوندرو سويتمان .

ومعنى وحدة الذات أنها غير قابلة للقسمة إذ أنها لا تجتمع من أجزاء فتتقوم بها، لا أجزاء كمية ولا أجزاء معنوية سواء كانت كالمادة والصورة أو كالجنس والنوع . وفى هـذا يقول ابن سيناء : « الواحد هو ما كان غير منقسم من الجهة التى قيل عنه فيها أنه واحد » .

فالتوحيد الصحيح هو الوحدة الداخلية للاهوت أى وحدة الذات وهى ليست كقولنا أن زيداً شخص واحد لا اثنان . فإن هـذه الوحدة يوصف بهـا كل ما هو موجود من الذوات والمعانى المتمايزة يعرفها كل أحد لكل أحد ولا ينازع فيها عاقل . والإيمان بها فى الخالق عزّ وجل لا ينجى من كفر ولا يخلص من شرك ـ وليس الشرك الذى أشار إليه القرآن بأن الله ثالث ثلاثة إلا بدعة تعدد الذوات !

قال فيلون من فلاسفة اليهود : « الله واحد وهو بسيط غير مركب لأنه لا يمكن أن يضاف إليه شيء لا أسمى منه ولا أقل ولا متساوى معه . وثابت أنه لا يوجد أسمى منه ولا مساوى له ، فإذا أضيف إليه من هو أقل فإن هذا ينفى كماله تعالى » .

وقال يوحنا الدمشقى من آباء المسيحية فى القرن الثامن : « الله واحد أزلى أبدى غير مخلوق وغير محدود وغير جسمى وغير مركب لأن التركيب يقبل التجزئة والانحلال وحاشا لله من ذلك » وقال القديس أوغسطينوس : « الله جوهر فرد لا تركيب فيه » لأن التركيب يستلزم علة تجمع أجزائه ويجعله محدوداً بكمية الأجزاء وقدرها » .

وقال الفارابى من فلاسفة المسلمين : « الله ليس مؤلفاً من أى نوع من أنواع التألف الحسى أو العقلى أو المنطقى فهو بسيط لا تركيب فيه بوجه » .

ومن ثم فقد أجمعت الأديان على أن الوحدانية هى الطبيعة الداخلية التى للجوهر الواحد فسبحانه من إله متفرد فى ألوهيته ومتوحد فى ذاته جل عن الشريك والنظير له وحده الربوبية . ووحدانيته إذاً فى أسمى معانيها هى « وحدة فى الجوهر والمقام وتفرد فى الذات واللاهوتية » فلا نظير ولا شبيه له فى ذلك على الإطلاق .

وهذا ما أكدته مديحة قبطية قديمة جاء فيها عنه تعالى القول الآتى :

جوهر واحـــد طبع واحد ذات واحـدة باللاهوت فريد

الفصل الثالث

الوحدانية المطلقة

(١)

معنى الوحدانية المطلقة واستحالة الاعتقاد بها

لقد اتفقت الأديان فى وحدانية الله ولكنها اختلفت فيما بينها من جهة نوع وحدانيته فمنها من قال بالوحدانية المطلقة بينما قالت المسيحية بالوحدانية الجامعة .

والوحدانية المطلقة هى عبارة عن وجود مطلق بسقوط جميع الاعتبارات والاضافات والوجوهات . وهذا الوجود المطلق لا ظهور فيه لاسم ولا نعت ولا نسبة ولا إضافة ولا غير ذلك . ولا يلزم من قولنا الوجود المطلق أن يكون تقييداً بالاطلاق لأن مفهوم المطلق هو ما لا تقييد فيه بوجه من الوجوه !

والقائلون بهذه الوحدانية يؤمنون أن الله موجود حقيقة ولكن فريق منهم يقول عن وحدانيته هذه بأنها لا تتصف بصفة وهذه هى « الوحدانية المجردة » لأنها تجرد الله تعالى من الصفات الايجابية وتصوره فى صفات سلبية وهذا يجعله إلهاً وهمياً لا وجود له ، وفريق آخر يسند إلى الله جميع صفات الكمال ولكن يتعذر عليه التوفيق بين إسناد هذه الصفات إلى الله أزلا واعتبار وحدانيته وحدانية مطلقة لأن التوفيق بين الأمرين محال !

ومع ذلك فقد ظن المعتقدين « بالوحدانية المطلقة » بأنها العقيدة الوحيدة التى تحفظ للوحدانية جوهرها وتنفى الغموض عنه تعالى وترد الناس إلى بساطة الاعتقاد فيه أى إلى التوحيد الخالص مطلق التوحيد : بزعم أنه بذلك تفهم وحدانية الله بلا عناء بعيداً عن الأسرار التى تفوق العقول التى تحتويها المسيحية فى وحدانية الأقانيم ! وخاصة أن معظم الناس لأنهم لم يألفوا التفكير العميق فى الأمور الإلهية يكتفون بالقول أن الله واحد بدون بحث أو تروى لحقيقة هذه الوحدانية ونوعها ...

ولو فطنوا لعرفوا أن « الوحدانية الجامعة » التى أعلنها الكتاب المقدس هى الوحدانية الحقيقية ولكن نظراً لسموها فوق الإدراك وكثرة الشكوك التى تساور بعض الناس من جهتها نرى من الواجب قبل التحدث عن كنهها أن نتأمل فى المشكلات التى يترتب على « الوحدانية

المطلقة ، حتى إذا تبين لنا تعقدها سهل علينا بعد ذلك أن نقتنع إقتناعاً تاماً بأن وحدانية الله هى « وحدانية مقنعة » ولا يمكن أن تكون خلاف ذلك ! ! وهذا بعد التحقق من إستحالة الإعتقاد بالوحدانية المطلقة .

(٢)

معضلات الوحدانية المطلقة وعدم وجود حل لها :

يظن من يعتقدون بالوحدانية المطلقة أنها تجعل العقيدة الإلهية سهلة المأخذ وواجبة القبول ولكن البحث العميق لها يؤدى كما سنرى إلى معضلات لا حل لها مضاف إليها ما هربوا منه فكانوا كمن يطوفون حول الأرض ، وفى النهاية بعد الجهد والتعب يرون أنفسهم فى النقطة التى هربوا منها ... وهذه المعضلات هى : —

أولا : أنها تؤدى إلى تعطيل صفات الله فى الأزل المطلق قبل خلق العالم :

فهى تستلزم أن لا يكون الله سميعاً ولا بصيراً ولا متكلما وإلا فلمن كان يسمع ؟ ولمن كان ينظر ؟ ومع من كان يتكلم قبل أن يخلق الملائكة والبشر؟ فالوحدانية المطلقة تصوره إلهاً عاجزاً عاطلا فى الأزل . ولقد ارتأى البعض أن يكملوا هذا النقص بإعلانهم أزلية العالم وفى ذلك قال ابن سينا[1] : « إن القول بقدم العالم يلتئم مع كون الله تام الفاعلية منذ الأزل وأما القول بالحدوث فإنه يستلزم التعطيل على البارى تعالى وأنه غير تام الفاعلية منذ الأزل حيث لم يفعل فى القدم ويؤدى إلى الاستكمال بالغير الأمر الذى يستلزم نقصاً على الله ـ وفضلا عن ذلك كله ـ فإن القول بالحدوث غير ممكن لما يستلزمه من التغير والتكثر فى ذات الواجب »

ومعنى ذلك هو أن صفات الله لا تكون عاملة أزلا ما لم يكن العالم أزلى مع الله وبذلك تنسب الوحدانية المطلقة لله العطل والعجز وتنفى عنه الكمال الذاتى إذ تجعله بحاجة إلى غيره من المخلوقات لتوقف ظهور صفاته عليها وأنه قابل لطروء الحوادث وتغيير الأحوال لأنه انتقل يوماً من حال عطل صفاته إلى حال العمل بها وهذا ظاهر البطلان : فإن القول بقدم العالم تنبذه الأديان السماوية إذ هو بدون برهان ولا شبه برهان بل هو يجعل الله غير خالق ولا مبدع للكون فمن البديهى أن واجب الوجود لم يكن معه فى الأزل موجود مما يرى ومما لا يرى ، لا يحيط به مكان ولا يعرفه زمان

---

(١) كتاب بين الفلسفة والدين ص ١٣٢

ومن ثم فإن القول : « أن مخارجه منذ القديم » (ميخا ٥ : ٢) يعنى دائرة وجوده الأصلية وهى دائرة غير مخلوقة موجودة منذ الأزل »[1] هو زعم باطل ، لأنه لو فطن قائله لعرف أن الدائرة محيط والله يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء ولذلك قال سليمان : « هو ذا سماء السموات لا تسعه » (ملوك أول ٨ : ٢٧) فأين الدائرة إذاً ؟ أما نسبة القـــدم إلى سماء السموات ووصفها « بسماء السموات القديمة » (مزمور ٦٨ : ٣٣) فهو قدم حادث بالنسبة لله قديم بالنسبة للسموات الأخرى ! ! ولذلك فهو تعالى يملأ السموات والأرض دون أن تسعاه أو تحصراه ويحل فى كل الأماكن فى وقت واحد حلولا غير مدرك ولا محدود ، وعلى ذلك فالقول بوجود دائرة غير مخلوقة يوجد فيها منذ الأزل ، قد جانبه الصواب ولا يتفق مع ما أعلنه الوحى عن عدم أزلية الكون ! !

وأما أصحاب الوحدانية المطلقة فلم يجدوا حلا لهذه المشكلة لأنهم فضلا عن اعترافهم بحدوث العالم فإنهم ينفون عن الله تعالى أنه مستكمل بالغير أو بفعل الخلق ... ففيم إذن كانت تمارس صفاته وهى التى أثبتتها تلك العقيدة فى سبع صفات جوهرية وهى : (١) الحياة (٢) العلم (٣) الإرادة (٤) القدرة (٥) السمع (٦) البصر (٧) الكلام - بخلاف التسعة والتسعون اسماً التى تدعى « أسماء الله الحسنى » وكلها صفات متفرعة من الصفات السبع الرئيسية مثل قوله : الملك - القدوس - المهيمن - العزيز - العليم - السميع - البصير - المجيب - الجبار - الغفار - الودود - الجامع - المحب - الصمد - القادر - الظاهر - الباطن . . الخ

فهذه الصفات الإلهية يجب أن تكون قديمة بقدمه تعالى لأنه لو كانت حادثة وتعلق الله بها لأصبح حادثاً ، والحادث ليس بأزلى وحاشا لله أن يكون كذلك . وإذ ذاك كيف أمكن ممارسة هذه الصفات فى الأزل قبل خلق الملائكة والناس . فلمن كان عزيزاً وهو العزيز ؟ ولمن كان يتودد وهو الودود ؟ ولمن كان مجيباً وهو المجيب ؟ ولمن كان جامعاً وهو الجامع ؟ ومن كان يحب وهو المحب ؟ فإذا ما قيل أن موضوع محبة الله كان ذاته قبل ظهور الخليقة قلنا وهل محبة الذات فضيلة حتى ننسبها إلى الجلال الإلهى ! ؟ ألا يوجب هذا وجود أقانيم فى اللاهوت تتبادل المحبة وغيرها من الصفات فى الأزل المطلق وإلا فهل كان تعالى يمارس صفاته مع إله آخر نظيره وهذا هو الشرك بعينه الذى تتهم الوحدانية المطلقة به غيرها ؟ أم يبقى الإله متوحداً فنشفق عليه إذ ليس هناك من يبادله المحبة ولا يكون هو قادراً على المحبة حينئذ ! ؟ تلك

---

(١) كتاب يهوه ص ١١٨

وحشة الوحدانية المطلقة التى تلازمها إذ لا أنس فيها ولا أنيس ويا لهولها وحشة ! ! لا غرابة إذاً فى محاولة التوحيد المطلق الخروج من هذا المأزق بتجريد الله من الصفات ، وفى ذلك الإقرار الواضح بتعذر إيجاد حل لديه لهذه المشكلة ! !

ثانياً : إنها تستلزم حدوث تغيير فى الله عند قيامه بخلق العالم :

فهى تحتم أن يكون الله موجوداً فى حالة السكون أزلا ثم انتقل إلى حالة العمل وهـــذا يتعارض مع ما يجب له من ثبات تام لأن الخلق نفسه بحسب منطق الوحدانية المطلقة صيرورة فى كيان الله أى صيرورته تعالى من غير خالق إلى خالق وبذلك انتقل الله « المنزه عما سواه » كما تقول تلك الوحدانية إلى حالة العلاقات مع سواه ، وهذا يقيده بدخوله إلى حيز الاتصال بزمان ومكان محدودين إذ اقتضى أن يخلق العالم فى ستة أيام كما ويخلق الانسان من صلصال وبذلك يكون الله قد وقف عند حد من الزمان والمكان لأنه أمسك طيناً من بقعة محدودة وفى زمان محدود وخلق منه آدم ثم حواء وكلمهما وأوصاهما . وبناء على هذه العلاقات التى تقرها سائر الأديان بعث الله الرسل والأنبياء كما يقدم البشر العبادة له تعالى : وكل ذلك يخالف الوحدانية المطلقة عملياً إذ يجعل الله فى حيز الاتصال بالخليقة والزمان والمكان وهذا يؤدى حتما إلى حدوث تغيير فى الله من حالة التنزيه إلى حيز القيام بعملية الخلق . وحاشا أن يقر الإيمان هذا إذ أن فيه مساس بكمالات الله القائل « أنا الرب لا أتغير » (ملاخى ٣ : ٦)

وفضلا عن ذلك فإن الوحدانية المطلقة لم تستطع أن تجيب عن سبب خلق العالم إلا بذلك الحديث المتواتر الذى تنسبه لله تعالى وهو : « كنت كنزاً مخفياً لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً وتعرفت إليهم فبي عرفونى » ! وهذا الحديث يجعل الخلق ضرورة لكى يظهر الله ذاته به ويصير معروفاً ! وهذه الأغراض إن صحت أدت (والعياذ بالله) إلى وجود نقص فيه وإلى رغبته فى استكمال هذا النقص بالغير (تماماً كما قال ابن سيناء الذى حاول الخروج من هذا المأزق بالقول بأزلية العالم) وهذا ما لا يتناسب مع كماله تعالى واستغنائه بذاته عن كل شيء سواها . فالوحدانية المطلقة تجعل عمل الخلق ضرورياً لإخراج قدرة الله إلى حيز الفعل كما أنها لا تجعل لصفاته تعالى مجال للظهور أو العمل إلا عند قيامه بالخلق مما يجعل الكائنات ضرورة لازمة بالنسبة لله وهذا يناقض كماله الذاتى الذى له بغض النظر عن وجود كائنات أو عدم وجودها . كما أن الخلق نفسه كما سبق القول هو بدء علاقة أو نسبة بين الخالق ومخلوقاته وهذه بمثابة حادث جديد على الله يتنافى مع التنزيه المطلق الذى تتصف به هذه الوحدانية .

ثالثاً : إنها تجعل إتصال الله بخلائقه بعد خلق العالم أمراً مستحيلا :

فهى تنفى عنه تعالى كل إتصال فعلى بينه وبين خلائقه فهو مرفوع فى علو شاهق لا يقتحم ومن ثم فهو لا يحب ولا يستمتع إلا بذاته بدون رفيق أو مشير ـ وهذا الإدراك عن الوحدانية المطلقة يعزل الله عن كل العلاقات مع الكائنات حتى قيل عنه تعالى أنه لا يعلم إلا ذاته ـ ولهذا قال الغزالى فى مناقشة ابن رشد : « إن تجريد الله من العلم بالجزئيات والتأثير فى الموجودات هو تنزيه يشبه العدم » كما يذكر العقاد فى كتاب « الله » .

فالوحدانية المطلقة إذاً تعزل الله فى عالم بعيد مبهم فلا علاقة له معنا ولا علم له بنا مما يجعله أمراً مستحيلا أن يهتم بأمرنا . ولذلك قالت بصريح العبارة : « إن تعلق الإرادة القديمة بالمحدث بعد إن لم تكن متعلقة به يؤدى إلى التغير فى ذات الله »[1]

كما أن تلك الوحدانية تدين « بأسماء الله الحسنى » ويسمونها « مجموع الصفات الحسنة » دون إثبات لوجودها الحقيقى والتوفيق لما بين تلك الصفات من تعارض وبذلك جعلت الله فرضاً وخيالا حتى اضطرت إلى القول : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا لأنه مهما خطر ببالكم عنه فهو بخلافه » . وهذا ما انتهت إليه الديانة الهندوكية من قبل فقد قالت « إن الإله لا يوصف فهو ليس هذا ولا ذاك وكل ما نقوله عنه يختلف عما هو عليه » .

إذن فالاعتقاد « بأسماء الله الحسنى » لا يستقيم له معنى مع الوحدانية المطلقة التى تجعل ممارسة الله لصفاته حتى بعد الخلق أمراً محالا ولا مهرب من هذا المأزق . ولذلك فإن الذين اعترضتهم مشكلات الوحدانية المطلقة قد اضطروا إلى القول : « بأن الخوض فى صفات البارى لا يجوز وبأنه ليس فى إمكاننا أن ندرك أحكام البساطة الإلهية التى تعجز العقول عن الإحاطة بها ـ ولا كيف يتفق تعدد الصفات مع وحدانية الله ؟ وهل فى تعددها تركيب يمتنع فى حق الله المنزه عن التركيب أم هو تعدد لا يستلزم التركيب ؟ » ومن ثم فقد حاولوا أن يجدوا مخرجاً من هذه الصعاب بالقول « أن صفات الله تدل على صفة واحدة هى الكمال وأن هذا الكمال مطلق تعجز عقول البشر عن إدراكه ! »

ويظهر من ذلك تعقد مشكلات الوحدانية المطلقة وتعذر إيجاد حل لها مما يثبت إستحالة الاعتقاد بها إذ هى تقف إزاء معضلاتها عند حد السؤال والحيرة والارتباك ولا جدوى فى التعليلات التى تحاول بها إزالة هذا التعقيد ! !

---

(١) كتاب ضحى الاسلام جزء ٣ ص ٣١

(٣)

اتجاه الوحدانية المطلقة نحو التنزيه البالغ :

التنزيه لفظة معناها « التباعد أو قطع الصلة » يوصف بها الله تعالى : وهو عبارة عن إنفراد القديم بصفاته وأسمائه وذاته كما يستحقه من نفسه لنفسه بطريق الإصالة والتعالى . ويسمى ذلك « بمذهب المخالفة » باعتبار أن الله تعالى لا يماثله أو يشابهه شيء إذ ليس له سبحانه وتعالى نسبة من جنسه ولا هو يقبل الضد ولا يعلم أحد كيف تنزيهه . فتنزيهه لنفسه لا يسوغ إلا له ولا يعرفه غيره فانفرد فى ذاته وصفاته وأسمائه بحكم قدمه عن كل ما ينسب إلى الحدوث ولا بوجه من الوجوه :

لم يدرك المخـــلوق إلا مثـــله والحق متنزه عن الأكوان

والتنزيه كالوحدانية اشتركت فى الاعتقاد به كل الأديان وأجمعت عليه ، غير أن الوحدانية المطلقة قد تطرفت فى تنزيه الله حتى وصفته « بالتنزيه البالغ » وذلك لأن الله فى نظرها واحد فى المجموع حاضر فى كل مكان بلا قاعدة أو قياس أوحد ما خلا مشيئته الخاصة المطلقة ، لا يشبهه شكل وكل الخلائق الآت فى يده ، وهو عقيم بالنسبة لذاته كما لخلائقه وهذا هو سبب حكمه الجامد الذى لا اعتبار فيه ! وهى بذلك قد أخرجت الله بعيداً وأبعدته عن الانسان برغبة شديدة فى حمايته من الارتباط بالأوثان ولمنع الناس من الحط به إلى مجرد وثن . ولكن التطرف فى هذا التنزيه يعطل الإلوهية من معناها »[1] وبذلك أصبح « التنزيه البالغ » مشكلة أساسية أوجدتها الوحدانية المطلقة !

ولا ينفع أن يقال هنا « بأن التنزيه البالغ لا يعزل الخالق عن المخلوقات لأن الكمال ليست له حدود فلا عازل بينه وبين موجود »[2] لأن التنزيه فى معناه الصحيح هو الانعزال التام وهو بذلك فى حالة الوحدانية المطلقة يحتم هذا الانعزال الكلى ! ولذلك يصور « التنزيه البالغ » الله سلطاناً عظيما لا يقرب منه يصدر الأوامر فى أنحاء ملكه . . ويستحيل الاقتراب منه تعالى والاتصال به الأمر الذى يتنافى مع طبيعة ومعنى كل دين ! !

---

(١) كتاب تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٥ ٥

(٢) كتاب الله للعقاد

(٤)

التنزيه البالغ فى الأديان ونتائجه :

اتفقت الأديان جميعاً على أن هناك إلهاً واحداً خالقاً للكون ولكن حدث فى كل منها مغالاة فى تنزيهه عما كان له نتائجه التى تجعل من المستحيل قبول الاعتقاد به وقد واجهت هذه المشكلة الأديان بصفة عامة ، والكتابية منها بصفة خاصة .

ولإثبات ذلك بالأدلة القاطعة نسرد فيما يلى إجماع الأديان فى التنزيه بحسب ترتيبها التاريخى وخطورة التطرف فى هذه العقيدة لدى كل منها : —

التنزيه فى الديانة الوثنية :

عندما تحول البشر عن التوجه بالإيمان إلى الخالق غير المنظور إلى الأشياء المنظورة ـ كالأجرام السماوية ـ مضافاً إليها ـ الأبطال ـ الذين ارتفعوا بواسطة الأساطير إلى مرتبة آلهة ، نشأت الوثنية التى هى دين المنظور وسرعان ما انحطت فأبدلت مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الانسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات . . . (رومية ١ : ٢٣) وبذلك أخضع البشر أنفسهم لآلهة وأرباب كثيرين بعد أن تأله كل شىء فى إتجاه ما . . ولكن لم يفعل البشر ذلك إلا لاستخدام هذه المعبودات كوسائل للتوسل بها والتقرب إلى الإله غير المنظور . . فقد امتلأت المعابد الفرعونية مثلا بشتى المعبودات التى كانوا يظنون أنها رموز لذلك الإله القادر . . وكان السبب الرئيسى فى عبادتها هو ذلك التنزية الذى أبعدت به الديانات القديمة « الإله » واضطرها إلى التفكير فى وسائل للتقرب إليه . . ولقد وجدت كتابة قديمة لشاعر مصرى قديم تكشف عن ذلك إذ جاء فيها : « أنت أيها الإله غير منظور ولا تسكن فى هياكل مصنوعة بالأيدى . بيتك كل الكون ومع ذلك ليس لك مسكن معروف لأنه لا يوجد مسكن يسعك ، اسمك أيضاً غير معروف على الحقيقة ، وشكل هيئتك لم يعلن لأن كل شبه لك باطل ومحال » . ولقد زعمت الديانة الهندوكية أيضاً بأنه ليس فى وسع أحد أن يورد شيئاً صحيحاً عن الإله ! وكذلك فعل الاغريق فقد قال أحد فلاسفتهم : « يجب فصل المبدأ الأول خارج كل شىء » (أى عزله عما سواه عزلا تاماً) كما قال البينوس فيلسوف آخر منهم : « الله لا يتصف بصفة وليس بدون صفات » (أى كائن مبهم)

أما العرب فى الجاهلية فقد عرفوا الله وأنه أكبر من آلهتهم الأخرى ولكنهم وقفوا عند حد معرفة الأربعة حروف التى يتكون منها اسم الله فقط ، بدليل التكبير عندهم ـ أى القول الله أكبر ـ لأن أكبر على وزن أفعل وأفعل التفضيل تكون للتفضيل بين من يشتركون فى صفة واحدة . فقد عرفوا الله دون أى مدلول على معناه .

فكل هـــذه الطوائف القديمة سعت إلى عبادة الله تعالى ولكنها فعلت ذلك فى شتى معبوداتها « كل حزب بما لديهم فرحون » وكان سبب ذلك التنزيه التام الذى جعل الإله غير معرف لديهم !!

* * *

التنزيه فى الديانة اليهودية :

كان من نتائج التنزيه البالغ فى الديانة الوثنية ظهور تعدد الآلهة . وأما الديانة اليهودية فقد فقد تأسست على الإيمان بالله والتعبد بتوحيده تعالى . غير أن التوراة أثبتت التشبيه فيما أعلنته عن خلق الإنسان على صورة الله كشبهه كما أنها قدمت مظاهراً تصور ظهور الله وأتيانه فى صورة بعض مخلوقاته الأمر الذى يتنافى تماماً مع التنزيه البالغ الذى وصفه سليمان بن جبيرول بالقول : « إن الله منزه عن الاتصال بالعالم تنزيهاً تاماً » .

ولقد حاول ميمون من فلاسفة اليهود أن يجادل الذين يصفون الله بالأوصاف المادية مجادلة عنيفة تحملهم على الاعتراف بالتنزيه فادعى أن وصف الله بالسوالب والتنزيهات هو الوصف الصحيح وأما وصفه بالإيجابيات فيحمل خطراً جسيما إذ يؤدى إلى التجسيم والشبه بينه تعالى وبين مخلوقاته والانفعالات وهذه مما ينبغى التصريح بنفيها عنه تعالى !

ولكن الديانة اليهودية التى نزهت الله هكذا كان عليها أن تجد حلا لطريقة اتصاله بالعالم فوجدته فى فكرة الوساطة التى شرحها الفيلسوف فيلون فقال : « الله بعيد عنا كل البعد ولذلك لا نستطيع أن نعلم عنه شيئاً أكثر من اسمه . إنه تعالى لا يتصل بالعالم ولا يعنى به مباشرة بل بواسطة وسطاء فالوسيط الأول هو اللوغس أو الكلمة أو العقل . وبهذا الوسيط خلق الله العالم ويعنى به وبواسطته أيضاً يمكننا الاتصال بالله ومعرفة أفكاره . والوسيط الثانى هو الحكمة التى تدير العالم وتقوده إلى اللوغس . أما الوسيط الأخير فهو (آدم) الذى ولد منه البشر جميعاً » .

على أن نفس فكرة الوسيط تبرهن على تنزيه الله لأنها ضرورة لتقريبه من الإنسان ، بل هى الحل الوحيد للتناقض بين وجود الله خارج العالم وفى نفس الوقت داخله !

ومن عجب أنه لما جاء الوسيط الذى أعلن عنه الانجيل ولم يعد الله معزولا عن العالم بعد أن ظهر فعلا فى عالم البشر وذلك باتحاد اللاهوت بالناسوت فى سر التجسد الإلهى ، وقف اليهود موقف التردد والحيرة ورفضوا قبول الإعلانات الإلهية الجديدة التى تكمل كتب التوراة التى أنزلها لهم الله من قبل بسبب توقفهم عند التنزيه البالغ الذى كان من نتائجه بالنسبة لهم إنكارهم لابن الله وحرمانهم أنفسهم من الخلاص الأبدى الذى جاء به إلى العالم !

* * *

التنزيه فى الديانة المسيحية :

ظهرت المسيحية لتأخذ مكانها الذى ينتظرها باعتبارها الدين الوحيد الذى كانت الضرورة تحتمه للتوفيق بين الحلولية التى تعلن وجود الله فى كل شىء والتنزيه الذى يقول بأن الله منزه أى منفصل عن كل شىء وليس لشىء ما علاقة أو صلة به مطلقاً .

ولقد اصطدمت المسيحية بعقيدة التنزيه هذه عند تأملها فى التنزيه على ضوء التجسد إذ يلزم هنا إيجاد ارتباط بين متناقضات غريبة ولم يصر الله بسبب التجسد أقل مما كان قبل التجسد ولا لهذا السبب أصبح ناقصاً فى شىء بل هو كما هو المنزه عن كل شىء ! فمع أن هذا التجسد استطاع أن يجعل اللاهوت غير المحسوس ولا المرئى محسوساً ومرئياً ولكنه فى الوقت نفسه بقى كما هو غير محسوس ولا مرئى ـ ولقد استخدم أوريجانوس فى وصف هذه الحالة طريقة التنزيه دون التعطيل ـ بحسب التعبير الإسلامى ! » .

أما عن التنزيه فقد جعله أفلوطين فى أوائل القرن الثالث الميلادى إحدى أسس فلسفته الدينية عن الله فوصفه هكذا [1]: « الله جوهر سابق لكل الأشياء ولا يعتمد على أى شىء .. لا توجد كلمات تستطيع أن تصفه لأن أى وصف له يحدده .. ولذلك يجب التحقق من تنزيهه التام .. وأى مقارنة عنه فيما يختص بالجمال والكمال والعقل والصلاح هى إدراكات بشرية ولكنها تنقص عن أن تصف تماماً جوهر الله . . » .

ولقد سبقه فيلون إلى القول : « أن الله بلا صفات ولا علاقات ولا يتأثر بمؤثرات خارجية وبلا رغبة وبلا احتياج وبلا اسم . وليس له نوع ولا كمية ـ فليس هو مبدأ عقلى ولا نفسى . ليس هو فى حركة ولا فى سكون . وليس هو فى مكان ولا فى زمان » .

وفى كلام ليوحنا الدمشقى يصف فيه الله بأنه فوق الوجود فيقول : « إن كانت معرفتنا تمتد إلى الأشياء الموجودة فقط فكيف نعرف ما يفوق هذا الوجود ؟ » .

ويقول القديس إغريغوريوس : « بأننا نعرف أن الله موجود ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا نجهل جوهره » ويقول إيرينوس : « إن الجوهر الإلهى لا يدرك ومعرفتنا بالله نسبية، ولغتنا عنه استعارية » ويقول كليمنضس الاسكندرى : « ليس لله شكل ولا احتياج وهو خارج الزمن والمسافة . هو وحده الذى له الوجود الحق . ومميزات هذا الوجود أسمى من الوجود المخلوق بل إننا لا نستطيع أن نمسك بالشبه بين الله والانسان » .

فهذه أقوال آباء المسيحية وهى قريبة من التعطيل نفسه الذى أوجده التنزيه فى الاسلام(١). فكان استبعاد التجسم بالتنزيه كالابتعاد عن التعدد بالوحدانية على حد سواء. وذلك فى صميم الديانة المسيحية نفسها التى جمعت بين التنزيه والتجسد معاً . فهى تنزه الله كل التنزيه وتعلن فى نفس الوقت عن طريق وساطة الكلمة بأنه تعالى آب يعتنى ، ويقول فيلو فى هذا الشأن : « مع أن الله بعيو إلا أنه قريب يلامسنا بقوته الخالقة والحاكمة ، رغم أن الأشياء المصنوعة غير متصلة قطعاً بطبيعته الجوهرية » .

ومع أن التنزيه البالغ له رد فعل لاشك فيه حتى أنه مما يدهش حقاً أن تبقى معه أى إمكانية لوجود عقيدة التجسد التى هى إحدى الدعائم الأساسية فى المسيحية : وذلك لما كان لنجاسات الوثنية من أثر جعل الأقدمون يمتلئون بالرهبة والكراهية لأى تنازل من جانب الله إلى مستوى البشرية التى هى نجسة بالخطيئة ...! ولذلك فقد واجه المسيحيون هزءاً شديداً من العقليين الذين اعترضوا على المسيحية فى أنها وهى تحارب الآلهة الوثنية هى نفسها استسلمت لاعتقاد ميلاد من تقول عنه بأنه إله متجسد ! ولكن رغم هذا الذى عانته المسيحية الأولى وخصوصاً علماء الاسكندرية فإنها أمسكت بكل قوة بعقيدة التجسد بجانب عقيدة التنزيه مما زاد معه التعجب كلما تأمل الناس فى جلال الكلمة الإلهى الذى صار جسداً . . . ! وهكذا انفردت العقيدة المسيحية بتوازن عجيب بين التنزيه والتجسد وكان الانحراف فيه هو سبب ظهور الفرق الضالة فى المسيحية كنتيجة لازمة .

فإن الذين رفضوا التوازن الذى أوجدته المسيحية بين التنزيه والتجسد وأصروا على التمسك بالتنزيه البحت قد جرهم ذلك إلى أرض الضلالات .. ولقد كانت أولى تلك الضلالات تلك التى أعلنتها الغنوسية وفى أعقابها السبلوسية ثم الآريوسية .

---

(١) كتاب الإسلام واللاهوت المسيحى .

ظهرت **الغنوسية** (ومعناها ادعاء المعرفة الخاصة) فى القرن الثانى للميلاد إلا أن آراءها بدأت فى النصف الأخير من القرن الأول وتتركز ضلالاتها فى : « أن الله أسمى من أن يتصل بالعالم ولذلك خلق وسطاء من الملائكة ليتصلوا به ويعنوا بأمره وأقرب هؤلاء الملائكة إلى الله هو اللوغس (الكلمة) ، وأن الخلاص يكتسب بمعرفة هؤلاء الوسطاء .

وقد حذر الرسول بولس المؤمنين من هذه الضلالة تحذيراً شديداً فقال لهم مرة : لا يخسركم أحد الجعالة راغباً فى التواضع وعبادة الملائكة » (كولوسى ٢ :١٧) وطبعاً التواضع المقصود هنا هو رفض حقيقة علاقة الله المباشرة بالعالم بدعوى أنها لا تليق بمجده تعالى . وهـــذا التواضع ولا شك هو تواضع خبيث لأنه عوضاً عن أن يقود الانسان إلى تعظيم الله لاتصاله بالعالم مباشرة يدفعه إلى الابتعاد عنه تعالى والالتجاء إلى الملائكة دونه . وقد تضمن رد بولس على هذه الضلالة بأن المسيح هو الوسيط الوحيد فى الخلق . وأن الغفران الذى يقدمه كاف للإيمان المسيحى بينما لا جدوى فى معرفة مزعومة أو نور خاص . . ولقد كانت الغنوسية هى التجربة الأولى التى أوجدها التنزيه البالغ وتوالت من بعدها البدع . .

فقد ظهرت **المانوية** (نسبة إلى مانى) التى اعتقدت بوجود إلهين أحدهما للخير والثانى للشر أى الروح والمادة . والأول منهما وهو الأب رب النور تجلى منه مظهران عاملان وهما الابن والروح القدس وكانوا يعتبرون التجسد أمراً خيالياً . وكانوا يتساءلون قائلين : ألا فليخبرنا النصارى ، الذين لا يسلمون ، إلا بإله واحد صالح ، من أين مصدر الشر ؟ وهل يمكن أن يكون الله محدوداً حتى يتجسد ؟ .

وظهرت **السابلوسية** (نسبة إلى سبليوس) فى أوائل القرن الثالث وهى التى تركز فيها التنزيه البالغ إذ اعتبرت الله أقنوم واحد منفرد وإنما له ثلاثة استعلانات مختلفة أى ألفاظ أب وابن وروح قدس ليس كأسماء أقانيم متميزة بل تسميات وأشكال لأقنوم واحد سمى الآب فى الدور الأول لأنه الخالق والابن عند التجسد لأنه الفادى والروح القدس فى الدور الأخير لأنه المعزى والمقدس وعليه فالثالوث بحسب هذا الرأى أمر وهمى وهو مجرد مظاهر لله الواحد ! وكثيراً ما كان يتساءل السبليوسى على سبيل مضايقة الأرثوذكسى هذا السؤال ـ الذى تكرر مراراً من الشيع التى تبعت إلى يومنا هذا ـ وهو « هل لنا إله واحد أو ثلاثة آلهة ؟ » .

وجاء سويدنبرج (١٦٨٨ - ١٧٧٢) فزعم أن فى المسيح يتجمع لاهوت الثالوث معدلا أو مستعلناً حتى يستحق العبادة وأما الروح القدس فهو مجرد تأثير يصل إلى الكنائس والأفراد من المسيح . وما دام السجود يقدم للمسيح فهو وحده إذاً « الإله الواحد » !

وهكذا أثمرت ضلالة سبليوس فأنتجت بدعة أشنع وهى « حصر الوحدانية فى الابن » باعتبار أن يسوع هو التجسد الكامل للاهوت ! وأتباع سويدنبرج عديدون منهم كنيسة أورشليم الجديدة وكنيسة العهد الجديد ومذهب الانجيل الخمسينى لكل العالم وأصحاب الحدث الجديد . . . الخ ـ وكل هؤلاء قد رفضوا المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس ـ ويمارسونها باسم يسوع المسيح فقط وذلك بعد أن اعتبروا الأقانيم ظهورات بل مجرد وظائف . وهذه البدعة قد ظهرت حديثاً بالصعيد الأقصى ولكنها فشلت فى أن تخفى أمرها وبعد أن خاب مسعى مستوردها فى أن يلبسها ثوب الحق ادّعى أنه لا يعلم بأى تعليم غريب عن الثالوث !

أما **الآريوسية** فقد ظهرت فى أوائل القرن الرابع وصاحبها ويدعى آريوس كان أسقف الأسكندرية . وهذه البدعة هى المسيحية متوثنة بعد أن انهزمت الوثنية أمام المسيحية التى انتصرت بدم شهدائها على الاضطهاد الوثنى . ولقد كانت الآريوسية أشر من ذلك الاضطهاد لأنها نادت بأن المسيح كائن مخلوق ويستحق مع ذلك العبادة ولو انتصر رأيها لأضاعت معالم المسيحية ووجودها نفسه ! ولقد وصل آريوس إلى بدعته هذه حين حاول أن يحل التناقض الظاهر بين التنزيه والتجسد . وقد كان أمر طبيعى فى عالم وثنى كان المسيحيون يؤكدون له بأن الله واحد وفى نفس الوقت يعلنون أن المسيح هو ابن الله أن تحدث حيرة فانبرى آريوس ليزيل هذا التعقيد بتصريحه أن الآب وحده هو الله وهو أقنوم واحد أزلى خلق فى البدء فى صورته وشبهه شخصاً يفوق الملائكة مقاماً ورتبة هو ابنه الوحيد الذى صنع العالمين ، وكان أول ما صنعه هذا الابن المصنوع مخلوقاً آخر فوق كل الخلائق أيضاً هو الروح القدس وهذان المخلوقان لهما المقام الأول بين الخلائق لأنهما وإن يكونا غير مشتركين فى الجوهر الإلهى إلا أن طبيعتهما تشبه طبيعة الله ـ ولقد تصدى لآريوس فى بدعته المهلكة أثناسيوس العظيم حامى الايمان القويم : وظل يناقش تلك البدعة فى بجمع نيقية حتى قضى عليها وهكذا دافع عن الايمان الذى تدين به المسيحية إلى اليوم والغد ـ ولقد كان تعليم آريوس مساومة مستحيلة إذ حاول أن يثبت التوحيد على حساب التثليث ومع ذلك فبتعليمه أن المسيح كان مخلوقاً يجب أن يعبد كان هو نفسه يناقض ذلك التوحيد الذى كان يدافع عنه الأمر الذى احتج عليه فيه أثناسيوس بالقول : « إذا كان الرب مجرد مخلوق والآريوسيون يعبدونه كمخلوق فكيف يكون بينهم وبين الوثنيين فرق » فان عبادة من هو نصف إله هى وثنية من نوع جديد ...!

ولقد اتخذت الآريوسية إسماً آخر فى العصور الوسطى تسترت وراءه وهو «مذهب الموحدين» الذى نادى به سوسينس فى بولونيا والتوحيد هنا اسم مستعار لها. كما عادت للظهور أخيراً تحت اسم «شهود يهوه» الذين اعتنقوا هذه الضلالة وجعلوها محوراً أساسياً فى إرتدادهم عن المسيحية وصاروا بذلك خلفاء آريوس الجاحد!

• • •

ولم تقف نتائج التنزيه البالغ عند حد ما ذكر - فى النواحى التعليمية - بل تعدته إلى وجوه عملية بالغة الخطورة فقد كان من ورائه أن صار المسيح نفسه فى العصور الوسطى بعيداً جداً وغامضاً للغاية حتى جهل الناس مركزه كالوسيط الوحيد والشفيع العام وقاموا يتحولون عنه إلى صوره وتماثيله ثم إلى القديسين والعذراء فى سبيل البحث عن العزاء!

ولذلك قاومت المسيحية التطرف فى التنزيه الذى كان سبباً فى ظهور كل تلك البدع التى شجبتها المسيحية فى مجامعها المسكونية وحركة الاصلاح الإنجيلى، كما أنها رفضت هذا التنزيه المطلق العازل الذى كان أساس فكرة إبعاد المسيح وإدخال العذراء والقديسين ليكونوا وسطاء وشفعاء بيننا وبين الله من جديد..!! وقد كان هذا الأمر بعينه سير فى ركاب لآريوسيين[1] الذين تمسكوا بالتنزيه المغالى لجعلوا من المستحيل الاقتراب من الله أو الاتصال به ومن ثم اخترعوا «المسيح الآريوسى»، وحاولوا أن يفرضوا وجوده ولكنه ظل اختراعاً لا أثر للحقيقة فيه رغم محاولة الآريوسية أن تجعل من هذا «المسيح المخترع» حلقة إتصال بين الله والانسان مع أنه فى نظرها ليس هو بإله ولا هو بإنسان!!

• • •

التنزيه بعد المسيحية :-

لقد جاء الاسلام فبالغ فى التنزيه إلى غير حد كتحقيق لصدق الوحدانية المطلقة، ولكن ظهر أن هناك ضرورات موجودة قد مزقت حجاب التنزيه البالغ وألزمت إيجاد علاقات بين الله والعالم حتى أن التوراة والانجيل قد أعلنا بأن الله البعيد عنا هو بنفسه القريب منا. ومن أسماء الله التى يعلنها القرآن اسم «القريب»، فالإله المنزه البعيد لم ير الاسلام غرابة فى قربه، مع أن هذا جمع بين أمرين متناقضين! ولكن التنزيه والقرب فى الحقيقة ليسا بمتعارضين بل هما يمثلان جانبين لا بد منهما عند الحديث عن الله!

---

(١) كتاب [illegible]

ولقد أدى التنزيه البالغ فى الديانة الاسلامية إلى نتائج نسردها فيما يلى :

أولا : نفى معانى الصفات عن الله : وذلك منعاً من وجود تركيب أو تعدد فى ذاته . وهذه هى « الوحدانية المجردة » التى جردت الله من الصفات الإيجابية وفى هذا يقول ابن العربى: « إن الله من حيث هو ذات بسيطة منزهة لا يمكن التعبير عن حقيقته وكل ما يمكن وصفه به هو سلوب محض كما أنه ليس من هذا الوجه إلهاً على الحقيقة » .

وقد تمسكت المعتزلة[1] بهذا الجانب من التنزيه مما أدى إلى إعتبار الصفات بمعانى توهموها فالقداسة لله عندهم أصبح معناها أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى وظائف الجسد الطبيعية ، والرؤية عندهم أنه يرى النملة السوداء على الجبل الأسود فى الليل الأسود والقدرة عندهم تعنى أنه قادر أن يبيد عالم كعالمنا ويخلق بدلا منه فى مكانه . هذه وأمثالها من السوالب لمعانى صفات الله قيلت فى طريق التنزيه ، ولكنها قصرت عن بلوغ غايتها لأن إلهٍ كهذا لا يكون له إرادة فى ظروفنا ولا تربطنا به رابطة لا بد أنه يختلف تماماً عن « الله » الذى نؤمن به ونحتاج إليه !

ثانياً : منع الاتصال بالله والوصول إليه : لأن التنزيه البالغ ينكر تصور الله على نمط ما يتصور الانسان للانسان وهذا هو « مذهب المخالفة » وهو ضد « التشبيه » الذى اعتقدت به الصوفية الاسلامية وهى فى الواقع لا تطابق القواعد الأصلية للإسلام بل وعلى الأرجح هى ثورة ضد التطرف فى التنزيه الإسلامى ! فقد اعتقدت بوجود شبه بين الله والانسان يعطى بحسب مبدأ التشبيه مماثلة فى ناحية ومفارقة فى ناحية أخرى بين المشبه والمشبه به ! والإسلام لا يمنع ذلك إذ يقول بصفة عامة أن الله كائن حى عليم قادر مريد وهلم جرا وكأنه بذلك يثبت له أوجه شبه لا أوجه مخالفة مجردة[2] . ولا فائدة من القول أن لا شبه بين علم الله وعلمنا لأن علمه تعالى يفوق كل علم سواه ولا يمكن أن يقاس - والحق أنه لو لم يكن هنالك شبه فلماذا يدعون العلمين باسم واحد ؟ فمع أن علمه تعالى يفوق علمنا وكذلك فى الصفات الأخرى إلا أن هنالك أوجه شبه لأنه « خلق الانسان على صورته » فيصح إطلاق اسم مشترك على بعض صفات الناس وصفاته تعالى . وهذا التشبيه يناقض التنزيه لكون الله قد خلقك على صورته وحلاك بأوصافه وسماك بأسمائه فهو الحى وأنت الحى وهو العليم وأنت

---

(١) الجانب الإلهى من التفكير الاسلامى جزء ٢ ص ٢ للدكتور محمد البهى

العليم وهو المريد وأنت المريد وهو القادر وأنت القادر وهو الموجود وأنت الموجود وهلم جرا وله القدم ولك القدم باعتبار أنك موجود فى علمه وعلمه ما فارقه مذ كان ...

وليس هناك أدنى غرابة فى اعتراف الصوفية بالروح الإلهية لأن الله روح بل روح أعظم غير محدود ومع ذلك إذا لم يكن هناك أدنى شبه بينه وبين الأرواح فلماذا سميت بأرواح كلية ؟ وهذا هو أساس مبدأ التشبيه ...

وإذن فالاعتراف بأن الله لا يقارن بما هو محدود صحيح وواجب ولكن ليس بحالة مطلقة : ولذلك أعلنت الصوفية مبدأ الشهود الروحانى الذى يناله المصطفين وذلك عند الوصول إلى الوحدة التامة بين الانسان وربه ـ وهذا المبدأ هو عبارة عن تجليات إلهية يرى فيها المتصوف فى غيبوبة أو يقظة مناظر روحية يكشف بها الأسرار ! !

وعليه فقد جمعت الألوهية ـ بحسب رأى التصوف الاسلامى ـ الضدين أى القديم والحديث والحق والخلق فيظهر فيها الحق بصورة الخلق مثل قوله « رأيت ربى فى صورة شاب أمرد » ويظهر الخلق بصورة الحق مثل قوله « خلق آدم على صورته » ومثل هذا التشبيه الجامع ينافى التنزيه المطلق ! !

ثالثاً : تعطيل سيادة الله : وهنا أدق مشكلات التنزيه البالغ وهى التى وقف المفكرون من أصحاب التوحيد المطلق حيارى إزاءها وهى : إذا كان تنزيه الله عن الحوادث بحيث لا يكون له تعالى صلة بها وعن الكائنات بحيث لا يكون بينه وبينها علاقات أمراً واجباً لئلا ينسب إلى الله التأثر والمفعولية ـ لأن كل علاقة بين كائنين يكون لها أثرها الفعال المتبادل بينهما بكيفية ما ، فالكلام بين اثنين يقتضى أن يسمع الواحد منهما صوت الآخر . والله السميع يسمع لمخلوقاته فيكون بهذا خرج من حيز الفعل ودخل فى حيز الانفعال وهذا يتنافى مع التنزيه المطلق وهو كفر ... فيكون معنى ذلك بالطبع أن يصبح الله بعيداً عن حيز الفكر لا تدخل له فى شئون العالم وهذا يجعل الله فرضاً وهمياً إذ هو بذلك قد أضحى منفصلا تماماً عن الناس لا يهمه أمرهم وهذا هو الالحاد بعينه . . !

وكيف يكون الله حينئذ الذى يخلق متعالياً فوق كل شىء منزهاً عن كل إحاطة ـ إلهاً مطلقاً وسيداً متسلطاً على كل شىء بعد أن جعل التنزيه الحوادث مستقلة عنه لئلا ينخفض شأنه تعالى باتصاله بها ! ؟

أما تنزيهه تعالى بدعوى أن الكائنات أقل منه مكانة فلا علاقة له معها فليس فى الواقع تنزيهاً لكماله بل هو تجريد له من الكمال : لأنه من دواعى الكمال أن يكون لله عز وجل علاقة مع خلائقه كبيرها وصغيرها وأن يعامل كل منها بالمعاملة التى يرى أنها تصلح لها. ولذلك قال القديس أغسطينوس : « لكل شيء حكمة وغرض وليس فى الوجود شيء يكون فى حساب الله تافهاً أو حقيراً »

° ° °

هـــذه هى عقيدة التنزيه البالغ - التى كانت السبب الرئيسى فى رفض « عقيدة التوحيد والتثليث » وغيرها من إعلانات الانجيل المبين - قد أوصلت إلى عكس ما قصدت إذ نفت عن الله كل تنزيه وأثبتت له الحاجة إلى الغير والصيرورة والتحول من حال إلى حال وعدم الثبات وطروء الحدوث عليه ، ونسبت له التقيد والتأثر والانفعال . وبالاختصار فإنها صفت حساب الإله فلم يبق فيه إلا اسمه ، فكأن التنزيه البالغ قد جعل الله بلا معنى حقيقى وهذه بلا شك هى نتائجه الحتمية ! !

الفصل الرابع

الوحدانية المقنعة

(١)

وضوح الوحدانية فى المسيحية :

لقد كانت المسيحية أوسع الدعوات الدينية انتشاراً بين الأمم حتى بلغ معتنقيها حوالى نصف سكان الكرة الأرضية وما ذلك إلا لأنها موحدة قبل غيرها تؤمن بالله الواحد وتقوم منذ ظهورها بنشر معرفته فى كل قارات الدنيا بين مختلف الأجناس البشرية بكل لغات البشر . وهى بذلك قد أعتقت البشر من الخرافات والوثنية وقدمت للعالم مبادىء القداسة والحرية ، وملأت أركان الأرض بالنور والعرفان ، بسبب إيمانها الصحيح بوحدانية الذات الالهية واعترافها بذلك فى كتابها الذى يؤمن المسيحيون أن كل حرف فيه هو تنزيل رب للعالمين ، وقد أعلن فيه تعالى فى مواضع كثيرة أن ذاته واحدة بقوله :

« بذاتى أقسمت يقول الرب » (تكوين ٢٢ ، أشعيا ٤٥ ، أرميا ٤٩ ، ، عبرانيين ٦)

وهكذا أعلن الكتاب المقدس ـ بتوراته وانجيله ـ وحدانيته تعالى قبل القرآن . . ولو سردنا كل الآيات الواردة فى هذا المقام لطال فيه الكلام . ولكن مقصودنا من الاستدلال بالشواهد المقدمة هو نفى الظن المتطرف بأن المسيحية ديانة شرك أو تعدد فى ذات الله لازالة التهم القائلة إن المسيحيين . . يقولون بتعدد الآلهة « والعياذ بالله » ويزعم القائلين بتلك التهم أن المسيحيين يعتقدون الشرك بالله مع أنهم مبرأون من هذه التهمة الذميمة وكتابهم ينطق بالحق بوحدانية الله ويشهد لهم بالصدق فى ذلك فلا محل إذن لاتهام المسيحية بالكفر وتحقيرها وتحقير متبعيها وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة ! فى الوقت الذى فيه نجدها ديانة التوحيد بأجلى ما فيه من معنى وأوضح ما به من تحديد لأنها لا تقول بالتعدد والتغير . . ولا بالتجزؤ والتقسيم فى ذات الله الأحدية !

فالمسيحيون أجمعون على اختلاف مذاهبهم فى مختلف العصور وسائر البقاع يعبدون الله الواحد السرمدى خالق الجميع وضابط الكل ويؤمنون بأنه تعالى واحد فى ذاته . واحد فى كالات صفاته . واحد فى قدرته وجميع أعماله . هو الله سبحانه المنفرد بالوحدانية والذات القدسية غير المدركة !!

فالمسيحية إذن لا تقول بتعدد الآلهة بل هى غاية مرتقى التوحيد : ولكن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى فى باقى الديانات لأنه فى الواقع لا يوجد شبيه للاعتقاد المسيحى فيها مما استشكل على بعضهم فزعموا أنها ديانة شرك بالله ، ومعاذ الله ، لأنه لو كان فى المسيحية آلهة غير الله لفسدت من زمن بعيد وتلاشت ! !

(٢)

نوع الوحدانية التى تدين بها المسيحية :

تدين المسيحية بالوحدانية من نوع فريد لا نظير له يطلق عليه اسم « الوحدانية المقنمة » وليست هذه الوحدانية بشىء جديد أبرزته المسيحية لأن التوراة قد شهدت لها قبل الانجيل كما سنبين عند البحث فى الأقانيم . . ولذلك رأى هذه الحقيقة العظمى كل من اكتحلت عيونهم بنور الوحى فرأوا أن هذا التوحيد فى الجوهر يجمع معه تثليث فى الأقانيم دون أن يشوب ذلك وحدانية الذات الإلهية فى شىء . فهو ـ تبارك إسمه ـ ذو جوهر واحد جل عن الوصف فليس كمثله فى وحدانيته المثلثة الأقانيم ـ فسبحانه فى وحدانيته هذه التى أعلنها فى كتابه العزيز وتمسكت بها المسيحية فى كل العصور !

وتسمو « وحدانية الله » فى المسيحية إلى أدق المعانى حين تتركز فى السر العظيم الذى تحتويه تلك الوحدانية ولا يحيط به إدراك الخلائق قاطبة إذ من المحتم وجود هذا السر فيها بل هو سر الأسرار الذى إنفردت به المسيحية وهو وحدانية الأقانيم فى الجوهر : مما يجعل وحدانيته تعالى هى « الوحدانية الجوهرية الداخلية » الأمر الذى لأجله يكون التمسك بالوحدانية فى سائر الأحوال واحد لا تعارض فيه ولا تناقض ! ! وبالطبع ليس بغريب أن تكون وحدانيته تعالى سر من الأسرار الفائقة ومعلوم أن الإلهيات كلها أسرار بل أن الأسرار التى حولنا لا حصر لها ! !

ويقرر هذه « الوحدانية المقنمة » الرسول يوحنا بالقول : « الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة : الآب والكلمة والروح القدس . وهؤلاء الثلاثة واحد » (١ يو ٥ : ٧) كما يقررها الرسول بطرس حين يعلن « أننا به (أى بالمسيح) نؤمن بالله » (١ بط ١ : ٢١) وهذه الوحدانية قد ظهرت بأجلى بيان فى قول السيد المسيح لتلاميذه : « إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩)

ولقد فهم هذه الوحدانية اليازجى فأنشد ضمن قصيدة له يقول :

للآب لاهوت ابنه وكذا ابنه وكذا هما والروح تحت تقنم

وأكدتها المديحة القبطية القديمة الموجهة للثالوث الأقدس إذ جاء فيها القول :

إله واحـــد فى ثلاثة أقانيم يعجـز عن وصفه كل فهيم

وأشار إليها الشيخ الجيلى وهو من أقطاب الصوفية بقوله :

الـكل فيها واحـــد متكثر فأعجب لـكثرة واحـــد بالذات

وقد قررها ابن العربى حين رأى أن الخلق يستلزم وجود الذات والارادة والـكلمة فقال :

تثليث محبوبى وقد كان واحـــداً كما صـــير الأقنام بالذات أقنما

(٣)

اثبات صحة الوحدانية المقنمة التى أعلنتها المسيحية :

يتوهم البعض بأن الوحدانية المقنمة تعنى الغموض والابهام مع أنها عكس الوحدانية المطلقة تجعله تعالى واضحاً متميزاً متضمن فى كيانه كل ما هو ضرورى لأجل كماله المطلق . فهى إذن الأساس الوحيد لـكمالات واجب الوجود والتوضيح الأكيد لها مما يرفع شأن اللاهوت . ولقد أدركت الفلسفة هذه الحقيقة فوصفت هذه الوحدانية « بالوحدانية الجامعة المانعة » أى الجامعة لـكل ما يجعل صفات الله عاملة أزلا والمانعة لوجود أى تركيب أو تعدد :

ولقد شهد لهذه الوحدانية سيمون بن يوشى اليهودى حين قال : « إن كلمة الوهيم تدل على أن الله تعالى جمع » كما شهد لها سانتلا المسيحى بقوله : « كيف يتصور صدور الـكثرة من الذات الأحدية البسيطة ما لم تـكن مكنونة فيها » ومن بين فلاسفة المسلمين قال ابن الفارض : « إن التجليات الإلهية تدل على جملة وحدانية يجمعها اسم « الجامع » وهو اسم الله سبحانه وتعالى » وهذا يدل على إنه كان جامعاً منذ القديم لا بعد الخلق لئلا تـكون هذه الصفة حادثة فيه ! وقال الشيخ محي الدين : « إن الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها متـكثرة بصفاتها وأسمائها » . كما قال مؤخراً الأستاذ سلامه الشافعى : « إن معنى الوحدانية فى الله هو أنه واحد فى وجوب الوجود وفى سائر الـكمالات اللائقة به » . ويقول صاحب المواقف : « لا يجوز إجتماع الوحدة مع الـكثرة فى شىء واحد من جهة واحدة » ومعنى ذلك يجوز إجتماعهما من

جهتين مختلفتين ـ لذلك فإننا نؤمن بأن وحدانية الله هى من ناحية غير الناحية التى نعتقد فيها إنه تعالى ثلاثة أقانيم ، ومن ثم فإن وحدانية الجوهر الإلهى لا تنفى وجود الثلاثة أقانيم فيه وكذلك وجود الأقانيم فى الجوهر الإلهى لا يتنافى مع وحدانيته ! !

فإن قال المعترض كيف يكون الله جمعاً وواحداً فى آن واحد قلنا بأن هذا أمر لا يفحص كشىء واقع تحت قياس الحس لأن الله روح والفحص لا يكون إلا على ما هو مادى ، وهو أيضاً غير محدود وغير مدرك فلا يمكن البحث فيه بالعقل المحدود . فهذا أمر يسمو عن العقول والتصورات ، ومن ثم وجب علينا أن نسلم ونؤمن به لأن الله أعلنه لنا فى وحيه الصادق : فهذه وحدانية فائقة بالطبع تسمو فوق الادراك فتتعالى عن العد وتسمو فوق حصر الحد إذ هى لا تخضع لقانون الكم والكيف كما يزعم شهود يهوه قائلين كيف يكون الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة متصورين بذلك وحدانية الله كشبه وحدة مادية مما لا يمكن القول عن الواحد فيها أنه ثلاثة ! ؟ فإذا قيل أن هذه الوحدانية المقنمة مستحيلة لعدم وجود ما يماثلها فإن هذا قول مردود لأن « الذات الإلهية مغايرة لسائر الذوات » كما أقر علماء الاسلام إذ « ليس كمثله شىء » ! ومعنى ذلك أن لا نظير لله تعالى بين الكائنات فلا ينتظر أن يوجد ما يشبهه فى هذه الوحدانية المقنمة ولا فى غيرها من وجوه الوحدانية التى سبق ذكر الاتفاق فيها .

وجدير بالذكر أن هذه الوحدانية المقنمة لا اشتقاق فيها ولا تركيب كما زعم بذلك كثيرون بدون تبصر من مختلف الطوائف المسيحية حتى ظنوا أنها تشبه « المجلس الشورى » فقال شارح مقدمة التكوين ص ٣١ : « إن الله أقام مجلس شورى لخلق الانسان » وشاركه هذا الرأى مؤلف كتاب يهوه ص ٤٠ فقال : « فكأن الله سبحانه وتعالى مجلس شورى إن جاز التعبير وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان الله أقانيم » وهذا تفسيرهم « لمجلس الله » وينسب أحدهم لطائفة معروفة أنها تقول بوجود ثلاثة آلهة يجلسون ويتشاورون فى إدارة الخليقة . . أما المشورة فأزلية ومعناها القصد المحتوم لا تبادل رأى وفكر لأن الله ليس كذلك إذ أن لأقانيمه تعالى فكراً واحداً ورأياً واحداً ثابتاً بسبب وحدانية الجوهر ! ولذلك ليس هناك موضع واحد ذكر فيه الكتاب المقدس « مجلس الله » دون أن يكون هناك خليقة ! ؟ هذا وقد نفى الوحى أن هناك مشورة سابقة أو لاحقة فى اللاهوت بالقول : « من صار له مشيراً أو من سبق فأعطاه فيكافأ » (رومية ١١ : ٣٥)

* * *

والتقنيم هنا يحل كل المشاكل التى أثارتها الوحدانية المطلقة فهو :

أولا : يرفع التعطيل إذ يجعل صفات الله كائنة وعاملة فى الأزل المطلق قبل خلق العالم :

فمثلا نسمع السيد المسيح يقول : « أنا أتكلم بما رأيت عند أبى » (يو ٨ : ٣٨) وقيل عنه . « إن ما رآه وما سمعه يشهد » (يو ٣ : ٣٢) كما خاطب الآب فى صلاته الشفاعية بالقول : « لأنك أحببتنى قبل إنشاء العالم » (يو ١٧ : ٢٤) فهذا الكلام يدل على ما سبق ليسوع أن رآه وسمعه مما يشهد به للبشر ، ونرى فيه تمييزاً أقنومياً فى الوحدانية يدل بوضوح على وجود وقيام علاقات أزلية فعلية بين أقانيم اللاهوت بسببها كانت صفات الله عاملة منذ الأزل قبل ظهور الكائنات . وهذا يجعل لصفات الله وجود حقيقى يمكن تصوره إذ أنها تجعل تلك الصفات متبادلة بين أقانيم الله أزلا ـ وبدون ذلك لا يستقيم لتلك الصفات معنى ولا يقوم لها فى العقل صورة لأنه بدون الأقانيم لا يتسنى ممارسة تلك الصفات قبل خلق الملائكة والبشر ، فهو مثلا كالودود لا بد أن يكون الوداد متبادلا بين أقانيمه فى الأزل ، وكذلك كالعادل فإن صفة العدل قديمة بقدمه عاملة فى ذاته بين أقانيمه إذ بها يحتفظ كل أقنوم بخاصيته التى يتميز بها عن الآخر دون تعد من أقنوم على الآخر . وكذلك صفة السلام وهى أحد أسمائه الحسنى لا ينطبق على واحد منفرد منعزل فإن السلام لا يقوم إلا بين جماعة ولذلك لا يفهم معناه إلا مع تعدد الأقانيم . فالسلام الإلهى بين الأقانيم هو الذى يجعل صفة السلام غير عاطلة أزلا وكذلك سائر صفاته الأخرى فإنها تستلزم وجود الأقانيم .

ثانياً . يجعل الله تعالى غير متغير عند قيامه بخلق العالم .

لأن إيمان الوحدانية المقنمة بوجود العلاقات فى جوهر اللاهوت أزلا بين الأقانيم فى الذات الواحدة . لا يجعل الله متغيراً عند إبداع خليقته إذ أن علاقاته الزمنية معها ليست حدثاً جديداً فى كيانه تعالى بل هى امتداد للعلاقات الأزلية وبذلك لا يكون الله تعالى قد انتقل من حالة السلب إلى الإيجاب أو من حالة السكون إلى العمل ولا حدث تغيير أو تطور فى ذاته تعالى عند قيامه بعملية الخلق بل بالعكس يكون الخلق مجرد مظهر من مظاهر عمل صفاته الأزلية . لأنه لما كانت المحبة عاملة بين أقانيم الله منذ الأزل كان الخلق نتيجة هذه المحبة التى كانت ترغب فى وجود خلائق ينعمون بسعادة الوجود على صورة وجود المحبة الالهية السعيدة . وعليه لا يكون خلق العالم سبباً فى إيجاد علاقات جديدة حادثة لأن هذا الخلق ليس سوى امتداد لحرارة الحب الالهى الكائن بين الأقانيم الالهية . فالشمس مثلا حينما تقع أشعتها على مولود جديد لا يقال أن

الشمس قد صارت لها علاقات جديدة بل أن مخلوقاً جديداً قد دخل فى دائرة علاقاتها ، هكذا خلق الكائنات لا ينشىء علاقات وتأثيرات جديدة بل هى العلاقات والنسب القديمة الكائنة بين الأقانيم امتدت حرارتها من المركز الأبدى .

وهذه الشمس نفسها وهى إحدى مخلوقات الله ومحدودة بالنسبة لعدم محدودية الله تعطينا مثلا عن امتداد عمل حرارتها الدائمة الاشتعال فى ذاتها فهى تمتد إلى الأرض لنفع الكائنات فهل إذا زاد نطاق هذا الانتفاع أو زرعت مساحات أكثر مما يزرع الآن على سطح الأرض ، فهل تشعر الشمس بأن علاقات جديدة حدثت لها أو أن هناك قيوداً جديدة وضعت عليها أو أن نقصاً ألمّ بها من جراء هذا الامتداد العظيم الذى صار لحرارتها ، لأن حرارتها فى جوهرها عاملة قديماً فكل مستحدث فى استخدام حرارتها لا يؤثر فيها بشىء ولا يقدر أحد أن يقول أن هذا الامتداد قد قيدها أو أعجزها أو أوقعها تحت التأثير ـ فكم بالحرى السرمدى الغير المحدود والقوة الغير المتناهية إذا امتد عمل محبته الكائن المركز فى ثالوث أقانيمه .

وهل الأوقيانوسات إذ امتدت مياهها إلى صحارى يراد غمرها بماء البحار يقال أن الأوقيانوسات قد تقيدت أو صارت لها علاقات جديدة تجعلها تشعر بالعجز أو النقص أم هو امتداد لعمل الأوقيانوسات دون أن تقع تحت تأثير علاقات جديدة .

فإذا كان المحدود بامتداد عمله لا يقع تحت القيد والعجز والنقص فكم بالحرى إله الأوقيانوسات وخالقها إذا ما امتد عمل محبته الدائم المركز فى أقانيمه إلى خليقة وخلائق فإنها لا تؤثر على حريته ونزاهته وقوته ولا يقال أنه غير منزه عن الحوادث [1] .

وهكذا يحل التقنيم مشكلة الخلق فيوفق بين التنزيه وعمل الله فى الخلق الذى يبدو مناقضاً له .

وفضلا عن ذلك فإن وجود الأقانيم يجعل لديه تعالى أزلا صورة كاملة لجميع الكائنات التى كان فى قصده أن يخلقها ، وتبعاً لذلك تكون له بها علاقة أزلا أيضاً وهذا ما بينه الكتاب المقدس فى مواضع كثيرة منه .

هذا ولم يفت بن سينا الفيلسوف الأشهر مسألة الإقرار بعلاقة الله الأزلية بالعالم فقال عنها : « لا بد إذن أن يحصل عند البارى جل شأنه صورة العالم منذ الأزل وتكون هذه

---

[1] كتاب حول التثليث والتوحيد ص ٤٠

الصورة حاضرة عنده لا تغيب عنه ، ولكن هذا لا يتم بغير الأقانيم ولذلك اضطر هـــذا الفيلسوف إلى القول بأزلية العالم الأمر الذى سبق تفنيده فى هذا الكتاب .

ثالثاً : يجعل اتصال الله بخلائقه أمراً ممكناً بعد خلق العالم :

والتقنيم يتجلى فى أسمى معانيه فى هذه النقطة بالذات لأنه يعلن لنا إلهاً يقترب منا ويتعامل معنا ويوافق احتياجنا كل التوافق : وذلك لأن إعلان الله فى الكون الطبيعى لم يكن كافياً كما أنه من المحال أن يعلن الله ذاته بغير ذاته ـ وهنا يتجلى وجه اقتضاء الثالوث فالابن يعرف الآب كمال المعرفة ولذلك يقدر أن يعلنه (متى ١١ : ٢٧) والروح القدس استطاع أيضاً أن يعلن اللاهوت لأنه يفحص كل شىء حتى أعماق الله (١ كو ٢ : ١٠) بناء على ذلك ـ أى بواسطة الأقانيم ـ يقترب اللاهوت تمام الاقتراب إلى المخلوقات المحدودة ولولا هـذا الاقتراب لظل الله بعيداً عنا محجوباً عن إدراكنا منفصلا عن اختبارنا ولم يكن للدين المسيحى ما يميزه عن غيره من الأديان : ومن ثم وجدنا أن الأقانيم هى الأساس المجيد للتجسد والفداء اللذين تعلنهما المسيحية كتاجها وموضوع فخرها الذى تعتز به . وهكذا قد تم فى التقنيم بوضوح التوافق بين صفات الله المتنوعة وممارستها بينه وبين خلائقه فى الزمن كامتداد لممارستها بين أقانيمه فى الأزل .

ومن ثم فقد ثبت أن الوحدانية المقنمة هى التى أعلنت لنا كمال الله المطلق من سائر الوجوه وهى لا تجعل الله كائناً مبهماً غامضاً كما تصوره البعض .

وعليه فلا صحة للقول بأن تصور الوحدانية المقنمة أمر فيه احتيال وحيرة لا داعى لهما يغنى عنهما التوحيد المطلق لأنه حسب زعم القائل يغلق الباب دون كل تساؤل إذ أن الوحدانية المقنمة التى يزعم عنها ذلك هى الأجدر بالاعتبار والقبول لأنها أقرب إلى الإيمان والعقل !!

الباب الثالث

سر الثالوث الأقدس

قدس

اقداس المسيحية

بقلم
القس صموئيل شرقي

مايو سنة ١٩٦٣

يطلب من المؤلف ٨ شارع احمد باشا كمال بجزيرة بدران بالقاهرة
ومن المكتبات المسيحية

ايماننا الاقدس

« نؤمن بالثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس ثلاثة اقانيم فى الجوهر الواحد بغير تجزئة ولا تركيب ، وانهم متساوون فى السرمد والقدرة والمجد لواحدية الجوهر ، ونعلن بأن هذا الحق هو قدس اقداس المسيحية »

تمهيد

هذا الكتاب الجديد الذى يبحث فى جوهر الإيمان المسيحى تحت عنوان « سر الثالوث الأقدس » هو خطوة تقدمية حتمية بعد الكتاب الذى أصدرته فى العام الماضى بعنوان « الذات الإلهى » — لإتمام التأمل فى الإلاهيات .

وهذا البحث العميق الذى سيتحقق قارئه أنه من أوفى البحوث الدينية هو الحلقة السابعة من سلسلة « أضواء من التكوين إلى الرؤيا » التى تتجه إلى الكشف عن كنوز المسيحية النادرة وتقديمها للقارىء النزيه الذى يشتاق لمعرفة حقائق دينه والوقوف على التعليم الصحيح بعيداً عن كل تعصب بالحجة والبرهان .

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولا شك أن الكنيسة المسيحية التى هى « عمود الحق وقاعدته » أى « موضع تثبيته ومكان إشهاره » ، قد أحسنت صنعاً بتمسكها فى كل العصور « بالحق الإلهى » وتأييدها له بالأدلة القاطعة التى قضت بها على البدع والهرطقات فحفظت لنا بذلك مهابة هذه « الأسرار القدسية » ، واعتبرت كل من ينكرها جاحداً للايمان الأقدس ومقطوعا من شركتها ، ومستحقا لعذاب الآخرة الأبدى .

وقد مكنت بذلك كل باحث مخلص من معرفة حقيقة ما أعلن عن ذات الله تعالى مؤكدة بأن قيام الحياة الروحية لن يكون بغير أساس من العقيدة الدينية إذ هى التى تعمق فينا روح الورع والخشوع وتنقذنا من الطيش والاستخفاف .

يضاف إلى ماتقدم مسئوليتنا عن مجاوبة كل من يسألنا عن أمور ديننا ويريد أن يمتحننا فيها مما يستلزم منا التعمق فى الدرس للوقوف على حقائق « إيماننا الأقدس » وفهمها حتى يتسنى لنا إجابة من يستخبرنا .

لهذا كله — ولما لهذا الحق من مكانة فريدة ازدادت خطورتها فى هذه الأيام الأخيرة بسبب انتشار البدع وازدياد الارتداد — قد صدعت للأمر الإلهى الذى كلفنى بهذه المهمة الشاقة التى تفوق طاقتى راجياً أن يفهم معانى هذا الشرح الخاص والعام ويحصل منه نفع لكل من يطالعه بامعان لا لمجرد القراءة فقط .

ولله كل مجد وإكرام وسجود مع ابنه الوحيد وروح قدسه الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين وأبد الآبدين آمين .

الفصل الأول

العقيدة الجوهرية العظمى

« تقصر مداركنا عن ادراك ماهية الله وكل
مانعرفه عنه تعالى إنما مصدره ماأعلنه لنا تعالى فى
كتابه مما يجب الإيمان به والتسليم »

تجمع عقيدتنا المسيحية بين التثليث والتوحيد ، ولذلك فاننا نؤمن بوحدانية ذات الله وأنه تعالى ثلاثة أقانيم ، ولسنا بذلك نقول بتعدد الذوات أو انقسام الذات، فالذات واحدة لا ثلاث ذوات ولا ثلاث تركيبات فى الذات وذلك لأن الذات الإلهية لا تعدد فيها ولا تركيب ولا انقسام !

هذه العقيدة هى قدس أقداس المسيحية لأنها العقيدة الأساسية المركزية التى تبدأ بها وهى لذلك تحتل المكانة الأولى فيها، ومن ثم فهى مركز جميع عقائدها الأخرى ولاغرابة فى ذلك لأنها اعتقاد بالله على نحو ما أعلنه سبحانه فى كتابه المقدس عن ذاته الواحدة المثلثة الأقانيم ، بما ينتفى معه الشرك وتعدد الآلهة وتحديد واجب الوجود! ولذلك فاننا نؤمن أيضاً بوحدة الصفات ومعناها عدم تعدد كل صفة من صفات الله بتعدد الأقانيم فكل صفة منها هى بعينها للآب كما للابن والروح القدس .

إذاً فالأقانيم الثلاثة واحد فى كل الصفات كما فى الذات - ونؤمن أن كل أقنوم منهم يتميز عن الآخر فى الجوهر الواحد ولكنهم ليسوا ثلاثة آلهة لأن الجوهر واحد ولا هم ثلاث تجليات لجوهر واحد لأنه حاشا لله من أن تكون أقانيمه مجرد أشكال أو مظاهر لأقنوم واحد ، وكذلك حاشا لنا من الإيمان بثلاثة آلهة !

والإيمان المسيحى إذاً لا يفصل الجوهر الواحد كما أنه لا يمزج الأقانيم المتميزة ومع أنه يكلفنا أن نعترف بأن كلا من هذه الأقانيم بذاته إله لكنه ينهانا عن أن نقول بوجود ثلاثة آلهة .

فالثلاثة أقانيم سرمديون معاً ومتساوون معا فى لاهوت واحد وفى جلال دائم فليس فى اللاهوت من هو قبل غيره أو بعده ولا من هو أكبر أو أصغر .

• • •

وقد تنازل سبحانه فأرسل الاعلانات الإلهية منذ فجر التاريخ ، وهذه بالطبع هى النبع الأول للأديان ! وقد توج تلك الاعلانات باسم خاص به تعالى هو «الله» وهو مما لا يجوز ولا ينبغى لغيره أن يتسمى به — فهو الله قبل الخليقة لذلك خاطبه موسى النبي بالقول « منذ الأزل إلى الأبد أنت الله » كما يقرر الرسول بولس أنه الله بالطبيعة وليس كالآلهة الذين ليسوا كذلك » (غلاطية ٤ : ٨) — وهذا الاسم « الله » هو ترجمة لفظة « الوهيم » العبرية وهى بصيغة الجمع ومفردها « الوه» وقد وردت هذه اللفظة حوالى ٣٠٠٠ مرة بل لقد وردت الأفعال أحياناً بصيغة الجمع بل وأحياناً أخرى الصفات بصيغة الجمع فما سر ذلك إذا لم يكن الله جمعاً فى وحدة !

واسم الجلالة هذا « الوهيم » هو أول اسم أعلن عنه تعالى فى التوراة وترجمته الحرفية « الآلهة » وفى ذلك إشارة واضحة إلى التثليث — وخاصة وأن التعظيم بالجمع لم يرد فى اللغة العبرية — بينما ورد الفعل «خلق» بصيغة المفرد دليل الوحدانية وذلك فى (تك ١:١)

وبفهم معنى « الوهيم » هذا لا يكون هناك أدنى اعتراض فى قبول الثالوث لأنه يعلن لنا بأن فى الله الوحدة والكثرة تتطلبان أحداهما الاخرى وهما فيه تعالى تتقابلان فى حالة فريدة فائقة .

ويرى بعضهم أن لفظة «اللهم» العربية هى بعينها « الوهيم » العبرية لان حرف الميم يعتبره فريق من العلماء دالا لا على مجرد النداء بل على الجمع كالعبرية تماما وهذا هو الارجح

وبدأت تلك الاعلانات الاولى تنتقل بالوراثة عن طريق التقليد أى التعليم الشفاهى قبل ظهور الوحى المكتوب ولكنها سرعان ما اختلطت بالخرافات والاساطير التى كانت المهد الذى ولدت فيه الوثنية عند برج بابل .

فاختار الله « ابراهيم » ليجدد به « رسالة الوحى — منار البشرية — فأرجع الإيمان الدينى عن تعدد الآلهة إلى الايمان بالاله الواحد ، ومن المؤكد أن الوحدانية قد أذيعت عن طريق خليل الله هذا ومن يومه إلى الآن أصبحت هذه العقيدة أساسا للأديان ولم يجرد العالم لحظة واحدة من المدافعين عنها. وهكذا تجدد التمسك بالوحدانية بواسطة الانقلاب العظيم الذى قام به ابراهيم فكان بذلك أول رائد فى التاريخ لعقيدة التوحيد واعتبر بحق « أبو الانبياء » .

وقام من بعده موسى الكليم فأرسى قواعد التوحيد المثالى الذى أعلنه مرارا لشعبه حتى رسخت فيهم عقيدة توحيد الذات الإلهية وحفظتهم من الوثنية . وترينا الوصية الأولى من الوصايا العشر التى استلمها موسى من الله وقدمها لشعبه الله الاله الواحد الذى لا شريك له والذى ينهى عن وجود آلهة أخرى سواه وهذا ماكرر النداء به الأنبياء على ممر عصورهم .

ثم جاء المسيح الفادى الكريم فأكد ، وحدة الله ، وأسس ديانته على التوحيد ولذلك دعم المفكرون المسيحيون منذ الأيام الأولى للمسيحية بأن أعظم ماتفوقت به ديانتهم على الوثنية تصريحها الأكيد ، بوحدانية الله ، وما تقديمها السجود الالهى ليسوع المسيح إلا لسبب إيمانها بأنه هو الله المتجسد !! فالمسيحية إذاً لا تقول بتعدد الآلهة والزعم بأنها ديانة شرك بالله باطل وفى غير محله ، بل هى موحدة قبل سواها تؤمن باله متفرد فى الوهيته ومتوحد فى ربوبيته جل عن الشريك والنظير !!

وكل ما هنالك أن الله جعل الديانة اليهودية مقدمة للديانة المسيحية وذلك نظراً لسمو هذه الديانة الأخيرة وصعوبة مرتقاها الروحى ولذلك لم يشأ الله أن يعلنها من مبدأ الطريق بل رتب أن تسبقها اليهودية لكى تمهد لها حتى لا يفاجأ البشر بها فى وقت مبكر لا يقدرون فيه على هضمها وخصوصا ونحن نجد فيها بجانب التوحيد إعلان التثليث !!

فكان ذلك أمراً طبيعياً حتم أن يجىء الوحى المكتوب متدرجاً أى على مراحل يكمل بعضها بعضا إلى أن تم ذلك الاعلان وأصبح كاملا فصار لزاماً على البشر قبول الاهتداء به !! ومن ثم لم يكن بد من ذلك التدرج لأن البشرية لم تنضج نضوجا تاما دفعة واحدة ، وكان من المنتظر مرور وقت كاف حتى يتفهم عقل البشر نور الوحى بعد أن بلغ تمامه فى المسيحية التى أخذت العهدين معا ، فكان العهد القديم نصف كتابها المقدس والنصف الآخر هو العهد الجديد .

ويلزمنا هنا أن نوضح معنى الوحدانية المنفرد بها الله سبحانه باعتبارها أهم أركان الدين الحق المعلن فى التوارة والانجيل فما معناها وما وجوهها المتفق عليها

والواجبة القبول والتسليم ! ؟ إنها تفرد فى الذات واللاهوتية ووحدة فى الجوهر والمقام نبينهما فيما يلى : —

أولا : إنه تعالى واحد فى القيام بالذات أى وجوب الوجود :

لا شك أن أهم معانى التوحيد هو الاعتراف لله وحده بالالوهية وكل ما يجب للاله من كمال فى الصفات وتنزه فى الذات فهو الموجود الذى ليست حقيقته حاصلة لغيره فوحدانيته تعالى تتركز فى تمييزه الكلى عن سائر الكائنات المخلوقة ، ومثل هذه الوحدانية تميز اللاهوت وتجعله فريداً .

وذلك يحتم بالضرورة الاعتقاد بأن الله هو الموجود الوحيد الواجب الوجود، وأما كل ما سواه فهو ممكن الوجود فقط . وهذه هى المرتبة الأولى من الوجود وقد وصفها الله تعالى حين أعلن لكليمه موسى أن اسمه هو « أهيه » وتفسيره « الكائن أو الموجود » كذلك عرفه دانيال حين وصفه « بالقيوم » أى « القائم بالذات » وهو يدل على صفات مسماه تعالى السرمدية الاستمرارية !!

وهذا يحتم وحدانية ذاته القدسية غير المدركة ، فهو ذات واحدة فلا هو ذوات فى ذات ولا ذات فى ذوات ولقد حقق لنا ذلك بقوله فى مواضع كثيرة من الكتاب المقدس : « بذاتى أقسمت يقول الرب » !! ومعنى وحدة الذات أنها غير قابلة للقسمة أو التأليف إذ أنها لا تجتمع من أجزاء فتتقوم بها لا أجزاء كمية ولا أجزاء معنوية وكذلك لا تتألف من أى نوع من أنواع التألف الحسى أو العقلى أو المنطقى !!

وقد أجمع الاتفاق على أن وحدانيته تعالى هى الوحدة الداخلية التى للجوهر الالهى أى وحدة الذات واللاهوت : فهو واحد وجوده عين وحدته والوجود والوحدة فيه عين ذاته وهذا ما أكدته مديحة قبطية قديمة جاء فيها عنه تعالى الوصف الآتى :

جوهر واحد طبع واحد ذات واحد باللاهوت فريد

ثانياً : أنه تعالى واحد فى الجوهر والمقام أى التفرد بالنوع :

فهو متوحد بوجوده لا يشركه فى وجوده شيء قط أى انه سبحانه إله واحد لا ثانى له فى الوهيته ولا شريك معه لكونه غير متناه وهذا هو معنى تفرده بالنوع أى أنه تعالى متميز بهذه الوحدانية النوعية الفريدة التى تميز وحدانيته عن سواها وتوجب التسليم التام بها .

ولذلك قال جريجورى : « هناك اله واحد لأنه لا يمكن أن يوجد إلا شيء واحد يسمى اللاهوت » وهذا القول لا يبقى مجالا لاله آخر مع الله .

ولقد شهد لهذه الحقيقة ترترليانوس فيلسوف المسيحية بقوله : «إذا لم يكن الله واحداً لايكون هو الله لأن الله لا يكون إلا فريداً فى العظمة، ولا يكون فريداً فى العظمة إلا من لا مساو له . ومن لامساو له لا يكون إلا واحداً مفرداً »

كما قررها القديس يوحنا الدمشقى فقال : « لو كان هناك آلهة كثيرون لحدث اختلاف بينهم وحينئذ ماذا يكون مصير كالهم .. آلا يحد الواحد منهم عمل الآخر بالطبع .. وكيف يحكم العالم آلهة كثيرون وينجو من الخراب والدمار بسبب ما يقع بين حكامه .. إذن ليس سوى اله واحد حائز على الكمال المطلق .. وهذا يوجب أن يكون واحداً مفرداً .. لأنه إن كان هناك الهين متساويين واتفقا على خلق العالم لما كان كل منهما مستقل فى عمله ، ولكانت سلطة كل منهما محـــدودة وهذا يتعارض مع الالوهية أما إذا كانا قد اختلفا فمن أين جاءت هذه الوحده العامة بين الكائنات ؟ ولذلك لا يعقل أن يكون هناك غير اله واحد ولولا ذلك لظهر فى الكون التناقض وعدم الاتفاق مما يؤدى إلى الاختلال والتصادم ! ومن ثم فان سريان الوحدة فى الكون يؤكد أنه ليس هناك سوى اله واحد وإلا لما استطاع أن يفعل ما يريد ، وفضلا عن ذلك لوكان معه تعالى شريك لحد الشريك من سلطته التى لا يثبت لها الكمال إلا إذا كانت لا حد لها . »

ومن ثم فقد أعلن أنثيموس برهمة الله بطريرك أورشليم[1] بأننا بالضرورة نؤمن أن الله واحد وليس كثيرين لأنه تام وبرىء من النقصان ، فان كان تامون كثيرون

(١) كتابه « الهداية » الجزء الأول الرأس السادس — مطبوع سنة ١٧٩٢ بالمانيا

موصوفين بأوصاف هى بذاتها فماذا يكون بينهم الفرق الصانع الكثرة ! ؟ وإن كان فيهم أكثر تماما فيكون فيهم أيضا أكثر نقصا لأن الأتم والأنقص بينهما تعلق ومناسبة ، لأنه لا يقال الشيء اتم إلا بالنسبة إلى ما هو أنقص فكيف تكون آلهة الموصوفة بالنقص أو القلة أو الخسة . والنقص قد انتفى من الجوهر الإلهى كلياً ... وأيضاً أن قلنا آلهة كثيرين فيلزم الاضطرار أن يرى فيهم اختلافا فى قوتهم وفعلهم وما يكونون قادرين على احتواء العالم . . وأيضا ما يكون فيهم تمام لأنه من اللازم أن يخس الواحد عن الآخر فلم يكن كل منهم إلهاً لأن الله ينبغى أن يكون تاما على الجميع وغير ناقص . . .

وأيضا إن كانوا كثيرين فيكونوا مختلفين ومحصورين ويعزل الواحد عن الآخر مكاناً حتى يكونوا كثيرين وأينما كان الواحد لا يكون الآخر : وإن كانوا محصورين فيكونوا ضعفاء وليس كليين القدرة لأن القدرة كلها أن احتواها واحد حتى يكون كلى القدرة فيكون وحده بمفرده إلهاً وامتلاكهم قوات مختلفة لا يبينهم كليين القدرة بل من هذا يظهر أنهم أيضا مضادون لبعضهم بعض ومتخاصمون ، وإن قلتم أنه ليس فيهم اختلاف فذلك يثبت بالحرى أنه واحد ليس كثيرين لأن الوحادة فى كل شيء وعدم اختلافه يبين أنه واحد وليس كثيرين . . .

وأيضا إذا كان مدبروا العالم كثيرين كيف يقوم وما ينحل ، وإن كان الاختلاف يجلب خصاما فكيف لا يضمحل العالم والخصام بين مدبريه؟ ولذلك فإن الفلاسفة أعلنوا بإيقان هم أيضا إلها واحدا فريدا وليس كثيرين ، فقال فيثاغورس : « إله الكون إلها فريدا لا ابتداء له » وقال سقراط « إن الله هو الواحد الفريد ، الفرد المفرد » !!

فالله إذاً هو واحد تام كلى القدرة برىء من الانحصار ومنزه عن الألم وعن الابتداء والادراك، صانع الكافة ومحتويها ومدبرها تام وفايق كل تمام وأقدم من كل تمام.

وبذلك ثبت أن الله واحد لا كثيرون لأنه وهو الخالق مطلق التصرف فى الكائنات مع كثرة أنواعها وهذا هو سر وحدة نظامها وغايتها !!

* * *

ولكن ليس معنى ذلك مجرد توحيد الله فى العدد بل تأكيد الفرق بينه تعالى وبين الآلهة المتعددة ونفى التعدد فى واحدانيته ، دون أن يمس ذلك تلك الوحدانية الفائقة الطبيعة التى لا تعارض فيها لأنها تتعامل مع الطبيعة الداخلية التى للجوهر الإلهى ،ومن ثم فإن قولنا أن الله واحد بهذا المعنى لا ينفى القول بوجود الثلاثة أقانيم فيه!!

وهذا قد جعل فكرة الله فى المسيحية فريدة لا تشبهها فكرة أخرى فى باقى الديانات لأنه فى الواقع لا يوجد شبيه للاعتقاد المسيحى فيها مما استشكل على بعضهم فزعموا أن المسيحية ديانة شرك بالله ولكن معاذ الله لأنه لو كان فيها آلهة غير الله لفسدت من زمن بعيد وتلاشت بل أن روح المسيحية فى إدراك فكرة الله هى فى الحقيقة روح متناسقة تشف عن جوهر واحد ! ! فلم تقل المسيحية بالتعدد فى ذات الله ولا هى تعتقد الشرك بالله وها كتابها ينطق بالحق بوحدانية الله ويشهد عنها بالصدق فلا محل إذن لهذا الاتهام الباطل الذى يقف عاثوراً فى طريق المسيحية ، فى الوقت الذى فيه نجـــدها ديانة التوحيد بأجلى معانيه لأنها لا تقول بالتعدد والتغير . . . ولا بالتجزوء والتقسيم . . فى ذات الله الأحدية ! !

غاية ما فى الأمر أن المسيحية قررت بأن التوحيد الصحيح لا يقوم أساسه على ناحية العدد فهو ليس مجرد اثبات أن الله واحد فى الكم ، بل أنه تعالى الموجود الأوحد الذى ليس كمثله شىء فهو القائل : « أنا الله وليس مثلى » (اشعياء ٤٦ : ٩)

فوحدانيته هذه فائقة بالطبع تسمو فوق الادراك فتتعالى عن العد وتسمو فوق حصر الحد إذ هى لا تخضع لقانون الكم والكيف كما يزعم شهود يهوه قائلين : كيف يكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة متصورين بذلك وحدانية الله كشبه وحدة مادية مما لا يمكن القول عن الواحد فيها أنه ثلاثة ! ؟

فإذا قيل أن هذه الوحدانية مستحيلة لعدم وجود ما يماثلها فإن هذا قول مردود لأن « الذات الإلهية مغايرة لسائر الذوات » فإذا كانت صفاته تعالى غيرها فى خلائقه التى فيهم ما يشبهها فليس بغريب أن يغايرهم فى مسألة وحدانيته المقنمة التى لا نظير لها بين الكائنات وهى فى ذلك كغيرها من الإلاهيات لا ينتظر أن يوجد ما يشبهه تعالى فيها — وبذلك تجلت وحدانية الله فى معناها الحقيقى فإذا بها تؤكد أن لا نظير ولا شبيه له على الاطلاق ! !

* * *

الفصل الثانى

سر الأسرار القدسى

« ما كانت المسيحية لتدرك كنه الله أو حقيقة ذاته بأكثر مما أعلنه تعالى فى كتابه المقدس من أنه آب وابن وروح قدس فى جوهر واحد »

من الواضح تماما أن التثليث هو جوهر إيمان الديانة المسيحية الذى تمسكت به منذ نشأتها ولذلك فهو أعظم العقائد المسيحية أهمية وأساسها كلها لأنه يتصل بذات الله حسبما أعلن لنا نفسه عن طريق الوحى ، فمعرفة هذه العقيدة هى معرفة لله والإيمان بها هو إيمان بالله فمن يجهلها يجهل مولاه ومن ينكرها ينكر الله !

ومن المؤكد أيضا أن هذه العقيدة ليست اختراعا من نسج خيال المسيحيين لأنها تفوق ادراك الآدميين كما أنها ليست من وضع المجامع ولا من تفسير المجتهدين ، بل هى تعليم إلهى موحى به فى الكتب المقدسة فى التوراة قبل الانجيل ، لأنه لما كانت الطبيعة غير كافية لأعلانه تعالى فقد جاء الوحى المقدس بإعلان واضح صريح هو الأساس الوحيد لهذه العقيدة التى تألق نور إعلانها بمجىء المسيح الذى صرنا به نؤمن بالله (١ بط : ٢١) ومعنى ذلك أن الاعتقاد الصحيح بالله يوجب الإيمان بالمسيح ولن يكون بغير ذلك وهذا هو أساس التثليث فى المسيحية الذى جاهر به الرسل فأعلنوه بأقوال لا تقبل الجدل إلا ممن عميت بصائرهم وطمست عقولهم

* * *

يتضح من ذلك أن عقيدة « الثالوث » تسمو فوق ادراك العقل فليس بمقدوره أن يخترعها أو يبتكرها ، وإنما هو يقبلها ويسلم بها باقناع وارتياح تامين متى أخضعه لها الله بسلطانه الإلهى — لأنه لا يستطيع أن يعرف كنه الله إلا الله نفسه ، ومن اسمائه وصفاته التى أعلنها لنا فى كتابه آمنا به أنه واحد فى ذاته وجوهر لاهوته ولكنه مثلث الاقانيم أيضا . وإن كان هذا الإعلان عن الله أنه ثلاثة أقانيم آب وابن وروح قدس لم يرد إلا فى العهد الجديد إلا أنه وردت فى العهد القديم تلميحات هى أوضح من التصريحات بأنه جمع فى وحدة لا بل أنه « ثلاثة فى واحد » وهذا سر

يفوق البشرية جاء عنه فى إحدى المدائح القبطية أنه :

اله واحد فى ثلاثة اقانيم	يعجز عن وصفه كل فهيم
جوهر واحد مثلث الأقانيم	من غير تفريق ولا تقسيم
سلطان واحد فى ملكه مقيم	مالئ السموات وكل الأقاليم

* * *

والحقيقة القاطعة هى أن التثليث قد تسلمه الرسل مباشرة من المسيح فى صيغة التعميد التى أضحت معروفة لدى المسيحيين منذ البداية ، ولذلك لم يكن هناك مايدعو لشرح هذا التعليم فى فجر المسيحية لأنه كان مقبولا كعقيدة ثابتة من جميع المسيحيين. أما ما قيل فيما بعد فى سفر الأعمال عن اجراء المعمودية باسم الرب فهو كلام إجمالى لتمييز هذه المعمودية (المسيحية) عن المعموديات الأخرى ، ولا يراد بذلك صيغة التعميد نفسها لأن الكتاب لايناقض نفسه بل بيان القصد منه لأن صيغة التعميد باسم الثالوث كانت موجودة من قبل وقد صدرت من شفتى المسيح نفسه قبيل صعوده ولم يوجد مايقرر رفعها أو تغييرها أو التحوير فيها بتاتا !! ومن ثم فالقول بأن تلك الصيغة (أى التعميد باسم الثالوث : الآب والابن والروح القدس) استبدلت بأخرى (أى التعميد باسم الرب يسوع وحده الذى هو الابن بحسبان أن الوحدانيه تنحصر فيه) حسبما قال الذين اعتبروا الأقانيم مظاهر ، قول باطل ولا أساس له من الصحة ، فضلا عن أننا بحسب زعمهم يكون المظهر الحالى لله فى دور ظهوره كالروح القدس ـ وهو المظهر الأخير الذى استحال إليه اللاهوت فى نظرهم ـ هو الأولى بأن يعمد بأسمه الأمر الواضح البطلان !!!

* * *

ولقد زعم البعض أن عقيدة « الثالوث » فى المسيحية مأخوذة عن الوثنية لوجود ثالوث فى بابل كما وفى الهند واليونان وغيرها كثالوث طيبة المصرى الذى وجد فى مصر الفرعونية وكان يتألف من أب (أوزريس) وأم (إيزيس) وأبن (هوروس) وقد كانت هذه العقيدة القديمة معروفة فى المدرسة الفلسفية باسكندرية من قبل

ظهور المسيحية ولذلك فقد ظن بعضهم خطأ أن هذه هى العقيدة المسيحية وزعموا أن أول الانجيل يبدأ باسم الآب والام والابن،فحسبوا أن الثالوث ثلاثة آلهةوأن مريم العذراء هى أحد هؤلاء الثلاثة آلهة وساعدهم على هذا الظن تقديم العبادة لمريم الأمر الذى ظهر فى فترة العصور المظلمة من تاريخ الكنيسة .

ولكن هنا الزعم بتمامه فرية مردودة بدليل أن كل ثالوث مما سبق ذكره عبارة عن ثلاثة آلهة وليس باله واحد — وعلى كل فان كان وجود ثالوث كاذب يؤخذ دليلا على عدم وجود الثالوث الحقيقى للزم أيضا أن يؤخذ وجود إله كاذب دليلا على عدم وجود الاله الحقيقى ، وهذا ما لايقره أحد من أهل الاديان الأخرى المؤمنة بالله . . .

فليوفر شهود يهوه أذاً جهودهم السفسطائية لدحض التثليث بمثل الوريقة المعنونة : « عقيدة الثالوث هل هى من الأسرار الالهية أم من الخرافات الوثنية » فليس لتساؤلهم التجديفى هذا أساس إذ ليس لهذا السر الفائق من مصدر سوى إعلانات الكتاب المقدس المعصومة فقد ورد فيها أسماء الله أطلق ذات الاسم الواحد منها على أكثر من أقنوم واحد - دليل الوحدة والمساواة التامة بين أقانيم اللاهوت الثلاثة !!

ومع أن مداركنا قاصرة عن إدراك هذا السر ولكنها ملزمة من الجهة الأخرى بقبول ما أعلنه تعالى عن ذاته .. ولكن خلفاء آريوس الحديثون يتحدون المسيحيين فى إيمانهم بالثالوث المبنى على إعلانات الله عن ذاته فى الاسفار الالهية من أول سفر التكوين إلى آخر سفر الرؤيا فيكذبون بجرأة هذه الاعلانات القدسية قائلين أنها إحدى أكاذيب الشيطان .. وهذا مبلغ ما وصلوا إليه من افتراء !!

* * *

وليس بغريب أن يكون الثالوث الأقدس سراً يفوق إدراك العقل لأنه إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك كنه نفسه وهى بين جنبيه فلا يعلم لها ما هية ولا كيفية ولا أينية ، ولا يدرك سر الحياة فيها ولا فاعليتها، مع أنها ذات مخلوقة وهى

أقرب الأسرار إليه ، وكذلك يعترف بوجود أسرار كثيرة تحيط به دون أن يفهمها لأنها تسمو فوق مداركه فكيف يحاول أن يدرك كنه خالقه إذن وكيف لا يكون هذا الخالق وهو رب العالمين سر الأسرار . . ؟ إن مثلهم مثل من يحاول تفريغ الأوقيانوس فى حوض سعته لتر !! وهل يدرك المحدود المُدرَك غير المحدود وغير المُدرَك، بل كم من أشياء محسوسة لا يستطيع العقل إدراكها فهل استلزم ذلك نفيها والطعن فى حقيقتها ! ؟

فاذا كان عدم إدراك كنه التثليث موجبا لنفيه لزم كذلك أن يكون عدم إدراكنا كنه الله الواحد موجبا للكفر به ! ؟ وهذا ما لا يرتضيه عاقل !! ولهذا فان الذات الالهية فى ثالوثها ووحدانيتها سر مستغلق على الخلائق بأسرها فهو يفوق إدراكها المحدود إذ يستحيل على العقل المحـــدود الإحاطة بالجوهر الإلهى الذى لا يدرك كنهه سواه وإلا لما كان الله تعالى هو الإله !!

ولذلك لم يجد المسيحيون منذ البداية أن مسألة الثالوث مشكلة تتطلب الحل ولا التأويل كما أمسك المسلمون من بعد عن البحث فى ذات الله عز وجل وما قد تدل عليه كنهها وصفاتها من التوحد أو التعدد (١) !!

إذاً فلا مجال لانكار التثليث لمجرد عدم إمكاننا إدراكه إذ كيف نقدر أن ندرك الأقانيم الإلهية وهى غير منظورة وكيفية اتحادها فى الجوهر الإلهى الغير المنظور! ؟

يؤيد ذلك ما شهد به اثناسيوس وهو من أعظم آباء المسيحية المفكرين حين قال : « فأما معرفة كنه الله فليس يبلغها مخلوق لا من الناس ولا من الملائكة لأن الله لا يحد ولا يوصف ولا يرى . ولو أنه عرف من هو لأدرك كنه الوصفية أو كيف هو لبلغه الزمان أو أين هو لحده المكان ، ولكان الذى يبلغ ذلك من معرفته يكون مثله لقدرته على معرفة كنهه . ولم يكن ينبغى لمن أدركه حد الوصف وحد الزمان وحد المكان أن يكون الهاً ومعاذ الله من هذا كله !! »

---

(١) كتاب الله للعقاد

فما هية الله لم يستطع الأوائل تفسيرها ولن يتوصل الأواخر إلى إدراك كنهها: فهى فوق إدراكنا ونحن ندرك بصيصا منها على قدر ما وصلنا إليه من معرفه ، فمداركنا قاصرة هنا عن إدراكه تعالى ، وإلا لما كان هو الله ، ولم نكن لنعرف عنه إلا بالقدر الذى تحتمله عقولنا وأعلنه لنا ولهذا فاننا لا نجد عذرا لمن يكابر فى الأمور الإلهية التى قررها الله ذاته بدعوى منافاة التثليث للعقل : لأننا إذا كنا قد وقفنا على مبلغ عجز الإنسان عن إدراك نفسه وكذلك الأشياء المحيطة به فكيف يمكن أن يكون بمقدوره أن يعرف كنه ذات الله أو ما هيته فان هذا يقينا مما لا يصل إليه العقل ، فمن الممتنع بتاتا عليه أن يدرك سر الذات العظمى التى تهيمن على باطن الوجود وظاهره معا وإنما يدرك العقل وجود تلك الذات فقط من أفعالها وآثارها دون ماهيتها !!

قال اثناسيوس العظيم آنف الذكر : « إن الله عرف البشر قدر ما ينفعهم ، ليجلبهم بتلك المعرفة إليه وستر عنهم ما لو ظهر لهم لأضرهم لضعفهم عنه »

وقال صاحب كتاب الوجود فى هذا المعنى : « وما مثل العقل المجرد فى مثل ذلك المجال إلا كمثل الفراشة تحوم حول النور مستأنسة به بقدر وفى نطاق محدود لو تخطته لاحترقت وتلاشى وجودها ، فالعقل نفسه يبهره أيضا النور الأقدس فيتطلع إليه ويقترب منه ولكن ذلك النور يلاشيه إذ هو حاول الوصول إلى كنهه !!

وقال ستاس فى كتابه « الزمن والأبدية » طبعة جامعة برنستون سنة ١٩٥٢ : « إن كل المحاولات لجعل الديانة مسألة عقلية منطقية فحسب ليست فقط سطحية بل هى مدمرة للدين فيما لو نجحت . لأنه إما أن يكون الله سر قدسى أو لا يكون شيئا بالمرة !! »

ونحن إذ نتقدم إلى تفسير المعلنات الإلهية لسنا نقصد أن نزيل من هذا السر غموضه أو نوضحه تماما ، إذ ما أكثر الأشياء التى نعجز عن إدراكها فان معرفتنا بحقيقة الأشياء من الخارج جزئية جداً وأما حقيقتها من الداخل فلا نعلمها فبالأولى

لانستطيع أن نفهم كنه الله وهو تعالى فوق الكيف وطبيعته لا يحيط بها الإدراك فليس لغير الله علم بذات الله إذ لا يعلم ما هو إلا هو ، وهو بكل شيء عليم !!

* * *

ولكن بأى معنى نصف الثالوث الأقدس « بالسر » وما المقصود بذلك ! ؟ ولماذا يتحتم ربط هذه اللفظة « بالثالوث » حتى أننا لا نستطيع أن نتحدث عنه بدونها ! ؟ وهل نستند فى استعمالها إلى تأييد من الكتاب المقدس ! ؟

وبماذا نرد على من يقول بأن هذا « السر » الذى يجعل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم لغز معقد اختلفت فيه أقوال المفسرين ، وانه انزلاق إلى الشرك بل احتيال على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة ، فما حاجته إلى تعدد الأقانيم الأمر الذى يحير عباده فيه ، ولماذا لا يكون بسيطا بحسب التوحيد الخالى منها ! ؟

بل كيف نواجه هجمات شهود يهوه الدنئية على جلال الثالوث الأقدس بالتهكم على كونه « سر الأسرار » زاعمين بأنهم لايستطيعون عبادة إله كهذا معقد شاذ التركيب ، وهم قد فعلوا ذلك فى محاولتهم اقتحام كنه الثالوث . ووجه الغرابة فى أمرهم هذا تحديهم لعجز العقل القاصر عن تكييف الذات الالهية وهى مبدعة العقل وفوق ادراك الحس ، فان هوية الذات الالهية استبطان مطلق فى وجود مطلق لا يمكن لأى كفاية بشرية عرفانها فليس فى الوسع أذن معرفة كنهها من أى كائن مخلوق أيا كان . . . !!

لقد اضحى هؤلاء وأمثالهم بعدم خضوعهم لاعلانات الكتاب المقدس بتمامها عن الله تعالى كقوم قد مس عقولهم خبل لانهم حاولوا إدراك سر الذات العلية ، وهيهات للعقل البشرى أن ينفذ إلى الحقيقة الالهية أو يقاربها بعض المقاربة . ومصيرهم هذا من الكفر والتجديف - وهو الهلاك الأبدى - هو نفس المصير الذى ينتهى اليه كل من حاول أن يتدخل بعقله فى هذا السر الفائق الذى يمتحن به المولى طاعة عقولنا فيما يختص بقبوله بالخضوع والتسليم ، فسر الثالوث يفوق العقل ونحن نسلم به ولو لم تدركه عقولنا لأنها ماكانت لتعرف عنه شيئا بدون الاعلان الالهى !!

* * *

ويسمى هذا السر بلغة الوحى « سر الله الآب والمسيح » و « سر الايمان » وهو أعظم اسرار الديانة المسيحية بل ان رجاءنا المسيحى يتعلق عليه وذلك لأنه تعليم جوهرى للخلاص ، ومن الواجبات الأولى فى الأهمية على كل مسيحى يريد خلاص نفسه ويهمه الإيمان بالحق الموحى به أن يؤمن بما تعلمه الكتب المقدسة عن سر الاله العظيم الواحد الكائن فى ثلاثة أقانيم ! !

وليس معنى « السر » هنا هو ما يجب أن يبقى خافيا لا يسوغ اطلاع الجميع عليه وأنما هو محفوظ للخاصة والكهنة دون سواهم لأن المسيحية وهى ديانة الحق لا تميز بين خاصة وعامة ولا تخفى شيئا من أسرارها العظيمة بل تذيع حق الله المعلن للجميع وتقدمة للعالم أجمع مجتهدة أن تفسره لكل الناس واذن جمال الديانة المسيحية هو فى ظهور أسرارها ولا خوف عليها أبداً من انتشار أعظم وأسمى حقائقها بين كل الناس - ولذلك فان المقصود بلفظة « سر » فى العهد الجديد هو :

أولا : عقيدة كتابية خاصة بالوحى لا تتعلمها من سواه ومن ثم لا يمكن الوصول إليها بالعقل المجرد وحده بعيداً عن الاعلان الالهى .

ثانياً : عجز العقل عن الاحاطة بما أعلنه الوحى لسبب الاعماق الخاصة به والتى لا يمكن استقصاءها اذ هى فوق طاقة العقل البشرى .

وسر « التثليث » لم يعلن لنا إلا بالوحى المكتوب وعن طريق التجسد الالهى ، وهو « سر » بمعنى أن العقل لن يمكنه أن يدرك الجوهر الالهى تماما ، وعلى ذلك كيف يكون الله ثالوث ووحدة يسمو باستمرار فوق الادراك التام ، وليس « التثليث » وحده هو السر الذى لا يدرك بل كل كمالات الله ، وهناك إجماع على أن كل ما فى طبيعة الله وصفاته أسرار فائقة : وهى وان كانت مع سر التثليث فوق ادراك العقل ولكنها ليست ضده فان عقولنا أذا اتبعت ارشادات الكتاب المقدس لا تعجز عن الوصول إلى مقدار محدود من المعرفة الكافية للإيمان . ومن ثم لا محل للاعتراض هنا بحجة وجوب ادراك الاقانيم اذ اننا نستند فى الاعتقاد بها إلى ماصرح لنا به الله فى كتابه المُنزَل ! !

* * *

فان يكن سر الثالوث من المواضيع العويصه فهذا هو المنتظر إذ كيف يستطيع المخلوق أن يستوعب بادراكه كيان الخالق !!

فالثالوث سر قدسى من أخص الاسرار الداخلية لذات الله وطبيعته: وقد توضح إعلانه بشخص المسيح لتلاميذه الأول وكانوا من اليهود الذين يعتبرون أن أى شرك فى الله الواحد تجد يفاوكفرا ، ولكنهم لم يروا غضاضة فى قبول هذا السر بل وأودعوه إلى الكنيسة، ولما ثار الجدل من حوله فى القرون الأولى قام بمجمع نيقيه المسكونى أول المجامع الكنسية بصياغته فى « قانون ايمان » وذلك لابعاد الضلال عن دائرة « العقيدة المسيحية »

* * *

ونحن الذين ما زلنا حتى الآن نجهل الكثير من نواحى الحياة البشرية لا ندهش قط لكوننا لا نستطيع أن نفهم الحقيقة كلها عن ذات الله الخالق !!

فإنه يبدو غريبا حقاً أن نظن بأن طبيعة الله التى لا يمكن سبر أغوارها أقل تعقيداً من كياننا نحن الذين ما زلنا نتعلم كل يوم شيئاً جديداً عن أسرار شخصياتنا البشرية فما أسمى شخصية الله عن فهمنا وادراكنا !!

اللهم : يامن هو أقدم الأسرار وأعمقها نجثو أمام عرشك العظيم، فارحمنا رحمة واسعة أيها الثالوث الأقدس القديم!!

الفصل الثالث

حيرة العقول تجاه المسائل الإلهية

« تقوم عقيدة الثالوث الاقدس على أساس من الحقيقة والواقع . وعندما نضعها موضع البحث نجدها أكثر معقوليه من أية عقيدة أخرى عن الله الذى حارت فيه العقول. »

من السخف أن يزعم إنسان بأن فى مقدوره أن يستوعب موضوع الثالوث فى نطاق عقله البشرى ، ولا غرابة فإن عقولنا قاصرة عن إدراك كنه هذا السر لأن العقل المحدود لن يدرك أسرار طبيعة الله غير المحدود ! ؟

جاء فى كتاب اليواقيت : « أن الحق تعالى إنما حير عقول عباده فيه لئلا يدخل تعالى تحت حكم ما خلق . . . فلذلك انفرد سبحانه وتعالى بالحيرة فى وصف كماله ، فما علمه سواه ولا شاهده غيره ولا أحاط أحد به » وقال آخر من جنسه : « الأمر حيرة فى حيرة واحد فى كثرة وكثرة مردها إلى الواحد » أليس هذا يوافق القول أن تعليم التثليث سر ! ؟

وليس تعليم الثالوث وحده هو السر الذى لا يدرك فى الله بل كل صفات الله الأكملية لا تدركها العقول البشرية — مثلا : كيف يكون الله تعالى قائماً بذاته ! ؟ كيف يكون علة العلل وغير معلول البتة ! ؟ كيف يكون عليما بكل شىء بحيث لا يقبل علمه الزيادة ولا النقصان ! ؟ وغير ذلك من الحقائق التى ينفرد بها سبحانه ! ؟

فاذا كان الانسان بحكم عقله المحدود يعجز عن إدراك أسرار عديدة فى الخليقة وفى كيانه مع أنه يعرف ظواهرها وبعض خواصها فهل يكون غريبا أن نقول أن الثالوث وهو خاص بطبيعة الله سر يصعب فهمه وإدراكه .

ولقد كان من المستحيل على أى أحد التوصل إلى كشفه أو معرفة شىء عنه قبل التجسد الذى مهد لحلول روح الله الذى يعلم المؤمنين الراغبين فى الاسترشاد بهطرق

الحل والتفسير الإلهيين ، فان يكن هذا السر « لغزاً » يعسر على العقل البشرى فك رموزه ، فالروح القدس كفيل بحل غوامضه للذين يتسربلون بالتواضع ، ويسعون باخلاص تام ، ورغبة صادقة وراء خلاص نفوسهم !

. . .

ولقد اتفقت الأديان عامة فى تعذر البحث فى الذات الإلهية وعدم جواز ذلك ، ولذلك فان التثليث حقيقة إيمانية كسائر الحقائق الفائقة التى يخضع لها العقل ويسلم بها الإيمان لمجرد كونها معلنة فى الكتاب المقدس الذى هو مصدر جميع الحقائق الالهية فى العالم أجمع والذى عنه أخذت كل عقيدة سموية تؤمن بالله تعالى .

ولا نذهب بعيداً بل نقول للمؤمنين بتلك الحقائق الايمانية : ما هو الله وأين هو ؟ فهل فى مقدور أحد منهم أن يجيب عن هذين السؤالين بعيداً عما جاء فى كتب الأديان ! ؟ ثم كيف تصدقون أن لكم أرواح وعقول وأنتم لا تعرفون ما هيتها وتقرون بها رغم قصر مداركم عن فهم كنهها فلماذا إذن ترفض عقيدة الثالوث لمجرد عدم إحاطة الادراك بها . فالذى يسلم بوجود أسرار فى الطبيعة وأسرار فى الكتب المقدسة وجب أن يسلم أيضاً بهذه العقيدة !

. . .

نعم يحار المسيحيون فى هذا السر العظيم عند محاولتهم إدراكه ، ولكنهم بنعمة الايمان يخضعون عقولهم المحدودة لاعلاناته السامية ولا يجرأون على اخضاع النور نفسه لمستوى العقل الضعيف . وليس هذا بغريب فقد قال أحد علماء المسيحية :

لماذا أقلق من جهة أسرار المسيحية ونحن محاطون بالأسرار . هوذا مجرد وجودى نفسه سر غامض وكذلك العلاقة بين روحى وجسدى وكيفية اتحادهما — وكل واحد منا يؤمن بأمور كثيرة لا يفهمها ، فالتثليث والتجسد والصليب والقيامة بل العناية الالهية والأبدية نفسها كل هذه من أعمق الأسرار . ولا يتعبنى مطلقاً عدم اقتدارى حل هذه الغوامض لأنها مختصة بالله سبحانه وتعالى .

. . .

وبناء عليه فالقائل من أهل الأديان الأخرى بأنه لا يقدر أن يصدق عقيدة التثليث لأنه لا يقدر أن يفهمها قد فاته أنه يؤمن ويصدق أموراً كثيرة إذا سأله كافر بالوحى أن يثبت له أمر واحد منها عجز هو وجميع الراسخين فى العلم عن الاجابة وإقامة البرهان : فكل مؤمن بالله يعتقد أنه تعالى خلق العالم فى ستة أيام وإن الأنبياء والرسل عملوا المعجزات كما يعتقد بالقيامة والبعث لجميع البشر من آدم إلى آخر شخص فى العالم حتى من مات حتف أنفه ومن أحرقته النار والذين أكلتهم الأسماك أو افترستهم الوحوش ستعود أرواحهم إلى أجسادهم التى تحولت إلى صور شتى من تراب ونبات وحيوان وجماد ! فاذا عارضه كافر وأنكر عليه هذه الحقائق لا يمكنه أن يثبتها له بالبرهان المنطقى والحجج العقلية من غير الكتب المنزلة — فهو يعلم أنه عاجز عن إقامة الأدلة فى هذا الشأن !

فهذه كلها وغيرها قد آمنا بها من الكتب المنزلة ، وسر التثليث لا يختلف عن باقى هذه الأسرار فى ذلك ، وبرهانه هو من الكتاب المقدس الذى أعلنه وهيهات أن تبرهن العقائد الدينية من أى علم كان فان لكل شىء برهانا من نوعه

ويعترف المعترض على التثليث بوجود بعض مجمل فى كتابه محجوبة المعانى عن الانسان وستبقى هكذا إلى يوم الدين — وما دام هو يقول بأمر كهذا فلماذا لا يسلم بأن أمر الثالوث هو أيضا من الأمور المتشابهة عنده ، وبذلك لا يكون هناك مجال لانكاره لمجرد عدم إدراكه ! ؟

وإذا لماذا المخالفة فى مسألة التثليث مع وجود اتفاق فى الجوهر لأن المعترض وهو يقول الله وكلمته وروحه يقبل التثليث الذى نعلنه إذ نقول الآب والابن والروح القدس — فنحن نعتقد أن لله كلمة وروح ولكن لا نعلم ما هو الله ولا ما هو كلمة الله وما هو روح الله كما أن المعترض نفسه يعتقد بهذا أيضا معنا دون أن يفهمه — وإنما هو يعتقد بأن كل ما فى الله هو الله وحسب ذلك يكون كلمة الله إذاً وروح الله كل منهما الله ولهما صفات الله . وهكذا تسلم الأديان بالله وكلمته وروحه وهذا إجماع عام لديها على السواء وإن اختلفت فى التعبير عن كنه هذا الثالوث .

ويقرر يوحنا الدمشقى فى قسم رده على الضلالات ان التثليث المسيحى يحفظ

وحدانية الله أفضل من التوحيد المطلق قال : « يدعوننا مشركين لأنهم يقولون أننا أدخلنا شريكا لله لما ندعو المسيح ابن الله والله ولكنهم يقولون أن المسيح هو كلمة الله وهو روح من الله فكيف يمكن أن يتهموننا بأننا مشركين ؟ لأن كلمة الله وروحه لا ينفصلان منه ذاك الذى فيه وجودهما . فان كان الكلمة لذلك فى الله فمن الواضح حينئذ أنه الله ولكن إن كان خارج الله فبحسب كلامهم نفسه يكون الله بلا كلمة (وبلا عقل) وبذلك بينما يتجنبون أن يجعلوا لله شريكا فانهم يقسمونه وكان الأفضل لهم أن يقولوا بأن معه شريكا من أن يقسمونه ويعاملونه كالمواد التى تقبل التقسيم مما لا حياة فيها لذلك فانهم يتهموننا زوراً حين يدعوننا بالمشركين بينما ندعوهم نحن بالمقسمين لله » .

. . .

وإزاء ذلك قال علماء التوحيد أنفسهم : « إن الخوض فى صفات الله البارى بالظن لا يجوز . ومعنى ذلك أن التسليم فى المسائل الإلهية أمر يقتضيه العقل ولا يأباه لأن القياس إنما يكون فيما يقاس عليه ، وما ليس له شبيه ولا مثيل لا يقاس عليه وإلا كان القياس عرضة للخطأ والوهم والقصور ... والله جلّ وعلا بغير شبيه ولا مثيل ، فنحن لا يمكنا أن ندرك أحكام البساطة الإلهية التى لا تحيط بها العقول فهو جلّ وعلا كمال مطلق والعقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل » ؟ وإذاً فهذا الكمال مطلق تعجز عقول البشر عن إدراكه — فهو لا يدخل فى حدود العقول ولا يخضع لتجارب العلماء .

وما دام ليس بمقدورنا أن ندرك أعماق اللاهوت هذه لأننا لا ندرك شيئا بالتمام ولا ذواتنا ، فكما نلتزم فى بقية الأمور أن نسلم بما لا ندركه تماما ينبغى لنا أن نسلم بكل ما أعلنه تعالى عن ذاته وإن لم ندركه تماما .

فلنسلم بالتوحيد والتثليث إذاً ثم نقابل ونساوى بينهما وهما يجتمعان وهذا لا بد منه لأن برهان الثانى يضعف بفصله عن الأول: لأن التوحيد بمعناه الصحيح يمنعنا عن أن نوضح التثليث بمذهب تعدد الذوات أو تفاوت الدرجات أو تنوع التجليات

لأن الأقانيم ليسوا ثلاثة آلهة وإن كان كل واحد منهم غير الآخر كذلك ليسوا هم نوابا فى اللاهوت لاجراء أعمال إلهية . ولا أشباه لله لأننا فى كل ذلك ننسب اللاهوت إلى من ليس له ونسلب منه ما يستحقه من المجد والعبادة ونعطيها لغيره وذلك إذا لم تكن الأقانيم الثلاثة هم الله الواحد . وهكذا يوضح التوحيد التثليث ويقرره!!

. . .

ولذلك نجد أن عدم فهم معنى التثليث هو الذى يجعل غير الفاهم يعتبره مناقضاً للتوحيد،والحقيقة غير ذلك لأن التوحيدهو الأساس الجوهرى الذى ترجع إليه عقيدة التثليث كما سبق الذكر ولذلك فان جميع المسيحيين لا يؤمنون بثلاثة آلهة وكذلك فهموا معنى الثالوث بأنه ليس ثلاثة وحدات أو ثلاثة آحاد ! !

فالعقيدة الجوهرية العظمى التى تعلمناها عن الله فى الكتاب المقدس من السفر الأول حتى السفر الأخير هى أنه تعالى واحد،وليس ذلك فحسب بل أنه الإله الوحيد. ولكن كنه هذا الإله الواحد لا يقدر أحد أن يدركه أو أن يفهمه بأكمله لأنه كائن فى ثلاثة اقانيم ومع ذلك فليس هو ثلاثة آلهة بل إله واحد ! !

وليس التثليث بمستحيل ولا هو مضاد للعقل لأننا لا نقول أن الله ثلاثة جواهر بل ثلاثة أقانيم فى جوهر واحد هو سر وحدة الأقانيم ، ومن ثم فاننا ونحن نثلث الاقانيم موحدون لأننا نوحد الجوهر الالهى ! !

نعم إن هذه الحقيقة تفوق الادراك ولكن أى احترام وتقدير نقدمه لإله بلغ من البساطة بحيث يستطيع العقل البشرى أن يفهمه ويستوعبه تماما ؟! لذلك ليس فى امكاننا أن نفهم الوحدانية والثالوث بل أن نعبد الله فى وحدانية ثالوثه وثالوث وحدانيته ! !

ومن ثم لا يسوغ لنا أن نتخذ عقولنا مقياسا للحكم فيما هو فوقها إذ من الواضح أنه لا يوجد كائن اخر نظير الله فى الذات والصفات حتى يمكننا الوقوف على حقيقته فلا غرابة من حقيقه استحالة إن يدرك كنهه سواه .

فالاعتراض على سر الثالوث إذاً شبيه باعتراضات الكفرة والملحدين الذين يقولون كيف يكون الله أزلى لا أول لوجوده وكيف يملأ السماء والأرض وكل مكان فى وقت واحد . . إذاً فذاك السر مدى غير المحدود هو فوق الكيف . . ! اوذلك من جميع الوجوه ، ومن ثم فإن عقولنا القاصرة لم تخلق مقياسا للممكن وغير الممكن فى هذا الأمر الفائق حتى تحكم بأن الثلاثه أقانيم فى الجوهر الواحد أمر محال!؟ والواقع أن لا دليل على استحالة ذلك فتلك دعوى بلا برهان وليس فى مقدور عقولنا أن تدرك الجوهر الإلهى وأقانيمه والنسبة الكائنة بينه وبينها إدراكا تاما حتى يمكنها أن تحكم باستحالة وجود الثلاثة اقانيم فى الجوهر الواحد ! ؟

. . .

ومن ثم فان عقيدة « الثالوث » تعليم كتابى يستند إلى نصوص الكتاب المقدس نفسه فهى ليست من العقل بنور الطبيعة ولا من تأليف الفلاسفة ولا من قوانين مجامع الكنيسة وإنما هى من كتاب الله وحده . . فمنه تعلمنا كونه تعالى جوهرا واحدا فى ثلاثة أقانيم متساوية ومتميزة ومصدر هذا السر هو « الإعلان المباشر » من الله نفسه ، فما كان لنا أن نقول عن الله شيئا من عندياتنا ، إنما الله سبحانه هو الذى قال ويجب أن نؤمن بما قال تعالى ولذلك فاننا نستند فى اعتقادنا بالأقانيم إلى ما أعلنه لنا الله تعالى فى الكتاب المقدس ! !

وسر التثليث بعد كل هـــذا ليس أغرب من أسرار أخر فى طبيعة الله تفوق الادراك ، فلماذا يستشعر البعض صعوبة فى الايمان بالثالوث مع الاعتراف بالعجز عن ادراك جوهر الله وكنهه ، والعلاقة بين ذاته وصفاته وغير ذلك من المسائل الإلهية التى تحار فيها العقول ، فلماذا يستثنى سر التثليث دون سواه ويعترض عليه لكونه غير مدرك ! ؟

وقد قال أحدهم : « إن طلب معرفة حقيقته تعالى جهل فاضح بالمطلوب اذلك عجزت العقول عن كيفية ادراكه وكلت الافهام عن معرفة كنهه ! ! »

. . .

فقد حارت الألباب فى كيفية حفظ وحدة القديم مع وجوب اتصافه بصفات عديدة تنسب إليه الكثرة بوجه من الوجوه . ومرجع هذه الحيرة تساؤلهم عن كيفية اجتماع الصفات الكثيرة فى الذات الواحدة فقد رأوا فى ذلك التعدد والتكثر الذى يتنافى مع الوحدانية ويؤدى إلى وجود شركاء مع الله أو تركيب فى ذاته والحال أنه منزه عن كلا الأمرين .

وازاء هذه المشكلة الأولى عجزوا عن التوفيق بين وحدة الجوهر وكثرة الصفات واعترفوا بذلك . قال صاحب التحقيق : « أرى الكثرة فى الواحد » وقال صاحب المواقف : « حيث صفاته تعالى حقيقية لم يكن هو فى الحقيقة بسيطا واحدا من جميع جهاته» وقالت الاشاعرة : « إن الاعتبارى موجود فى الذات العلية إذا ماأريد لصفاته تعالى أن تكون حقيقة » وقال آخر : « إن الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها ، متكثرة بصفاتها وأسمائها»

فهو من حيث واحدية ذاته شىء واحد ، والواحد لا كثرة فيه ، ولكن أحديته شملت الكثرة المتنوعة من صفاته . ولقد شهد لهذه الحقيقة أحد أقطاب الصوفية فأنشد عنها يقول :

الكل فيها واحد متكثر ... فأعجب لكثرة واحد بالذات
فهى العبارة عن حقيقة كثرة ... فى وحدة من غير ما اشتاتى

ومن ثم فقد تساءل العلماء فقالوا : «هل فى تعدد الصفات تناقض مع وحدانية الذات؟ وهل فيها تركيب يمتنع فى حق الله المنزه عن التركيب أم هو تعدد لا يستلزم التركيب؟

وقصارى القول عن هذه المشكلة هو أن صفات الله متعددة وأما الكيفيات فمجهولة ، بل قال بعضهم أن « هذا اشكال لم يتأت لناحله نسأل الله تعالى أن يهدينا!!»

ومنهم من أمسك عن البحث فى ذات الله وصفاته بحجة العجز عن تفهم كنه هذه الصفات المتعددة وتعذر اتفاقها مع الذات الواحدة ! ولسان حالهم فى ذلك ما عبر عنه أحد مشاهيرهم بالقول :

العجز فى طلب الادراك ادراك ... والبحث فى عين ذات الله إشراك

ومن ثم فقد أقروا الجهل بماهيته لأنه تعالى ليس فرداً من نوع أو نوعا من جنس معلوم فارادة معرفة كهنه مستحيلة .

ويذكر ابن رشد فى كتابه « الوجود والخلود » : « بأن علماء التوحيد لما سلموا أن الفاعل الواحد لا يكون عنه إلا مفعول واحد ، وكان الأول عند الجميع واحدا بسيطا عسر عليهم كيفية وجود الكثرة فيه ، وقد أجابهم بالقول : « إن الكثرة لا تغاير الوحدة مغايرة مطلقة وانما تغايرها بوجه من الوجوه ولذلك لا تضاد بينهما إذ المضاد للكثرة ليس هو الواحد بل هو القلة ، والقلة ليست من أوصاف الواحد إذ لا يقال واحد قليل وإنما هى من أوصاف المنقسم ، ولا يعرف للواحد أن يكون قليلا إلا إذا كان شيئاً منقسما ، فليس بين الوحدة والكثرة تناقض أو تغاير مطلق بحيث يكونان منفصلين تماما وإنما هذا التغاير فقط بوجه من الوجوه وعلى نحو من الانحاء » .

ويقول ابن سيناء فى هذا الصدد نفس المعنى فيقرر : «أن الواحد هو ماكان غير منقسم من الجهة التى قيل عنه فيها أنه واحد »

ويستدل من ذلك على أن التعدد فى الصفات لايقدح فى وحدة الذات كما أن الوحدة لاتمنع التكثر من كل الوجوه وليست هى ضده — وهذه مشكلة محيرة لأنه تعالى من حيث واحديته لا كثرة فيها فلا يقال أنه لانهاية له لأن عدم التناهى من شروط الكثرة وهو منزه عن الكثرة وهو من حيث ذاته المتعاليه عن الحد والحصر والادراك لانهاية له فجمع الضدين فى عين وحدته أى التوحيد وعدم التناهى فانظر إلى هذا الأمر العجب العجاب ! !

« وبما أن تعدد الصفات لم يبطل وحدة الذات إذ قد ثبت أن الوحدة والتعدد يجتمعان بالصفات والذات إذن فاجتماعهما فى وحدة الذات مع تعدد الأقانيم أقرب وأصدق : لأن من يسلم بتلك يجب أن يسلم بهذه أيضاً . . .

ومن ثم لايكون تعدد الأقانيم مبطلا لوحدة الجوهر . بل أن نفس الاعتقاد بالصفات لايستقيم له معنى مالم يرافقه التسليم بوجود الأقانيم لأن كل هذه الصفات من قبل وجود أى كائن سواه لايمكن التعليل عنها ولإمارستها أزلا إلا بتعدد الأقانيم

فى الجوهر الواحد فقد اجتمعت أزلا هذه الصفات فى الذات بطبيعة الوجود الإلهى الفريد الذى يجمع بين الجوهر الواحد وأقانيمه الثلاثة !! (راجـــع كتاب الذات الإلهى للمؤلف)

. . .

وأما المشكلة الثانية وهى بشأن الصفات أيضا فقد قامت بسبب التسليم بوجود الصفات الإيجابية فى الله وأزليتها مع مافى ذلك من شرك يناقض التوحيد ؛ بحجة أن من اثبت لله صفة قديمة فقد أثبت الهين ، ومحال وجود الهين قديمين أزليين أو أكثر بحسب عدد الصفات الإلهية ، ومن ثم فقد قالت المعتزلة : أن كل ما اتصف الله به هو تعالى ذاته ـ أى أن صفات الله هى عين ذاته ـ وذلك لمنع تعدد صفات هى ذوات قائمة بالذات أو أصـــول ثابته فى الذات . . .

وقد وصـــلوا إلى ذلك احتجاجا على صفات الله فيما إذا كانت حقيقية وقديمة ومتميزة عن الجوهر وقائمة به وحجتهم : أنه إذا وجدت صفات حقيقية قائمة بالجوهر فهذه الصفات هى أما الجوهر نفسه وإما متميزة عنه فتكون إما قديمة وإما حادثة . وإذا كانت قديمة كانت مشتركة مع الجوهر بقدمها وكانت قائمة بذاتها ولم يعد فرق بينها وبين الجوهر وأصبحت جواهر هى أيضاً وقديمة وفى هذا شرك إذ أن صفة القدم هى أخص ما يتصف به الله فاذا قلنا أن هذه الصفات قديمة لزم أن تطبق عليها خصائص الالوهية . لذلك قالت المعتزلة أن هذه الصفات هى نفس الجوهر لأنه لو اعتبرناها قائمة بالجوهر لاحتاجت إلى هذا الجوهر وأصبحت أعراض يلزم أن نطبق عليها كل مايميز الأعراض إذ أن العرض محتاج إلى جوهر ليقوم به ويلزم ذلك إثبات التقدم والتأخر إذ أن الصفة لايمكن أن تكون قديمة قبل الجوهر الذى أخص أو صافه القدم ،

والمعتزلة ترجع دائما إلى هذا الأصل فى التوحيد وهو أن الله ذات فقط وكل ما نطلقه عليه من صفات ماهو إلا أوجه لذات واحدة بسيطة لاقسمة فيها ولا مباينة بين الذات والصفـات . . وبذلك نفوا عنه الصفـات فى سبيل المحافظـة على وحدانية الذات ومنعوا اعتبارها الحقيقى بذاته تعالى قائلين أن صفات الله هى موضوع اعتقاد

فقط لأننا لاننا لانستطيع أن نجعل منها تمايزاً عينيا لئلا ندخل الكثرة على الذات الألهية . وهذه هى النتيجة التى وصلوا إليها إزاء هذه المشكلة المحيرة لأنه إما أن تكون هذه الصفات أزلية كالذات وإما أن تكون حادثة . فاذا كانت أزلية فكيف يمكنها أن تحل فى الذات وإذا حلت فيها كان هناك أزليون مع الأزلى !؟ وإذا كانت حادثة وحلت فى الذات فكأن الذات قد تغيرت من حال إلى حال والتغيير دليل الحدوث مما يجعل لله تعالى بداية وهذا لا يتفق مع كماله تعالى فانه منزه عن الحدوث والتغير .

قال أبو الهذيل العلاف : « إذا تحدثنا عن صفات الله فذلك لأننا ننظر إليه تعالى من أوجه مختلفة فى حين أنه تعالى ذات واحدة لامتناهية ونحن نلجأ إلى ذلك لعجزنا عن إدراكه » ويزيد ابراهيم النظام قائلا : « بأنه لا توجد سوى ذات واحدة أزلية ننظر نحن إليها نظرة تجزئية فى حين أن هذه الأجزاء (اعنى الصفات) غير موجودة البته فيها ، فقط طبيعة عقلنا الناقصة العاجزة تلجئنا إلى ذلك »

على أن القول بأن صفات الله ليست حقائق ذاتية بل هى أمور اعتبارية قائمة فى أذهاننا فقط — لأن وجود صفات حقيقية لله يتناقض مع مايجب لذاته من توحيد تام — قول مردود لأنه ينفى مايتحقق به وجوده تعالى ويجعل ذلك الوجود وهما لاحقيقة فيه ولذلك سميت وحدانيته التى تنفى الصفات « بالوحدانية المجردة »

كما أن اعتبار صفات الله هى عين ذاته باطل لأنه يجعل الصفة موصوفا والموصوف صفة أو المعنى ذات والذات معنى !!

اما القول بقدم صفاته فانه يستلزم جمع قدماء فى الله لأن هذه الصفات تستلزم فى ممارستها أزلا وجود أكثر من كائن واحد أو وجود كائن مركب وهذا باطل لأن الله لاشريك له ولاتركيب فى ذاته .. !!

ولذلك نفى واصل ابن عطاء رأس المعتزلة صفات الله تعالى وقد أراد بذلك أن يرد فكرة الأقانيم عند النصارى إذ كان يرى فيها ثلاثة آلهة إذ أن الثلاثة قديمة ولذلك كان ينتقد القائلين بقدم صفات الله بالقول « أن النصارى اثبتوا ثلاثة قدماء أما أنتم فاثبتم بقولكم أن لله ثمانى صفات قديمة ، ثمانية قدماء » — ومن الغريب أن واصل

هذا نفسه بعد أن طالع كتب الفلاسفة انتهى إلى رد جميع الصفات إلى صفتين ذاتيتين هما اعتبارين للذات القديمة ويذكرهما أبو الهذيل العلاف بالقول : إن البارى عالم بعلم وعلمه ذاته وحى بحياة وحياته ذاته، وبقرر الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل جزء ١ ص٥٧ أن رأى أبو الهزيل فى الصفتين الذاتيتين المشار إليها آنفا من أنهما وجوه للذات هو بعينه أقانيم النصارى ... !!

. . .

وقد ظهرت المشكلة الثالثة بشأن الصفات كذلك ، والحيرة فيها أشد ، وهى أن الصفات ليست هى الذات ولا هى غيرها فلا هى زائدة على الذات ولا هى متميزة عنها ولكن كيف يعقل شيئان أحدهما ليس هو الآخر ولا هو غيره ! ؟ (١) كان الجواب «من اين استحال اثبات شيئين ليس أحدهما هو الآخر ولا غيره ! ؟ وهل يجب إذا قام الدليل على صحة الشىء أن يبطل إذا لم يكن له نظير من المعهود أم لا !؟ فان وجب أن يثبت الشىء إذا دل عليه الدليل من غير أن يلزم وجود نظير له ، صح قولنا أن صفات البارى، تعالى لا يقال أنها هو ولا يقال انها غيره كما صح وصفه جل وعز باشياء يخالف جميعها المعهود !!

ومن ثم لا يكون إيماننا — بوحدانية الذات المنزهة عن الشريك ، والقائمة بنسب داخلية بين الأقانيم — باطلا لكون ذلك على خلاف المعهود ، فهو تعالى واحد باعتبار وثلاثة باعتبار آخر لأنه واحد فى الجوهر وثلاثة فى الأقانيم ، وهذا لا يصح الاعتراض عليه لمجرد كونه يخالف المعهود ، فهو تعالى شىء لا كالأشياء إذ ليس كمثله شىء : انه مباين للأشياء أى غير متصف بما هو معهود فيها !!

. . .

وأما المشكلة الرابعة فى نفس الموضوع فتدهش لها العقول وهى فى قول أحد أقطاب الصوفيين(٢) : «أن الواحدية هى مجلى ظهور الذات فيها صفة والصفة فيها ذات — تظهر فيها الأسماء والصفات لكن بحكم الذات لا بحكم افتراقها كل منها فيه عين الأخرى ، فالمنتقم فيها عين الله والمنتقم عين المنعم ، والنقمة عين النعمة والنعمة

(١) كتاب الحدائق فى المطالب العالية الفلسفية العويصة
(٢) كتاب الانسان الكامل فى معرفة الاوائل والاواخر

عين النقمة ، كل هذا باعتبار ظهور الذات فى الصفات فكل ماظهر منها فى الذات بحكم الواحدية هو عين الآخر ،

وقد سئل الملقى عن إسم «الرحيم» وهل هناك تشابه فيه بين الله والإنسان الرحيم ؟ فقال «لا» أنه اسم فريد قيل له « وما الذى يميز اسم «الرحيم» عن «الأكبر» مثلا ؟ قال أن التميز موجود فى الحروف المكتوب بها كليهما ولكن حقيقة هذا التميز ومعناه لا يعلمها إلا الله !!

وصرح الامام الباقر : « إن فى إسم الله الأعظم حرف استأثر به فى عالم الغيب وحده لاسبيل إلى معرفته بحصر اللفظ » وعنه يقولون لله عز وجل : « اللهم إنى أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » !!

فاذا كان هذا مبلغ ما وصلوا اليه بشأن الصفات والذات فلماذا إذاً الاعتراض على الأقانيم وهى متوحدة فى الجوهر فهى عين الله وإن كانت متميزة أحدهما عن الآخر !؟ ومعلوم أن هذا النوع من الوجود ليفوق العقل والإدراك ويعجز أمامه كل بيان فهو يعلن يعلن وحدانية الذات مع التميز بين الأقانيم أيضاً !!

فهو يعطى كل ذى حقه ويضع صفاته تعالى فى موضع الكمال التام كل صفة منها فى نفسها على الحقيقة ومتوافقة مع غيرها المتضادة معها وذلك بسبب وجود الأقانيم الإلهية وهذا أيسر قبولا مما سبق ذكره عنهم من أن كل صفة هى عين الأخرى !؟

. . .

وهناك مشاكل أخرى عديدة خارج دائرة الصفات منها جمع الألوهية بين الضدين أى القديم والحديث ، والحق والخلق ، وعدم التغاير فى نفس حصول المغايرة وذلك كله نشاهده فى وصفه تعالى بأنه هو الباطن وهو الظاهر وذلك باعتبار مالكل شىء من حقيقة ومظهر فهو الظاهر الذى ظهر به كل شىء وهو الباطن الذى هو حقيقة كل شىء — هو الصورة الجوهرية كما أنه الصورة الشبهية — ليس كمثله شىء — وهو المثل الأعلى لكل شىء ولكن كيف يحل الله فى مظهر أو يتحد به ولا وجود أعظم من وجوده فيحتويه ؟ وكيف يتحيز فى مكان وهو المطلق الذى لا يتحيز ؟ أنهم يقولون جوابا على ذلك « ان ظهوره هو عين بطونه ، عين هذا عين هذا وفى هذا

القول تسليم على أن ذلك من حقيقة ماهو الله.. وهذه مسئلة محيرة كيف إذ يكون الأمر باطنه ظاهره وظاهرة باطنه وما فائدة التقسيم فيه بالظاهر والباطن وليس فيه تغاير ولا انفصال ولا انفكاك بوجه من الوجوه !؟

وأما نحن فنجد جوابنا الشافى عن هذا الأمر فى «سر التجسد العظيم» !! ولقد عبروا عن ضرورته بقول مأثور وهو : «لا ملجأ من الله إلا إليه» ولذلك خاطبوه بالقول : «اللهم أنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لاأحصى ثناء عليك كما أثنيت على نفسك»

ومن هذه المشاكل أيضا معنى الاستواء على العرش تفسيراً للقول «والرحمن على العرش استوى» فقيل عن ذلك بأنه حاشا أن يكون معنى الاستواء جلوسه تعالى على عرش متكئا بين صفوف الملائكة لأن الله منزه عن الانحصار والجهة وقد تحيرت العقول فى كيفية رؤيته عز وجل ، فلما استبدت بالعقول الحيرة من جهة هذا الأمر قالوا عنه : «أنه يجوز أن تكون هذه الكلمات من الآيات التى لم نبلغ فهم حقيقتها بعد !!»

. . .

وكذلك ظهرت الحيرة حول «العلم الإلهى» فمنهم من قال أن معلومات الله قديمة موجودة فى علمه وهى فى نفس الوقت محدثة فى ذاك الوجود . . وآخرون قالوا «أن علمه بالأشياء لم يتجدد عند تجدد الأشياء» وبينما يقول فريق منهم، أنه تعالى علم الكليات على الإطلاق كما علم الجزئيات بالإجماع ، إذا بابن سينا يقول : «الله لا يعلم إلا الكليات ، بينما يقول ابن رشد : «الله لا يعلم الكليات ولا يحيط بالجزئيات لأن الذات الإلهية منزهة عن كليهما . » وبينما يقول البعض : «الله يعلم ذاته وهى ليست بذى غاية ولانهاية» إذا بمعمر يقول : «الله لا يعلم ذاته ولا يعلم غيره ، لأن هذا يؤدى إلى التعدد فى ذاته إذ يكون فيه علم وعالم ومعلوم .»

وإزاء هذه الحيرة قال بعضهم جوابا عن ذلك بأن «الله يعلم حقيقة ليس بعلم أزلى (قديم) مميز عن ذاته . وليس بعلم مكتسب (محدث) بل هو عالم بذاته» «أنه

تعالى يعلم الكليات والجزئيات بعلم لايكيف ولايشبه علم البشر ، قال ابن رشد : «أن تعدد المعلومات فى العلم الأزلى ليس كتعددها فى العلم الإنسانى فهو تعدد ليس شأن العقل منا إدراكه ولذلك أصدق ماقال القوم إن للعقول حداً تقف عنده ولا تتعداه وهو العجز عن التكييف الذى فى ذلك العلم .

فان كان هذا العلم يشوبه تعدد ، فهذا التعدد لاينافى الوحدة حيث لاندرك كنهه ولا نصل إلى حقيقته - فالعقل المحض وهو ذات الإله متحقق فى كل حلقات هذا الوجود ومستولى على الكل !!

. . .

وهكذا تضاربت الأقوال حول قدرة الله وإرادة الله فقيل عن هذه مثلا ، هل هى إرادة على الحقيقة أم هى مجرد علم ؟ وهل هى إرادة حادثة أم أزلية ؟

وكذلك الحال بالنسبة لكلام الله !! ورؤية الله !! مما لايتسع له المقام هنا اكتفاء بما سبق ذكره فيما يختص بمشكلات الصفات !!

وهذا كله يبين صدق ماذهبنا إليه وأتفق عليه جميع الباحثون فى الأديان وهو الاقرار بحيرة العقول تجاه المسائل الإلهية فليس بغريب قط أن يكون الأمر كذلك بالنسبة « لسر التثليث » !!

الفصل الرابع
خلاصة الاعتراضات والرد عليها

« من المؤكد ونحن بصدد محاولة ادراك الحق الإلهى المعلن لنا عن الله تعالى أن تقوم شتى الاعتراضات التى تستوجب الرد وخاصة فيما يدور حول هذا السر الفائق . »

لاشك أن العقيدة المسيحية ليست كغيرها فيكون الوصول إليها سهلا بلا مشقه لأنه فضلا عن كونها فى الواقع بلا شبيه بين العقائد فانها تستلزم من كل مسيحى أن يكون عالماً بدينه حتى يستطيع البحث فى التثليث وغيره من الأسرار . ولذلك لم يعدم جيل من الأجيال من المتعرضين على سر الثالوث الأقدس .

ولقد أجمع الرأى فيما مضى على التسليم بالعقائد الدينية بلا استدلال بحسب قانون الكريدو (أى التصديق) لأن بعض الاشياء لايمكن أن تفهم إلا بعد الإيمان بها » . وهناك أشياء أخرى لايصل إليها العقل بتاتا ويجب أن نقبلها بالإيمان . ولذلك قال جريجورى الكبير : « لاقيمة فى إيمان يعتمد على العقل فى برهانه » كما قال القديس اغسطينوس : « أنى أؤمن بهذا لانه محال » ويقصد بذلك قبول الإيمان لما هو فوق العقل بدون بحث جدلى .

ومع ذلك فقد ترك آباء المسيحية ذلك التسليم بلاقيدمن برهان أودليل وشرعوا فى محاولة إثبات عقائدهم وأحكامهم الدينية وإن كانت بالطبع فوق العقل ، وسموها على الإدراك هو مافات الذين يجهلون تلك العقائد أو يمتنعون عن البحث فيها فى حدود الإعلانات الإلهية التى أعطانا إياها الله عن ذاته العلية .

وواضح أن جميع ماورد فى التوراة والانجيل يمكن للعقل إدراكه إلا ماجاء عن الله تعالى وعن الآخرة والارواح . فهذه لايتطرق اليها البحث لأنها فوق العقل ، ونحن لا ننبذها ظهريا لكوننا لانقدر أن نفهمها — فهو تعالى فوق إدراك العقول والحواس والخيال بما لايقاس لأنه سبحانه غير محدود .

ومن ثم فاننا سنتناول هنا الاعتراضات على الثالوث ونرد عليها بطريقة كتابية منطقية رداً قاطعاً فى شتى نواحيها كل منها على حدته .

(١)

الاعتراض الأول : كيف تتفق عقيدة الأقانيم وهى نفوذ إلى قدس أسرار الله مع الاعتقاد بأنه تعالى فوق الادراك !؟

الرد : إننا رغم إيماننا بالأقانيم لاندعى النفوذ إلى قدس أسراره تعالى . حاشا . لاننا نقول أن الله فى حقيقة كنه ذاته سر مستغلق دائما أبدا على الخلائق بأسرها إذ يستحيل على الإدراك المحدود الإحاطة بالجوهر الإلهى وهو غير محدود !! وإلا لما بقى الله جل جلاله الهاً بالمعنى الحقيقى ! وذلك لأن كنه الله أى حقيقة ماهيته وجوهر كيانه لاقدرة لمخلوق بالطبع على فحصه أو ادراك شىء عنه فلا يصح لنا أن نتطاول إلى ذلك إذ أن قدرتنا محدودة والله منزه عن الحدود . فيكفينا إذن الإيمان بما أعلنه لنا تعالى والوقوف عند هذا الحد . . وقد أعلن لنا سبحانه وجود هذه الأقانيم فى ذاته الواحدة ، وهو يمتحن طاعة عقولنا فى قبول الإيمـــان بها لكونها تفوق الإدراك !!

فهذه العقيدة باتفاق عام تفوق المدارك ولهذا السبب ارتأى البعض بانها تضاد العقل ولكن جمهوراً كبيراً جداً لم يروا ذلك ، بل فهموا أن المسيحية لم تصرح بأن التثليث عقيدة فوق الإدراك إلا لما تعتقده من عدم مناقضته للتوحيد !! وما كنا لنعرف عن هذا السر شيئا من تلقاء انفسنا لولا أنه جاءنا باعلان سماوى فى كتاب الله إذ أننا لا نحيط به إدراكا لأنه يفوق عقولنا . وقد شهد لذلك أحد الفلاسفة فقال : « إن هناك أموراً تعجز العقول عن معرفتها ونحن نرجع فيها إلى الوحى ، لأن كل ماعجز عنه العقل أفاده الله للإنسان عن طريق الوحى »

وقد أقر المعترضون بعجز العقول عن إدراك الالهيات واضطروا إلى مخاطبة الله بالقول : « إننا لم نعرفك حق المعرفة » وهذا يلزمهم بموافقة أهل الكتاب فـــيما لم يؤمروا فيه بشىء . وابن رشد يقول : « إن الحق لايضاد الحق بل يوافقه ويشهد له

والحق لا يتجزأ ».

(٢)

الاعتراض الثانى : أليس الاعتقاد بالاقانيم متعارض مع العقل إذ يقف العقل منه موقف الحيرة والارتباك ! ؟

الرد : الواقع أن القول بتعارض الاعتقاد بالاقانيم مع العقل لايصح الاخذ به لأنه لايتعارض مع العقل بل هو يفوقه ، وذلك رغم ادعاء البعض بأن هذا الاعتقاد محال لانه ضد العقل والبرهان وذلك لكون المتمسكين به يلتزمون أن يطرحوا جانباً أحكام عقولهم قبل أن يسلموا به لانه يستلزم واحد من أمرين إما أن الثلاثة تساوى الواحد وهو ضد الفهم العام وإما وجود آلهة متعددة وهو ضد نور الطبيعة والوحى نفسه لانهما يشهدان بوجود إله واحد . ومن ثم فقد وجدوا تناقضا فى هذه العقيدة لانها تجعل الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة فتخالف الضرورة البديهية أن الكل أعظم من جزءه .

ولكن مع أن العقل استطاع أن يفهم بعض نواميس الطبيعة لكن هيهات له أن يحكم فى خالقه محاولا تفهمه . وإلا هلم نمتحن طاقة العقل لا فى حقيقة ماهية الذات الإلهية بل فقط فى شيء من متعلقاتها الاخرى كمكان وزمان وجود الله مثلا لنرى مدى قدرة العقل البشرى فى هذا المضمار !؟ أما عن مكان وجوده فكيف يمكن للعقل أن يفهم أنه تعالى يحوى كل مكان ولايحويه مكان ! ؟ بل كيف يحل تعالى فى كل الاماكن فى وقت واحد حلولا غير مدرك ولامقيد . . وكيف أنه تعالى موجود داخل الكون كما أنه موجود خارج الكون وجوداً لامتناهيا بلاحصر ولاحد . . فهو سبحانه يملأ كل الاشياء دون أن يسعه شيء ويحل فى كل الاماكن دون أن يحصره مكان . . فذاك حلول فائق لانتطاول إلى معرفته بعقولنا القاصرة ويكفى أن نعلم بشأنه بأن الطبيعة الإلهية تخترق كل شيء دون اختلاط بالاشياء ودون أن يخترقها شيء منها وبغير أن تأخذ مكان الاشياء ! ! وأما من جهة الزمان فكيف ينطلق العقل إلى الازل السحيق ثم يسير نحو الابد المديد وليس حد فى الماضى ولا نهاية فى الآتى لسر مديته ! ؟

ومن ثم فقد ضل السبيل كل من حاول بعقله أن يحيط بهذا السر الإلهى ، ولذلك فقد جدف على الله شهود يهوه حين حاولوا اقتحام هذا السر العظيم الفائق بعقولهم القاصرة فخسروا بذلك نفوسهم إذ ضاع منهم أساس الإيمان الأقدس الذى تسلمناه ! ؟

(٣)

الاعتراض الثالث : مادام التثليث فى الذات الواحدة أمر لا يدركه العقل فكيف نؤمن به ! ؟

الرد : لاشك إن استعمال العقل ضرورى ولكن فى طريق الخضوع لما أعلنه الوحى لأنه لايخفى أن عقول البشر محدودة وهى عاجزة عن إدراك حقيقة الماديات ومحجوبة عن معرفة جواهر الروحانيات .. فهى لاتدرك من الماديات المحسوسة إلا صفاتها وخواصها ولكنها تجهل حقيقة جواهرها وذواتها قطعا. ومثال ذلك: أننا نعلم يقينا بأن الكهرباء موجودة ونشاهد ما ينبعث عنها من القوات المدهشة والأعمال الكبيرة كجر الأثقال والإضاءة .. الخ مع انها إلى الآن وأظن إلى الأبد أيضا لم تصل ولن تصل عقول علمائها انفسهم إلى معرفة جوهرها وحقيقتها، وكل ماهنالك أنهم يعرفون صفاتها وخواصها . . وكذلك الذرات الاشعاعية التى تتكون منها الأشياء المادية وهى غير مرئية بل ومتحركة بينما تبدو للحواس فى تلك الاشياء ثابتة . . ولقد اثبتت الخبرة العلمية أن كرتنا الأرضية بأسرها متحركة حركة سريعة حول نفسها وحول الشمس مع أن حواسك تراها ثابتة. فالسكون الذى تراه فى الأشياء إذن هو سكون ظاهرى فقط اقتضاه قصور الحواس الذى ليس بمقدوره أن يظهر حقيقة الأشياء .

كيف إذن يعرف الخالق غير المحدود مخلوق محدود وهو جاهل بكل ماذكر بل وبذات نفسه وكيفية وجودها وسر حياتها فى جسمة المتحرك والساكن بارادتها . فانا لايمكننى مثلا أن أدرك كيف أن بعض أعضاء جسدى أحركها واسكنها بارادتى كاليدين والرجلين واللسان بينما البعض الآخر يتحرك بدون إرادة العقل بل يستمر على تأدية وظيفته عندما يكون العقل مستغرقا فى النوم — اننى لااستطيع أن أعلل

ذلك — كذلك لاأستطيع أن ادرك كيفية اتحاد الروح بالجسد . . ونحن أيضا لانعلم سر القوة التى يخفق بها القلب ولاحركة دورة الدم بلاإرادة منا — كما أننا نجهل أكثر الوظائف العضوية ونظاماتها . . فاذن لم تصل ولن تصل عقولنا إلى فهم كنه حياتنا !! وإذن فلن نقدر أن ندرك حقائق الروحانيات قطعا !! وحيث ثبت عجزنا عن تصور حقائق الماديات المشهودة لنا والروحانيات القائمة فينا فلاشك إننا عن معرفة ذات الخالق تعالى أعجز !! لذلك لم يكن من المنتظر أن ندرك كيفية وجود الاقانيم الثلاثة فى الذات الواحدة !!

(٤)

الاعتراض الرابع : كيف تتفق الأقانيم مع الوحدانية والتثليث مع التوحيد وبينهما فرق بعيد يستلزم اجتماع الضدين وهو محال!؟

الرد : لما كان التثليث والتوحيد حقيقتين عند المسيحيين فاذا وجد التثليث الحقيقى كان لابد من وجود الكثرة الحقيقية ولايمكن بعد ثبوتها ثبوت التوحيد الحقيقى وإلا يلزم اجتماع الضدين الحقيقيين !! فكيف يوحد المسيحيون وهم يثلثون والتثليث أمر مضاد للتوحيد !؟ فماذا نقول إزاء ذلك !؟

إننا نقول بأننا نعتقد بذلك طبق ماصرح لنا الله به فى إعلانات كتابه المقدس التى فهمنا منها بأنه تعالى ذات واحدة لاتتعدد ولاتتجزأ ولاتتكاثر قائمة دائما أبداً فى ثلاثة أقانيم — وهذه الذات الواحدة هى جوهر واحد لايقبل الانقسام ولاالتفريق وليس فى ذلك ماهو مستحيل ولا ماهو مضاد للعقل لأننا لا نقول أن الله ثلاثة جواهر بل ثلاثه أقانيم فى جوهر واحد ، ففيه توحيد فى الجوهر وتثليث فى الأقانيم والاقنوم غير الجوهر ، فهو تعالى ثلاثة باعتبار ولكنه واحد باعتبار آخر ، ولذلك فاننا نؤمن بأن وحدانية الله هى من ناحية غير الناحية التى نعتقد فيها أنه تعالى ثلاثة أقانيم : وهكذا يجمع إيماننا بين التثليث والتوحيد !

فان قيل كيف يجتمعان وهما متناقضان قلنا أن هذا اعتراض يجوز إذا طبقناه من ناحية البشر أما الله فلا ينطبق عليه الحكم الذى يسرى على خلائقه وهذا ظاهر

فى جميع الأشياء العديدة التى تختص به تعالى وهى تفوق إدراك البشر !

قال صاحب اليواقيت : « التعدد الإعتبارى لايقدح فى الوحدة الحقيقية كفروع الشجرة بالنسبة لأصلها أو الأصابع بالنسبة إلى الكف »

وقال صاحب المواقف : « لايجوز اجتماع الوحدة مع الكثرة فى شىء واحد من جهة واحدة » ومعنى ذلك يجوز اجتماعهما معا فى الشىء الواحد من جهتين مختلفتين . وقال الشيخ الجيلى : « شمل بوحدانيته جمع الأعداد وأحديته هى عين الكثرة المتنوعة ولذلك لم يجد أهل التوحيد أنفسهم غضاضة فى الاعتراف بكثرة صفاته تعالى فيما يسمونه « بمجموع الصفات الحسنة » فى الذات الواحدة ، فلماذا يرفضون التسليم بالأقانيم بزعم أنها تناقض وحدانية الجوهر الإلهى !؟ فلا محل للقول بأن وجود الأقانيم الثلاثة يناقض وحدانية الجوهر ، ومن ثم فان وحدانية الجوهر الإلهى لاتنفى وجود الثلاثة أقانيم فيه ، وكذلك وجود الثلاثة الأقانيم فى الجوهر الالهى لايتنافى مع وحدانية ذلك الجوهر ! ؟

(٥)

الاعتراض الخامس : كيف أمكن أن يكون فى الجوهر الواحد ثلاثة أقانيم وهذا أمر لاشبيه له ولا مثيل !؟

الرد : نحن لانقول إن الله ثلاثة جواهر بل ثلاثة أقانيم فى جوهر واحد ففيه وحدة فى الجوهر وتعدد فى الأقانيم ، والأقنوم غير الجوهر فلو كان كلامنا أن الثلاثة أقانيم هم أقنوم واحد لكان ذلك محالا إذ هو مضاد للعقل والبديهة ، ولو قلنا أن الله ثلاثة جواهر والثلاثة هم جوهر واحد لكان ذلك محالا أيضا . أما ما نقوله ومانؤمن به فهو أن الله ثلاثة باعتبار وواحد باعتبار آخر ولا مناقضة فى ذلك - فنحن لا نعنى أنه ثلاثة بنفس المعنى الذى هو فيه واحد بل نعنى أنه ثلاثة بمعنى ما وواحد بمعنى آخر ثلاثة فى الأقنومية وواحد فى الجوهر .

فان قيل كيف يمكن أن يكون الله ثلاثة أقانيم ولا يكون ثلاثة جواهر أو ثلاث ذوات ، قلنا أنه ليس لله مثيل فى الخلق — لأن الذات الإلهية مغايرة لسائر الذوات بالنظر إلى البون العظيم الغير المحدود بينها وبين بقية الخلائق — فانه

لو كانت الذات الإلهية محدودة كالبشر والملائكة لأمكن للعقل البشرى أن يعلل عنها أو يحكم باستحالة تعدد الأقانيم فيها ولكن بما أن عقولنا لم تخلق لتحكم فى ذات الله أو لتدرك الجوهر الإلهى وأقانيمه ، فلاحق لها أن تحكم بأن وجود الثلاثة أقانيم فى الجوهر الواحد أمر محال فتلك دعوى بلا برهان إذ أين الدليل على صحتها ، وليس فى الكون كله كائن آخر نظير الله فى الذات والصفات، فاذا كانت صفاته تعالى غيرها فى خلائقه التى فيهم مايشبهها ، فهل يستحيل أن يغايرهم فى مسألة الأقنومية !؟ وهل فى مقدور عقولنا أن تدرك جوهر وأقانيم الله والنسبة الكائنة بين ذلك الجوهر وأقانيمه ادراكا تاما حتى يمكنها أن تحكم باستحالة ذلك !؟ ومن ثم لايسوغ لنا أن نتخذ عقولنا القاصرة مقياسا للحكم فى الإلهيات فانها لم تخلق قياسا للممكن وغير الممكن فيما يختص بالله تعالى !

ولذلك قيل : « وما طلب الحق تعالى منا إلا العلم بوجوده والوهيته لاغير أما الحقيقة فلا ، فان العبد إذا عجز عن معرفة كنه نفسه ، فعن معرفة كنه الحق تعالى من باب أولى أعجز . »

إذاً فوصفنا الله بأنه ثلاثة أقانيم فى جوهر واحد ولو خالف كل مثيل فى الخلق فلا يخالف ماينتظره العقل السليم فى ذات الإله الذى لامثيل له ، لأنه لما كان الله فريداً فى الكون فى طبيعته وصفاته ، كان غير بعيد أن يمتاز عن كل ماسواه فى كيفية وجوده كما يمتاز فى صفاته السامية »

ولقد قيل عن صفاته وهى قديمة بقدم ذاته أنها ليست أغياراً للذات تتحد بها ، وإنما هى واحدية بواحدية الذات وإن تغايرت بالقوى والاعتبارات وذلك حتى لايجب أن يكون فى الأزل قديمان الذات وغير الذات .

فلماذا لاتكون الاقانيم وهى كذلك قديمة قدم ذاته متحدة بالذات وواحدة بواحديتها وإن تميز إحدها عن الآخر — وذلك يوجب طبعا أن تكون وحدانيته تعالى من نوع فريد لانظير له فى الوجود وهذه هى الوحدانية المقنمة .

(٦)

الاعتراض السادس : إذا كان الله جوهرا واحدا يستحيل أن يكون ثلاثة لأنه من المستحيل وجود الوحدة بين الأقانيم لوجود المغايرة بينهم لأن ذلك يكون خلاف المعهود !؟

الرد : أما عن وجود المغايرة بين الأقانيم فى وحدة الجوهر فلا تناقض فيه لأننا نرى فى كل كيان عضوى الجوهر يعمل فى كل عضو عملا خاصا ومع ذلك ينسب ذلك العمل الذى أتاه ذلك العضو إلى الجوهر كله . فاذا كانت عينى ترى فأنا كلى أرى أما أذنى فلا ترى . ومع هذا فلا يصح القول بانى أرى ولا أرى فى آن واحد بل يصح القول بأنى أرى بعينى ولا أرى بأذنى ! كذلك لكل اقنوم عمل متميز ولكن الجوهر الواحد هو الذى يعمل فى الأقانيم ، فاذا صح أن للجسم العضوى المحدود وحدة حقيقية واعضاءه تحيا فى بعضها وفى ذاتها العامة وإذا صدق هذا فكم بالحرى الإله غير المحدود إذ اجتمعت فيه الوحدة العامة والمغايرة الخاصة !؟

ووجود الوحدة والمغايرة ليس مستحيلا لأن الوحدة هى فى الجوهر أما المغايرة فهى فى الأقنومية — نعم إن كل أقنوم من الثلاثة هو غير الأقنومين الآخرين ولكن ذلك ليس فى الجوهر لأن الجوهر واحد للثلاثة أقانيم صحيح إن كيفية ذلك هى فوق إدراكنا ولكن ذلك لا يجعلنا أن نرفضها أو نحكم بعدم امكانيتها لانه هل يسوغ لنا أن نحكم بعدم وجود وحدة بين الأقانيم لوجود مغايرة بينهم فى الاقنومية ، مع أنه ليس فى مقدورنا إدراك ذات الاقانيم ولا الجوهر الواحد الذى لهم . فهذا بحث فى كنه القائم بالذات وهو مما يقر المعترض نفسه بعدم جوازه . فكيف به يحكم بانه مستحيل أن يكون جوهراً واحداً ويكون ثلاثة أقانيم أو أن وجود وحدة بين الاقانيم مع وجود مغايرة بينهم محال !؟

ومن ثم فان وحدانية الاقانيم فى اللاهوت مسألة وإن وقعت أطرافها تحت متناول افهامنا فهى بلبها وكلياتها اللامدركة تبقى سراً غامضاً تقف العقول مهما سمت وعلت جامدة حيرى عاجزة إزاءها ، قاصرة عن البلوغ إلى إدراك كنهها ، إذ كيف

يتسنى للانسان المتناهى أن يفقه أسرار اللاهوت اللامتناهى !؟ ولذلك قيل : « إن المتكلم فى ذات الله صامت والناظر باهت عز أن تدركه العقول وجل أن تجول فيه الأفهام لا يتعلق بكنهة حديث العلم ولا قديمة » .

وعليه ينتفى قول المعترض كيف يكون هناك ثلاثة أقانيم فى جوهر واحد !؟ وكيف تقبل ذلك وأنت لا تفهه !؟ لأن المعترض نفسه لا يستطيع أن يوضح لنا جوهر ومقر روحه وعقله ولا كيف يؤثران أو يحكمان جسمه !؟ ثم هو يؤمن بقيامة الموتى دون أن يستطيع توضيح امكانية ذلك ! وهكذا لديه الكثير مما يؤمن به بدون أن يتمكن من فهمه أو توضيحه !

وإن كان الإنسان غير ملزم أن يقبل ما يراه العقل مستحيلا ولكن كثيرين من الناس متى سمعوا أمرا مخالفا لما استقر فى أذهانهم أو ورثوه عن أسلافهم أو قبلوه من مرشديهم حسبوه مستحيلا وازدروا به قبل أن يستوعبوا مضمونه مع أنه قد يكون هو الحق بعينه. وقد يضع بعض الناس قواعد منطقية ويحسبون كل ما لا ينطبق عليها مستحيلا أو مغلوطا أو ضد العقل ، والحال أن تلك القواعد نفسها ليست مضبوطه ولا عامة والقياس عليها غير صحيح : وتاريخ العالم مملوء من الشواهد على أمور حسبها الناس فى زمن ما مستحيلة ثم عادوا فاعتقدوا بانها ممكنة . فالعاقل لا يجعل فهمه أو ميله الموروث مقياس الممكن والمستحيل لأن ذلك محض جهالة نظير من يجعل أفق نظره حد الفضاء الغير المحدود . وقد وضع بعضهم تعريف للمستحيل وهو أن يقول باستحالته عموم البشر وإلا وقع فيه الشك طبعاً . .

أما عن القول بأن ذلك خلاف المعهود فقد سبق لنا أن اثبتنا بأنه إذا قام الدليل على صحة الشيء فإنه لا يبطل إذا لم يكن له نظير من المعهود وإلا لزم على المعترض أن يثبت شيئا ليس فى زمان ولا فى مكان ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء لأن هذا كله خلاف المعهود . فإن وجب أن يثبت الشيء إذا دل عليه الدليل من غير أن وجد له نظير صـــح وصف الله عز وجل باشياء يخالف جميعها المعهود . وبذلك يبطل الاعتراض على استحالة وجود الوحدة بين الأقانيم لوجود المغايرة بينهم لكون ذلك

خلاف المعهود لأن هذا الأمر يدخل ضمن سائر الأشياء التى يصح وصفه تعالى بها بخلاف المعهود !؟

(٧)

الاعتراض السابع : لماذا كان الله ثلاثة أقانيم مع أنه جوهر واحد ؟ ولماذا لم يعلن عن ذلك صراحة فى التوراة منذ البداية !؟

الرد : أما لماذا كان الله ثلاثة أقانيم فهذا سؤال لا يسأله عاقل لأننا لا نعرف علل الأشياء جميعاً وخاصة ما كان منها فوق الطبيعة فكيف نتطاول إلى البحث فى كنه ذات الله !؟ والمعترض نفسه يقرر بأنه لا يدرك كنهه سواه .

ويكفى أن نقرر فى هذا الشأن إن العدد ٣ هو أول عدد فردى جامع وهناك اعتقاد عام بأنه هو أول الأعداد الفردية لأن الواحد ليس بعدد بل هو أصل الأعداد وفى الامثال « الحبل المثلوث لا ينقطع » و « كل شىء بالثالوث يكمل » و « المرة الثالثة ثابتة » ويعتبر هذا العدد باركة مسجلة فى الكون طبعها الله فى شتى النواحى لتدل عليه تعالى من ناحية ثالوثه : فالابعاد ثلاثة ، والزمن ثلاثة ، وصور المادة ثلاثة ، والألوان الرئيسية ثلاثة ، وعمالك العالم ثلاثة ، والانسان ثلاثى التكوين ، وبجانب شهادة الطبيعة تقف الأديان نفس الموقف من ناحية هذا العدد .

والغرض من ذكر ذلك هو الاستدلال به على أنه إذ قد أعلن الوحى أن الاقانيم ثلاثة لما جاز الاعتراض على الاطلاق لان هذه الحقيقة تكون متفقة مع الواقع المعروف .

ولذلك كانت أول صورة تعينت فيها الذات الالهية ثلاثية لان التعين كان فى صورة العلم حيث العلم والعالم والمعلوم حقيقة واحدة . كما أن أول حضرة الهية كانت ثلاثية لأنها حضرة الذات الالهية المتصفة بجميع الاسماء والصفات . وفضلا عن ذلك فان عملية الخلق نفسها هى ثلاثية لانها تقتضى وجود الذات الالهية والارادة والقول « كن » ولذلك انشد ابن العربى قائلا :

تثليث محبوبى وقد كان واحداً كما صير الاقنام بالذات اقنما

ولقد قصد بذلك أن الله كان يظهر ذاته دائما أبدا فى ثالوث – وهذا بعينه ماأنشد عنه بوضوح اليازجى حين قال :

للآب لاهوب ابنه وكذا ابنه وكذا هما والروح تحت تفنم

. . .

أما لماذا لم يعلن الله « التثليث » صراحة فى التوراة منذ البداية فإن جواب ذلك هو أن معاملات الله المتعلقة بتجسد المسيح وإرسال الروح القدس لم يكن قد جاء وقتها بعد واكتفت حكمة الله بأن تضع فى اليهودية إشارات ورموز إلى التثليث لأنه فى ذلك العصر المبكر لم يكونوا ليقووا على قبول إعلانات الوحى الكاملة الخاصة بالثالوث الأقدس ، وكانت هذة تلتبس عليهم بسبب تعدد الآلهة الوثنية من حولهم فاكتفى الله حينئذ بالتلميح ، مستخدما التدرج فى الاعلان إلى أن ينضج الوعى البشرى فيقبل نور الوحى الكامل ويهتدى به إلى الحق الالهى الصريح .

ومن ثم لم يعلن الله عن « أقانيمه » حينئذ لضعف عقول بنى إسرائيل وميلهم إلى عبادة « المخلوقين » ، حتى انه تعالى أخفى عنهم ذكر خلق الملائكة ومراتبهم فى البداية لئلا حين يسمعوا القول : « لنخلق إنسانا على صورتنا » ، وأيضا « هوذا الانسان قد صار كواحد منا » ، يظنوا أنه تعالى قال هذه الأقوال للملائكة ويجعلونهم خالقين معه ويعبدونهم على هذا الاعتبار ، وكانوا تبعا لذلك ينكرون لاهوت أبنه وروحه عند ظهور سرهما . »

تم الكتاب بمعونته تعالى

فهرس

	صفحة
ايماننا الاقدس	٨٢
تمهيد	٨٣
الفصل الاول : العقيدة الجوهرية العظمى	٨٤
الفصل الثانى : سر الاسرار القدسى	٩١
الفصل الثالث : حيرة العقول تجاه المسائل الالهية	٩٩
الفصل الرابع : خلاصة الاعتراضات والردعليها	١١٣

الباب الرابع

وحدة الاقانيم الثلاثة

بيان وجود الأقانيم ووحدانية جوهرهم

بقلم

القس صموئيل مشرقي

راعى كنيسة الله الخمسينية

بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ديسمبر سنة ١٩٦٣

يطلب من المؤلف ٨ شارع أحمد باشا كال بجزيرة بدران ومن المكتبات المسيحية

إيمـــاننا الأقدس

« نؤمن بأن الله الواحد بغير تجزئة أو امتزاج أو تركيب مثلث الأقانيم آب وابن وروح قدس فى جوهر واحد غير منقسم وذات واحدة منزهة عن الأعراض، وأن أقانيمه تعالى متميزة فى الوظائف والأعمال ولـكن بغير تفرد أو استقلال ».

الفصل الأول

وجـــود الأقانيم

(١)

إعلان الوحى عن وجود أقانيم

«ليس إيماننا بالأقانيم تعليما بشريا بل هو
إعلان الوحى الكريم عن الله الإله العظيم.»

نؤمن بأن الله — تبارك اسمه — ذو جوهر واحد وأقانيم ثلاث. وهذا الإيمان قد تقلدناه من الكتاب المقدس وكشفت لنا عنه اعلانات الوحى الإلهى المعصوم فى نصوص كتبها كتبة الوحى الملهمون، وبها نجابه أولئك الذين بينما يزعمون التمسك بهذه النصوص نراهم قد خرجوا عليها فضلوا عن الإيمان القويم ولما تعثروا فى وادى التيه زعموا بأنه من المستحيل أن يفهم أحد شيئاً صحيحا عن الأقانيم.

* * *

أما تلك النصوص فأولها تسجيل خلق البارى الأكوان وقد جاء فى أول عبارة سطرها الوحى بقوله: «فى البدء خلق الله (الوهيم) السموات والأرض» (تك ١: ١) ولفظة «الوهيم» هذه اسم جمع فى اللغة العبرية معناه «الآلهة» وهى تدل على وجود أقانيم ولولا ذلك لما وردت عن اسمه تعالى حتى لا يتخذ البشر كونها بصيغة الجمع ذريعة للاعتقاد بتعدد الآلهة. كما أن اللغة العبرية قد خلت من صيغة التعظيم التى يحاول البعض أن يعلل بها صيغة الجمع فى اسم «الوهيم».

* * *

ولما شاء الله أن يخلق الإنسان قال بصيغة الجمع أيضا: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك ١: ٢٦) وهنا نجد فعل الجمع وكذلك ضمائر الجمع، بل فى لفظتى «صورتنا وشبهنا» نشاهد الجمع والمفرد معا مما يدل على أن للأقانيم درجة واحدة ووحدة فى الجوهر: فهذا القول لم يقله للملائكة كما ظن البعض لأنها لا تشارك الله الإبداع وهى من إبداعه، ويلحق بما سبق قول الوحى: «فخلق الله الإنسان

على صورته » (ع٢٧) ويتضح منه أن الله وحده مبدع الإنسان ، فابتغاء أن يغرس فيه علم اللاهوت تكلم بصيغة الجمع هذه ليبين بها أن اللاهوت ليس اقنوما واحدا.

وقد تلا ذلك كلمات أخرى زادت المعنى وضوحا والعقيدة بالأقانيم رسوخا كقوله : « هوذا الإنسان قد صار كواحد منا » (تك٣:٢٢) فهذا القول يدل بوضوح على وجود أقانيم فى الجوهر الواحد، وقد حار علماء اليهود فيه فقالوا أن الله كلم بهذه العبارة مجمع الملائكة ، ولكن سكوت الوحى عن ذكر خلق الملائكة فى سفر التكوين ينقض ذلك ، كما أن قول أشعياء «من مشيره يعلمه» (٤٠:١٣) يقوض قولهم هذا من أركانه . واذن فهذا التعبير يؤكد وجود الأقانيم فإنه لا يحتمل إلا معنى واحد وهو أن المتكلم هو أحد الأقانيم ويخاطب غيره من مساوى جوهره، وإلا فكيف أمكن أن يكتبه موسى إذا كان الله فردا أحدا بغير أقانيم ! ؟

* * *

وقد وردت بعد ذلك الكلمة القائلة . « هلم ننزل ونبلبل لسانهم » (تك١١:٧) ففى قوله « هلم » ومعناها « هيا بنا » ما يدل على حدوث تداول بين أقانيمه تعالى ، كما أن النون فى الفعلين « ننزل ونبلبل » تدل على جمع فى الذات الأحدية . وليس من المعقول أن تكون هذه الكلمة مقوله للملائكة لأن لفظة نبلبل تقديرها نبدع لغات مختلفة وهى علم كلمات غير متناهية والملائكة ليسوا مبدعين كما أنهم محدودون!

وأيضا عند إحراق سدوم وعمورة جاء القول : « فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء » (تك ١٩ : ٢٤) فهنا المتكلم وهو « الرب » أمطر كبريتا ونارا من عند آخر يدعى أيضا « الرب » ، وهذا يدل قطعا على أنه تعالى وهو رب واحد ليس باقنوم واحد ! !

* * *

هذا و قد تجلت الاقنومية فى أقوال الآباء والأنبياء بحسب النصوص العبرية فجاء بلسان ابراهيم الخليل القول : « وحدث لما اتاهتنى الآلهة (الوهيم) » (تك ٢٠ : ١٣) . وقيل عن يعقوب : « لأنه هناك ظهروا له (الوهيم) الآلهة »

(تك ٣٥ : ٧) . وجاء فى الاعتراف العظيم الذى وجهه موسى الكليم لأمته قوله: « اسمع يا اسرائيل الرب (الوهيمنا) أى آلهتنا رب واحد، فتحب الرب (الوهيمك) أى آلهتك . . (تث٦:٤و٥) وأيضا : لأن الرب إلهكم هو الله الآلهة، (تث١٠:١٧) فلا غرابة أن وصف يشوع خليفة موسى الله تعالى بأنه « الوهيم قدوشيم » أى « آلهة قدوسين » (٢٤ : ٩) ووصفه داود بأنه « آلهة (الوهيم) قضاة »(مز٥٨:١١) وسليمان قال عنه أن « معرفة القدوشيم أى » القدوسين « فهم » (أم٩:١٠) وأيضا «أذكر خالقيك» (جا ١٢:١) وكذلك قال اشعياء : « بعولك هم صانعوك »(٥٤:٥) وأيضا جاء فى ملاخى : « إن كنا سادة » (١ : ٦)

فهذه الشواهد كلها قد وردت بصيغة الجمع فى اللغة الأصلية !! ولقد حسب بعض الثقاة لفظة « الوهيم » وهى اسم الله بصيغة الجمع كما سبقت الاشارة فوجدوا أنها وردت حوالى ٢٥٠٠ مرة بينما جاءت لفظة « يهوه » وهى بصيغة المفرد نحو ٥٠ مرة — فان كان ذلك لا يدل على وجود أقانيم فى وحدانية الله فليس بمقدور أحد أن يفسر لنا معناه ؟!

. . .

وهكذا فهم العبرانيون وجود تعدد فى وحدة اللاهوت من استعمال الوحى لصيغة إسم الجمع وضمير الجمع وفعل الجمع تمهيداً لاستكمال إعلانات الوحى الخاصة بالثالوث الأقدس عن طريق التجسد الذى كان أمرا لا بد منه لأجل اتصاله التام بنا فى سبيل معرفتنا به تعالى !! وقد ظهر اكتمال هذه الاعلانات فى تصريحات العهد الجديدالتى وضحت لنا ماكانت تشير إليه تلميحاتالعهد القديم !! وقد استخدم الله فى ذلك طريقة التدرج فى الاعلان إلى أن نضج الوعى البشرى فاستطاع قبول نور الوحى الكامل الخاص بالثالوث الأقدس وذلك عند تجسد المسيح وإرسال الروح القدس !!

(٢)

الأدلة على وجود ثلاثة أقانيم

«ليس فى الله تعالى بحسب إعلانات وحيه سوى ثلاثة أقانيم فقط : آب وابن وروح قدس»

لقد ثبت تعدد الأقانيم فى اللاهوت ؛ ولما كان لا بد للذات الالهية من جوهر وكلمة وحياة عرفنا من ذلك أن عدد أقانيمها ثلاثة ، ولذلك أطلقنا اسم الثالوث على الله وثبت ملاءمته لجلاله تعالى لأنه يدل على هذا العدد المعين من الأقانيم ، فاسم الثالوث إذاً باعتبار معناه الخاص بالله يدل على عدد أقانيمه تعالى دون تعدد فى الذات .

وقد ورد من الآيات الكتابية ما يحقق ذلك مما جاء ذكره فى

«العهد القديم»

عندما سرد الوحى قصة الخلق أعلن لنا فى فاتحة الكتاب المقدس عن الله وكلمته وروحه (تك ١ : ١ — ٣) وهذا الاعلان يحققه داود النبى بقوله : «بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها» (مز ٣٣ : ٦) والكلمة هنا إذن ليست على معنى كلمة الأمر التى قالها الله تعالى عند خلق الكائنات ، بل هى ابنه المساوى له فى الجوهر الذى من أجله قال داود فى موضع آخر : «كلمتك يا رب تدوم فى السماء وإلى الأبد» ، ومن أجل الروح فى موضع آخر : «ترسل روحك فيخلقون» ، فهذا إعلان أكيد عن الأقانيم الثلاث الشريكة فى الإبداع !

* * *

وقد تعددت العبارات وتنوعت الاشارات ومع ذلك ظل اليهود عميانا فلم يستطيعوا اجتلاء معانيها وتفهم مراميها مثل ذلك ورود كلمة «إله» ثلاثا فى عبارة كان يغنى فيها ورودها مرة واحدة وذلك فى حديث المليقة حيث قال الله لموسى : «أنا إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب» (خر ٣ : ٦) فهذا «التكرار الثلاثى» للفظة «إله» إنما هو تحقيق لوجود الأقانيم الثلاثة !

وكذلك « البركة الثلاثية » الواردة فى سفر العدد ص ٦ : ٢٤ و٢٥ فانها كما هو واضح من تكرار اسم الرب فيها ثلاث مرات تؤكد حقيقة كون الله تعالى ثلاثة أقانيم وعما هو منسوب لكل منهم نتبين أنهم الآب والابن والروح القدس !

وأيضا « التقديس الثلاثى » الذى سمع أشعيا السيرافيم يسبحون به الله العظيم فيقولون قدوس ثلاثة ورب الجنود مرة (٦ : ٣) مما يحقق أن الأقانيم ثلاثة والجوهر واحد ولذلك فقد سمع اشعيا أيضا بعد ذلك مباشرة النداء الإلهى بصيغتى المفرد والجمع معا فى القول : « من أرسل ومن يذهب من أجلنا » (ع ٨).

وأما وصف « إرسالية الابن » الوارد فى سفر اشعيا (٤٨ : ١٢ - ١٦) فهو عجيب حقا نرى فيه برهانا قاطعا من العهد القديم على وجود الثلاثة أقانيم حيث نجد القول : « منذ وجوده أنا هناك والآن السيد الرب أرسلنى وروحه . » فالذى يقول عن نفسه أنا هو أنا الأول وأنا الآخر ويدى أسست الأرض ويمينى نشرت السموات ..... الخ أى الله الأزلى الأبدى الخالق ويوصف بأنه « يهوه » فى عبارة « أنا هو » قد أرسله اثنين وهما السيد الرب وروحه مما يدل تماما على أن الله مثلث الأقانيم: المرسِل وروحه والمرسَل منه ، والثلاثة أزليون متساوون لأنه لا يكون المرسِل دون المرسَل منه فى المقام كما أنه لا يمكن أن يكون أعلى منه لأنه لا يوجد كائن أعلى من الله الخالق الذى هو المرسل . إذاً يكون المرسِلان والمرسَل منهما متساويين. وبما أن الله واحد إذا لابد من أن يكون فى جوهره الواحد ثلاث أقانيم!!

وفى كتاب المزامير يأتى بثلاثة وجوه إذ يقول : « قال الرب لربى . . . . » ها أثنان ، وبعد هذا يقول : « يرسل الرب قضيب عزك » (مز ١١٠ : ١ و٢) فمن هذا يتضح أن الآب مخاطب للابن ، وأما الوجه الثالث فهو الروح القدس الذى يرسل قضيب العز ! وأما

« العهد الجديد »

فقد ظهرت فيه عقيدة التثليث بما لا يقبل التحوير ولا التأويل ، وذلك فى مواضع كثيرة منها ما تعلمناه من ربنا يسوع نفسه القائل فى يو ١٤ : ٢٣ لمن يحبه :

« إليه نأتى وعنده نصنع منزلا » ، وليس من السهل مطلقا أن نفهم معنى صيغة الجمع هنا ما لم نر فيها — بحسب نصوص الاقتباس — تصريحاً لفظياً من السيد المسيح بإتيانه هو والآب والروح المعزى للسكنى فى الأصفياء . وكذلك طلبه له المجد فى صلاته الشفاعية فى يو ١٧ : ٢٢ لأجل المؤمنين مخاطبا الآب بالقول : « ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد » ، وهذا تصريح آخر بوجود الأقانيم ! وقد شهد سائر الرسل وعلى رأسهم الثلاثة الكبار يوحنا وبطرس وبولس عن الأقانيم الثلاثة بما لا يحتاج إلى إثبات أو تفصيل هنا لشهرته وسهولة الرجوع إليه .

. . .

على أن حقيقة الثالوث تتجلى فى سماء الوحى فنصل إلى الذروة فى « عماد المسيح » فى الأردن حيث نزل الروح عليه وناداه صوت الآب ، ويسمى هذا الحادث بعيد « الظهور الإلهى » لوضوح الأقانيم الثلاثة بواسطته .

وكذلك فى دستور المعمودية ونصه : « عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (مت ٢٨ : ١٩) وهنا قد ثلث الأقانيم ووحد الاسم دلالة على تساويهم فى المجد ، ووحدتهم فى الطبيعة لكون اسم الثلاثة واحد وهو لفظة « إله » !

وأخيراً نجد ذكر الأقانيم واضحا فى « البركة الرسولية » ونصها : « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم آمين » (٢ كو ١٣ : ١٤) .

. . .

ومع كل هذا فإن الذين يزعمون أنهم شهود يهوه يحسبون الروح القدس مجرد « نسيم » أو « ريح » وينكرون أقنوميته ، والحقيقة أنهم يتنكرون لها ، لأنها إذا ثبتت ثبت معها التثليث لا محالة ، أما كونه أقنوما فذلك ثابت رغم أنوفهم فى وروده هنا مع الآب والابن ، ولا يخفى أن الآب اسم ذات ، والابن اسم ذات فلا بد أن يكون الروح القدس مثلهما اسم ذات وإلا يكون الوحى قد أخطأ فى مساواة اسم المعنى باسم الذات فى الحقوق والصفات لأنه ربط بين الأقانيم فى دستور المعمودية بواو العطف إثباتاً لوجودهم ووحدة جوهرهم !!

(٣)

الاصطلاح على لفظة « أقانيم »

« شاع استعمال لفظة « أقنوم » لسبب ما صارلها
من الأهمية الفائقة من الناحية اللاهوتيـــة ».

لا يخفى أن لغة المخلوقات قاصرة فى التعبير عن الأسرار الإلهية ، فلا عجب إذا كانت لغات الملائكة والناس تعجز عجزاً تاما عن التعبير الصحيح عن كنه جوهر الله فى ذاته وفى أقانيمه !

ومن ثم فقـد اصطلح الآباء على استعمال كلمـة « أقنوم » فى تسميـــة النالوث الأقدس لأنها وجدت مع عجزها أقوى من غيرها على التعبير عنه ، ولذلك فقد أطلقها المسيحيون منذ البداية على أقانيم اللاهوت وهى الفيصل عندهم بين ما يكون ذاتياً وما لا يكون كذلك !

وقد اختص باستعمالها مسيحيو الشرق فى سائر البلاد التى تتكلم العربية أو اللغات المتأثرة بها كالفارسية والتركية والأردية وذلك لعدم وجود لفظ فى هذه اللغات يعبر تماما عن معناها إذ لم يوجد فيها غير لفظة « شخص » وهى غير كافية فى هذا المقام لأنها وإن كانت تعنى مجموع الصفات التى تميز الفرد عن غيره وهى تطلق على هذا التميز "Distinction" وقد توصف بالخُـلـُق ولذلك يعبرعنها الفرنسيون بكلمة "Caractere" إلا أنها مع ذلك تعنى ذات منفصلة ، بينما تدل لفظة « أقنوم » على « الذات المتميزة غير المنفصلة » واذن تعريف الأقنوم بأنه « شخص » تعريف ناقص لأن حقيقة معناه هو : « الشخص المتميز عن آخر ولكنه متحد به — فهو إذن واحد ولكن بلا توحد » . فلما لم يعثر على لفظة أخرى غير لفظة « شخص » لتؤدى معنى مدلول كلمة « أقنوم » تماما لذلك فقد ترجح استعمال لفظة « أقنوم » مع كونها سريانية ، وذلك نظراً إلى ما تحمله من معنى حقيقى مناسب للتمييز بين أقانيم اللاهوت ، وبذلك قد صارت اصطلاحا يطلق على كل من الآب والابن والروح القدس ، وليس لها معادل فى اللغة العربية !!

ولقد أوردت قواميس اللغة العربية معنى للفظة « أقنوم » على أنه هو « الأصل » وذلك بسبب ظن العرب بأن « الأقانيم » بحسب تفسير الفلسفة هى « أصول الوجود » ولكنهم لما وجدوا أن مفهوم الأصل بحسب تفسير القدماء هو ما كان ثابتاً على حاله لا يحول عنه ولا ينتقل أبداً ، لذلك فقد اعترضوا على الأقانيم إذ عرفوا أن معناها « أصول ثابتة فى الذات الإلهية » .

. . .

ويشبه هذه اللفظة فى اللاتينية « أقوانيمتس » وهى فى هذه اللغة قبل استعمالها اللاهوتى تساوى فى المعنى لفظة « جوهر » ولذلك حمل بعضهم معناها إلى « النفس أو الذات » فقالوا « إن الأقنوم جوهر مفرد ذو طبيعة عامة » وأنه « ليس اسم نفى ولا اسم معنى بل اسم عين (أو ذات) يدل على طبيعة عامة مع حالة معينة من الوجود بحيث يكون قائما بنفسه متميزاً عن سواه » وهذا واضح من لفظة « مفرد » التى تدل على حال القيام بالنفس ، وهذا المعنى بلا شك ينطبق على الأقانيم الثلاثة على السواء !

فالأقنوم والقيام بالنفس يدلان على شىء واحد بعينه ولذلك سمى اليونان الجوهر المفرد به ، واستعملت لغتهم فى وصفه لفظة « ايبستزى » وهى التى نقلت إلى الإنجليزية "Hypostasis" ومعناها « الشخص الذى يوجد بوجه مخصوص فى جنس الجوهر أو الفرد القائم بنفسه فيه » . وهو قائم بنفسه باعتبار وجوده بنفسه لا فى غيره ، ونظراً لقيامة هذا فى نفس الجوهر ، لذلك يقال له ذو طبيعة عامة هى طبيعة الجوهر وهى عامة لأنها مشتركة للثلاثة أقانيم !

فالايبستزى عند اليونان يدل على أى شخص من أشخاص الجوهر الواحد إلا أنه لما كان اسم الجوهر مشتركا عندهم لدلالته تارة على الذات وتارة على الأقنوم فسداً لمجال الخطأ آثروا تفسير الايبستزى بالقيام بالنفس لا بالجوهر ، وقصدوا به « عين خاص » فى الجوهر أى « موجود حقيقى يتميز بخاصية ينفرد بها دون الآخر » مع وحدة الجوهر ، وهذه الخواص ثلاث هى الأبوة والبنوة والانبثاق وهى صفات ذاتية ثبوتية لا بد منها للاهوت كأساس للتمييز بين الأقانيم .

وحدث قبل اشتهار دلالة هذا الاسم عند اللاتين إن كان المبتدعون يخدعون به السذج ليقولوا بذوات متعددة لأن اسم الجوهر الذي يعبر عنه في اليونانية بالايبستزى يطلق عندنا في العرف العام على الذات ، فصار يلائم الله بحسب دلالته على الوجود بالذات وذاته تعالى واحدة ، وأما مطلق الأقنوم فيدل على جوهر مفرد مميز بخاصية ، فهو قائم بالذات متميز بنفسه عن غيره فيها »(١)

. . .

وقد ذكر صاحب كتاب « الله بين الفلسفة والمسيحية » نقلا عن إيليا مطران نصيبين معان أخرى لكلمة « أقنوم » كقوله : « إن الأقنوم هو الموجود الذي ليس له مظهر مادي » فهذه العبارة تؤدي إلى الاعتقاد بأن المسيح كان أقنوما قبل التجسد وأصبح ليس كذلك من بعد التجسد لسبب هذا المظهر المادي الذي ظهر فيه وهذا باطل لأن أقنوم الابن قد اتحد بالمظهر المادي اتحادا ذاتياً وبقي أقنوما كما هو !! وكذلك قوله عن الاقنوم : « إنه الموجود الذي كيانه ليس عاما أي الذي ليس له شريك في كيانه » وهذه عبارة شائكة إذ ليس من الصواب أن يقال بأن للأقنوم كيان غير عام وذلك لأن له الجوهر الإلهي وهو الكيان العام كاملا ، وأما نسبة الاقانيم بعضهم لبعض ونسبة كل منهم للجوهر الواحد فلا تسمى شركة إذ أننا لا نعتبر الاقانيم شركاء يشتركون مع الله إذ أن علاقة الاقانيم مع التمييز بينهم ليست مجرد شركة لاننا نؤمن بوحدة لهم لا تجزئة فيها لا في الباطن ولا في الظاهر ، وهذه هي وحدة الثالوث القائمة الدائمة سرمدياً في اللاهوت الواحد ، وأصح عبارة نقولها هنا هي أن لكل أقنوم كيان خاص بغير استقلال عن الاقنومين الآخرين أو انفصال في الذات الواحدة !!

وجدير بالذكر أن نجد في مختلف العصور إلى وقتنا هذا من يحاول الهروب من لفظة « الأقانيم » بحجة أنها غير كتابية ويجب استبدالها بغيرها مثل « تعينات » أو « صور » أو « ظهورات » رغم أن هذه الألفاظ هي الأخرى غير كتابية ، وهذا الاستبدال الخطير يعني في حقيقة الامر أن الأقانيم مجرد أشكال أو تجليات أو مظاهر لجوهر واحد ، وهذه هي الوحدانية المطلقة تحت قناع المسيحية الزائفة :

(١) كتاب الأشعة اللاهوتية للقديس توما الاكويني

ولذلك فقد ضل من حسب الاقانيم صفات مجردة أو أسماء معانى أو ألقاب لمراكز فى الله ، لأن الأقنوم يدل على كائن حى متميز يوصف بالصفات الشخصية وتسند الضمائر العاقلة إليه ومن خصائصه العقل والإرادة ، فهو يستطيع أن يتكلم عن نفسه ويخاطب غيره ومن ثم فقد وجدنا أن الأقنوم الواحد يخاطب الأقنوم الآخر فيتكلم معه وعنه كما يرسل الواحد منهم الآخر ، ومن المعلوم أن الصفات المجردة وأسماء المعانى والألقاب لايمكن أن تخاطب بعضها بعضاً أو يتكلم أحدها عن الآخر ولا أن يرسل أحدها الآخر !

. . .

وإذ تحدد لنا معنى « اسم الأقنوم » فهل ينبغى أن لا نثبته فى الله وننفى استعماله لأنه لم يعلن لنا فى الكتاب المقدس ، ونحن لا ينبغى لنا التجرؤ على قول شىء فى حق الألوهية سوى ما أعلن لنا بالوحى الإلهى!! وجوابنا على ذلك أن هذا الاسم فى غاية الملاءمة لله بحسب ما سبق توضيحه من معان فظهر لنا أن المراد به ما يكون على غاية الكمال وقائماً بنفسه أيضاً وذلك هو أعظم الشرف لأقانيمه تعالى . فهذا الاسم وأن لم يرد فى الكتاب بعهديه إلا أن معناه كثيراً ما ورد مقولا عليه . . ولو كان من الواجب ألا يقال عن الله لفظ غير ما أورده الكتاب لما ساغ لأحد أن يتكلم عنه تعالى إلا فى تلك اللغة التى أنزلها الوحى . وفضلا عن ذلك فان ضرورة مناظرة أهل البدع قد قضت بإيجاد ألفاظ للدلالة على الإيمان القويم ، وليس هذا الإحداث مما يجب اجتنابه لعدم مخالفته لمعنى الكتاب !!

وبذلك يثبت لنا مناسبة استعمال لفظة « اقنوم » كاصطلاح لاهوتى يتفق تماما مع حقيقة ما أعلنه الكتاب المقدس عن وحدانية الله الجامعة كما أننا نجدها أساسا سليما لسر التجسد العظيم . ومن ثم لا يمكن للفظة أخرى أن تحل محلها مهما حاول البعض أن يختاروا من ألفاظ ! !

الفصل الثانى

وحدة الأقانيم

(١)

وحدة الأقانيم فى الجوهر

« فى اللاهوت ثلاثة أقانيم . وهؤلاء الثلاثة إله واحد ، جوهر واحد ».
(أصول الايمان الانجيلى)

جوهو واحد طبع واحد ذات واحد باللاهوت فريد
الثلاثة واحد فى الجوهر من غـــير تقسيم ولا تفريد
(من تسبحة أرثوذكسية للثالوث)

تدين المسيحية بوحدانية فريدة هى التى تجمع الثلاثة أقانيم فى جوهر واحد لا اشتقاق فيه ولا تركيب : ومن ثم فليس الأقانيم أشخاص منفصلين وإلا فهم ثلاثة آلهة مستقلين . وحاشا لنا من الإيمان بثلاثة آلهة ، فتصوير الأقانيم الثلاثة فى حالة انفصال كوجود ثلاثة أشخاص مع بعضهم فى مكان واحد نفى للأقنومية عينها وتكثير للواجبين ، وما كانت الأقانيم لتعنى قط هذا الوهم الذى يظنه البعض لأنه ليس ثمة ثلاثة جواهر للأقانيم الثلاثة بل الجوهر الواحد هو لكل منهم بغير تجزئة أو تقسيم فياله من سر عظيم !!

ومن ثم فإن الجوهر الإلهى الذى لا يتعدد ولا يتحيز ليس فيه تفريد ولا تقسيم بسبب الأقانيم كأن لكل منهم جزء منه لأنه غير متجزىء . وهو لذلك للثلاثة أقانيم بكماله سوية مع ما بين الأقانيم من اتحاد بلا اختلاط وتمييز بلا انفصال وتعدد بلا استقلال ، فإيماننا فى ذلك إذن لا يقدح فى وحدة الذات : وبذلك فقد استقام الإيمان إذن بألوهية الثلاثة مع انتفاء الشرك والتعدد والخروج على التوحيد !!

وحيث أن الجوهر الواحد لكل أقنوم صح أن يقال بأن كل أقنوم هو « الله » مع صحة عدم وجود « ثلاثة آلهة » وذلك بسبب وحدانية الجوهر - وإذاً لا غبار على القول بأن كل أقنوم منهم هو « الله » وأنهم معاً هم « الله » !! ومن ثم يسقط الاعتراض على ألوهية كل أقنوم والإدعاء بأنه ليس كل أقنوم منهم إله على حدة باعتبارهم ثلاثة لأنه لا انفصال بين الأقانيم بل هى فى اتحاد تام لأن جوهرها واحد! وليس القول المتقدم بأن الأقنوم إله على حدة إلا تعبير منحرف إذا كان المقصود به تقسيم الجوهر بين الأقانيم ولكن ذلك الجوهر روح صرف وليس مادة كثيفة فهو لذلك لا يقبل الانقسام ولا الانفصال مطلقا ، فليس هناك انفصال لأقنوم عن الآخر بل حيث يوجد أقنوم يوجد معه الأقنومان الآخران بحسب ماسبق توضيحه فى تعريف « الأقنوم » ولقد أدرك هذه الحقيقة العقاد فأشار اليها فى كتابه عن « الله » بقوله : « إن الأقانيم جوهر واحد ووجود واحد ، وإنك حين تقول الآب لا تدل على ذات منفصلة عن الابن أو الروح القدس لأنه لا انفصال ولا تركيب فى الذات الإلهية » .

فما زعمه بعضهم من تركيب فى اللاهوت لا يجوز على الله الروح الأزلى البسيط كما لا يجوز عليه الامتزاج إذ لا أجزاء له ولا تركيب فيه وإلا كان محدثا متناهياً بل متغيراً قابلا للانحلال والفناء وحاشا لله أن يكون كذلك !!

ولذلك فاننا نؤمن بإله واحد غير محدود هو واحد فى الذات والصفات والأفعال فنحن لم نقل ولا نقول بتعدد فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ، كما نعتقد بأن الأقانيم ليسوا ثلاثة آلهة مع أن كلا منهم إله وذلك لأن الجوهر واحد ولا هم مجرد ثلاثة تجليات أو مظاهر لجوهر واحد لأن الأقانيم ثلاثة لا واحد !! ونظراً لوحدانية الجوهر الذى لهم لا يمكن أن ينفصل أحدهم عن الآخر ومن ثم فإنه لا يمكن أن يوجد أقنوم منهم بمفرده مستقلا عن الأقنومين الآخرين . ولذلك فكل أقنوم منهم « إله » لأنه « قائم بالذات » والذات مع ذلك ليست أقنوما واحداً بل هى الثلاثة أقانيم !! وهذا ماسبق أن قرره اثناسيوس العظيم حامى الإيمان القويم بقوله: « إن الآب أقنوما متميزا وللإبن أقنوما متميزاً وللروح القدس أقنوما متميزا

كذلك ولكن الآب والابن والروح القدس لاهوت واحد ومجد متساو وجلال أبدى معا . كما هو الآب كذلك الابن وكذلك الروح القدس : الآب غير مخلوق والابن غير مخلوق والروح القدس غير مخلوق — الآب غير محدود والابن غير محدود والروح القدس غير محدود — الآب سرمد والابن سرمد والروح القدس سرمد: ولكن ليسوا ثلاثة سرمديين بل سرمد واحد وكذلك ليسوا ثلاثة غير محدودين بل واحد غير محدود ، وأيضاً ليسوا ثلاثة غير مخلوقين بل واحد غير مخلوق. . .

وهكذا الآب إله . والإبن إله والروح القدس إله ولكن ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد . كذلك الآب رب والابن رب والروح القدس رب ولكن ليسوا ثلاثة أرباب بل رب واحد !

وكما أن الحق المسيحى يكلفنا بأن نعترف بأن كلا من هذه الأقانيم بذاته إله ورب كذلك نجده ينهانا عن أن نقول بوجود ثلاثة آلهة وثلاثة أرباب !!

ولذلك قال اكليمنضس : « ليس كل أقنوم هو عين الآخر ومع ذلك فإن الأقانيم ليسوا ثلاث ذوات بل هم ذات واحدة لأن جوهرهم واحد ».

وقال غرغوريوس : « إذا ذكرنا الله فانما نريد الآب والابن والروح القدس معاً لأنهم ذات الله ووحدة كل أقنوم مع الآخر هى عين وحدتهم فى الجوهر الإلهى »

وقال أغسطينوس : « الآب والابن والروح القدس جوهر واحد ولكن ليس كل أقنوم منهم هو عين الآخر ، وليس الله شيئا رابعاً بل هو ذاته الآب والابن والروح القدس ، فكل من الأقانيم الثلاثة أزلى أبدى واجب الوجود وغير قابل للانقسام أو التجزئة أو الانفصال عن الآخر وذلك بدون مزج أو تركيب أو تجريد !!

(٢)

وحدة الاقانيم فى العمل

« بحكم وحدانية الأقانيم فى الجوهر نؤمن بأن ما يعمله اقنوم لا يكون بالانفراد عن الاقنومين الآخرين ، وكذلك الحال من جهة المشيئة والقدرة والفعل »

لقد أعلن قادة المسيحية منذ فجر ظهورها بأن التمييز بين الأقانيم فى اللاهوت مع وحدتهم فى الجوهر هما شرط أساسى للخلاص الأبدى ، وحين قال الآباء : « إننا نكرر ونبشر بالثالوث الأقدس ، قرروا أن هذا هو الإيمان الجامع الذى يجب أن يعتنقه كل مسيحى حقيقى مؤمن بدينه ومتمسك بكنايه فى كافة العصور .

بيد أن كل أقنوم فى تميزه عن غيره من الأقانيم لا ينفرد بقول أو عمل لوحدانية الجوهر ، فالأقانيم الثلاثة واحدة فى الجوهر وإذ جوهرها واحد لم يكن كل من الآب والابن والروح القدس مغايراً للآخر فيه وإن تغايروا فى الأقنومية ولذلك لا يمكن لأى أقنوم منهم أن يكون منفصلا فى ذلك الجوهر الفريد لأن كلا منهم إنما يوجد متحدا ومرتبطا وكائنا بالآخر .

ومن ثم فإن التمييز بين الأقانيم لا يدل على تفرد أو استقلال إذ لا انفصال بين أقنوم وآخر بأى حال من الأحوال ، ولذلك فانهم متوحدون فى الإرادة والقوة والفعل بلا فرقة بينهم فى شىء من ذلك على الإطلاق ، ولهذا فإن أعمالهم الإلهية مشتركة فما يقوم به أقنوم منها من عمل لا يكون بغير الأقنومين الآخرين فما يعمله إذاً أحد الأقانيم يحسب الأقانيم الثلاثة بحكم وحدانيتهم فى الجوهر الواحد الذى لهم فإذا أريد بقول ما أقنوم منها فليس معنى ذلك إخراج الأقنومان الآخران إذ لا انفكاك للآب عن الابن والروح القدس :

فالخلق مثلا منسوب للآب ولكن الابن والروح القدس مشتركان فيه (تك ١ : ٢ مع يو ١ : ٣) فاذا كان الآب قد أراد خلق العالم فان الابن هو الذى قام بعملية

الخلق والروح القدس هو الذى بث الحياة فى المادة .

ولذلك خلق الله العالم ليس ككونه ثلاثة بل ككونه واحداً لكون طبيعته الواحدة — منظورة فى الأقانيم — هى بداية لحركة واحدة ، لأنه من اللازم أن يكونوا ذوى الطبيعة الواحدة ذوى فعل واحد أيضاً !

والتجسد قد اختص به الابن ولكن الآب والروح القدس قد اشتركا فيه أيضاً (مت ١ : ٢٠ مع عب ١٠ : ٥) ولذلك رأيناهما يرسلان الابن فى أش ٤٨ والآب حالا فى الابن كانسان فى يوحنا ١٤ وماسحا إياه بالروح القدس الذى عاش وخدم ومات وقام به — ولذلك قيل عن الابن بأنه كان يعمل المعجزات بإرادته الشخصية (مت٨ : ٣) كما ورد بأن الروح القدس هو العامل فى إجرائها (مر ٣ : ٢٩) وكذلك جاء القول بأن الآب الحال فيه كان يعملها (يو ١٤ : ١٠) مما يدل على اتفاق الأقانيم فى كل إرادة وعمل ! قال المسيح له المجد « أبى يعمل ... وأنا أعمل » (يوه : ١٧) كما قيل عن الروح « إنه يعمل » (١كو ١٢ : ١١) ولذلك نسب المسيح لنفسه فى سفر الرؤيا الاسم الوصفى الخاص بالله وحده وهو « القادر على كل شىء » كما جاءت الإشارة عن قدرة الروح القدس فى سفر زكريا ٤ : ٦ — وأما ماجاء فى يوحنا ٥ : ١٩ من أن « الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل » فلا يدل على تقييد الابن كأنه دون الآب فى القدرة على العمل بل على العكس يبين اتحاده بالآب فى العمل وعدم انفصاله عنه . فعدم قيامه بالعمل مستقلا عن الآب ليس معناه العجز عن القيام به بمفرده بل معناه وحدته الكاملة معه فى القيام به وذلك لوحدته معه فى الجوهر الأمر الذى يتحتم معه عدم استقلاله فى العمل عن الآب ، وقوله بعد ذلك : « لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك » قاطع بإظهار مساواتهما فى السلطان المطلق والقدرة على كل شىء . وقوله بعدئذ أيضا : « لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما يعمله » يدل على أن الآب أيضا لا يعمل بالاستقلال عن الابن بل يعمل جميع ما يعمله فى كامل الاتفاق بينهما . ولذلك قيل أيضا بأنه « سيريه أعمالا أعظم من هذه » أى التى عملها فى أيام جسده كآيات الشفاء والإحياء !

وكذلك الحال فى إتمام الفداء إذ الآب بذل الابن (يو ٣ : ١٦) و الابن بذل نفسه (١ تى ٢ : ٦) وتم ذلك بالروح الأزلى (عب ٩ : ١٤) .

وأيضاً فى تقديم الخلاص فالمسيح أكمله والروح القدس يقود الخاطىء لقبوله والآب يرحب بذلك الخاطىء الذى يقبله ، ولذلك نسب عمل الأحياء للآب كما للابن كما للروح القدس على السواء . وقد قيل : لا يستطيع أحد أن يقبل إلى الابن إلا إذا اجتذبه الآب أولا (يو ٦ : ٤٤) ولا يستطيع أحد أن يأتى إلى الآب إلا بواسطة الابن والروح القدس (يو ١٤ : ٦و٧ ، ١٦ : ٨) ولا يستطيع أحد أن يتمتع بالروح القدس إلا بواسطة الآب والابن (لو ١١ : ١٣ ، يو ١٦ : ٧—١٦) وهذه الآيات تبين نسبة كل أقنوم منهم فى العمل لأجل خلاصنا فالآب يجتذب الخطاة إلى المسيح ، والمسيح يطهرهم ويجعلهم أهلا للقدوم به إلى الآب ، والروح القدس يبكتهم ويعدهم لقبول عمل المسيح . وبعد أن يخلص الآب الخطاة بابنه يقوم الابن بتعميدهم بالروح القدس فيحل فيهم ويسكن (١ كو ٣ : ١٦) كما يأتى الابن والآب ويسكنان أيضا (يو ١٤ : ٢٣) .

. . .

ونشاهد هذه الوحدة واضحة من نسبة الأقوال الإلهية إلى كل أقنوم من الأقانيم الثلاثة . وكذلك نجد الحال فى نسبة صفات اللاهوت الخاصة لكل منهم .

فمثلا قيل عن الآب أنه الحق (يو ١٧ . ١٧) وعن الابن إنه الحق (يو ١٤:١٦) وعن الروح القدس أنه الحق (١ يو ٥ : ٦) كما قيل عن الآب بأن « عنده ينبوع الحياة » (مز ٣٦ : ٩) كما يعلن الوحى عن الابن « إن فيه الحياة » (يو ١ : ٤) و « أنه هو الحياة » (١ يو ١ : ٢) وكذلك وصف الروح القدس بأنه « روح الحياة » (رو ٨ : ٢) كذلك يذكر الوحى أن « الآب هو أبو المجد » (أف ١ : ١٧) « وأن الابن هو رب المجد » (يع ٢ : ١) « أن والروح القدس هو روح المجد » (١ بط ٤ : ١٤) وهذا المجد هو مجد الله الذى هو نور المدينة (رؤيا ٢١) وأيضا يعلن

الوحى بأن الآب يعلم أصغر الأمور (مت ١٠ : ٢٩) وعن الابن أنه يعلم كل شيء (يو ٢١ : ١٧) وعن الروح القدس إنه يفحص كل شيء حتى أعماق الله (١كو ٢ : ١٠).

كذلك استعمل الوحى اسم « يهوه » لكل أقنوم منها فقال عن الآب : « قال الرب (يهوه) لربي اجلس عن يميني (مز ١١٠ : ١) وعن الابن : « أما أنت يارب (يهوه) فالى الأبد جالس » (مز ١٠٢ : ١٢) وعن الروح القدس : « ورفعني روح وكانت يد السيد الرب (يهوه) على » (خر ٨ : ١و٣) كما ذكر بولس صريحا : بأن الرب (يهوه) هو الروح : (٢ كو ٣ : ١٧) مما يدل دلالة واضحة على أن كل أقنوم من الأقانيم يحمل نفس اسم يهوه الكريم مما ينقض زعم شهود يهوه بأن الآب وحده هو يهوه دون الابن والروح القدس ! وتزداد هذه الحقيقة تأكيداً باستعمال الوحى اسم الجلالة « الله » لكل أقنوم من الثلاثة أقانيم فقد استخدمت عن الآب فى قول النبي للابن كابن الإنسان عن الآب : « من أجل ذلك مسحك الله إلهك » (مز٤٥:٧) مع عب ١ : ٩) كما استخدمت للابن فى القول : « وأما للابن فيقول : « كرسيك يا الله إلى دهر الدهور » (مز ٤٥ : ٦ مع عب ١ : ٨) وكذلك استخدمت للروح القدس فى قول الرسول بطرس لحنانيا : « لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس . . أنت لم تكذب على الناس بل على الله » (أع : ٣و٤) !! فهذه وحدة شاملة بحسب هذه البراهين الكتابية ، وهى لم تقف عند حد الخلق والإحياء روحيا وجسديا ، بل تصل إلى سائر الأعمال الإلهية الأخرى مما يدل قطعا على أن الأقانيم الثلاثة تتصف بكل صفات الكمال التى تليق بالألوهية بدرجة واحدة متساوية ومطلقة فلا غرابة فى أن أعمالهم مشتركة يقومون بها معاً .

(٣)

استحالة إدراك وحدة الأقانيم

« ليس موضع معضلة للافهام من مادة الثالوث لذلك لسنا نريد ادراكه بالتعقل أو الاحاطة بكيفيته إذ لا بدلنا أن نقف عند حدنا هنا ازاء أعماق اللاهوت التي لا حد لها ».

سر يفـوق البشرية فبحسب الجوهر إله واحد
وأما بحسب الأقنومية فهم ثلاثة في واحـــد

(من تسبحة الثالوث)

استقر إيمان الكنيسة المسيحية إذاً في كل الأجيال على أن في اللاهوت أي الجوهر الإلهي وحدة وثالوث :

أما الوحدة فهي لطبيعته وما يوافقها من الخواص الجوهرية ، وأما الثالوث فهو لأقانيمه المتميزة بما يخصها من المميـزات الوجهيـة : فجوهر الله مستقر في ثالوث الأقانيم لأجل كماله وهو جوهر واحد ويلبث دائماً غير مقسوم ولا محدود لأنه غير متناه ! وليس في هذا الجوهر كل ولا جزء لأنه لا ينفصل ولا يتجزأ فيختص الآب بجزء والابن بجزء آخر والروح القدس بجزء غيرهما لأن الجوهر الإلهي لامتناهي ولا محصور ؛ والخاصة الوجهية ترسم اللاهوت جملة وليس جزءاً منه : لأنه كما أن اللاهوت موجود بجملته في مكان واحد لا جزءاً منه ، وفي مكان آخر أيضاً بجملته وما يتجزىء بحسب الأمكنة كذلك الخاصة (الأقنوميـــة) ما ترسم جزءاً من اللاهوت ، ولكن العقل البشري من جرى ضعفه يتصور الغير المتناهي كمتناه وذلك لكون فعله يصير بواسطة الحواس(١) !

ومما لا شك فيه عقولنا البشرية محدودة ومن ثم ليس بمقدورها أن تدرك

---

(١) كتاب الهداية للبطريرك انثيموس برحمة الله - مطبوع في فينا سنة ١٧٩٢

كيفية وجود الأقانيم الثلاثة فى جوهر واحد إذ من المستحيل عليها أن تدرك ذلك بأى نوع من الإدراك : وهذا هو مرجع كون الله إذاً فى ذاته وثالوثه غير مدرك للخلائق المحدودة فلا عجب إن كان بيان الملائكة والبشر أعجز من أن يسبر كنهه تعالى إلا إذا أمكنهم بلوغ المستحيل ونعنى به تفصيل الأعماق فى طبيعة الله ذاتها .إذ من البديهى أن المحيز المدرك لا يعرف كنه غير المحيز ولا المدرك — فهيهات أن يدركه من جهة الجوهر والأقانيم سواه ، وإذن لا يمكن أن يعرف أقانيمه سواه ، فاكتناه هذا السر مستحيل على غيره تعالى !

هذا ما وصل اليه الأقدمون عند تفكيرهم فى معانى حقائق اللاهوت الفائقة المعرفة فأقروا بأن كيفية التمييز بين الأقانيم مع وحـــدة الجوهر هى سر اللاهوت وهى سر مطلق كامن فى طبيعته تعالى ولا يمكن الافتراض باختفائه لأى عوامل خارجية ولذلك فهو لن ينتهى وسيبقى سراً على الخلائق بأسرها فى أجيال دهور الأبدية اللانهائية !

يؤيد ذلك ما يذكره يوحنا الدمشقى قديماً فى هذا الموضوع بقوله : « أن طبيعة اللاهوت غير مدركة فما هو عليه تعالى فى جوهره لا يمكن أن يعرف تماما وتصورنا فيه واضح ، وهناك شهادة بالإجماع بأن الإحاطة بالجوهر الإلهى غير ممكنة لأن ذلك يعنى أن معرفتنا لله تصبح مباشرة أى بدون نشاطه وأعماله فى الخليقة — وهذه المعرفة المباشرة للذات الإلهية أمر محال بالنسبة لنا » .

ويقول هارتزلر من قادة الفكر المسيحى حديثاً : « أننا قد لا نستطيع أن نوضح كيف يكون الثلاثة فى واحد وكيف يحوز كل من الثلاثة الكمال المطلق مع أنه متميز عن الاثنين الآخرين ، ولكن هذا الذى نحاول الإحاطة به وتوضيحـــه هو سر اللاهوت الفائق المعرفة » .

فهو تعالى لا تدركه الأبصار ولا تخالطه الظنون ويعلو فوق الادراك والتعريف ويشهد له بكل ذلك وغيره مما يليق بعظمته الفريدة الكتاب المقدس — ومن

جانبنا نحن لولا أن هذا الكتاب ـ وهو كتابه تعالى ـ هو الذى أعلن لنا الأقانيم الثلاثة ووحدانية جوهرها لما خطر ببالنا مطلقا أن يكون هذا هو كنه القائم بالذات الذى لا تحتمل عقولنا أن تعرف عن حقيقته أكثر من ذلك . ولكن عجز عقولنا

هنا لا ينفى الحقيقة نفسها ولا يستوجب رفضها ولا يقوم عذراً عن ذلك الرفض بعد أن ثبت قطعا حيرة العقول تجاه المسائل الالهية عامة واتفاق الأديان(الكتابية) فى تعذر البحث فى الذات الإلهية وعدم جواز ذلك عقلا وشرعا بل أنهم يرددون فى هذا الشأن عن أحد مشاهيرهم قوله :

العجز عن طلب الإدراك إدراك والبحث فى عين ذات الله إشراك

ويشهد لهذا الأمر الشيخ الجيلى فى كتاب له عنوانه « الإنسان الكامل » بقوله: « بأنه لا سبيل إلى معرفته تعالى بحصر اللفظ لأن ذات الله تعالى غيب الأحدية فهى لا تدرك بمفهوم عبارة ولا تعلم بمعلوم إشارة لأن الشىء يفهم بما يناسبه فيطابقه أو بما ينافيه فيضاده وليس لذاته فى الوجود مناسب فيتطابق معه ولا منافى فيتضاد معه فانتفى بذلك أن يدركه الأنام » .

كل هذا يقطع بأننا لا نجد عذراً لمن يكابر فيرفض ما أعلنه الله عن وحدة أقانيمه فى جوهره لأنه من أنت أيها الإنسان حتى تحاول أن تدرك الله وتجاوب ضد إعلاناته القدسية عن كنهه؟ ألا تعتبر ممن حاولوا الإحاطة بالجوهر الإلهى وأقانيمه الثلاثة فضلت بهم عقولهم وتاهت وقادتهم إلى الكفر والهلاك وذلك أثناء قيامها بفحص هذا السر القدسى الرهيب زاعمين بطيش أن بمقدورهم اكتشاف الله وإدراك كنه كيانه الذاتى !!

أما نحن أصحاب الإيمان الأقدس المسلّم مرة للقديسين لكى يجاهدوا فى سبيل التمسك به والمحافظة عليه فقد تعلمنا من كتابنا المقدس أن التمييز بين الأقانيم لا يتنافى مع وحدانية الجوهر : فالأقانيم ثلاثة لا واحد وهى متحدة فى جوهر واحد ـ وهى ثلاثة لكون كل أقنوم منها متميز من جهة الأقنومية وواحد لوحدية الجوهر :

ومن ثم لا محل للقول بأنه مادام كل أقنوم هو ذات الله فلا يمكن فى هذه الحالة أن يكون هناك تمييز حقيقى بين الأقانيم وهو الذى بحسبه نثبت لأحد الأقانيم ما لا نثبته للآخر لأن كلا من الأقانيم الثلاثة وإن كانت متميزة تمييزاً حقيقياً أحدها عن الآخر بخاصية ذاتية ثبوتية وهى بالطبع غير مشتركة بين الأقانيم ، إلا أنها فيما عدا ذلك لا فرق بينها فى سائر الصفات والأعمال الإلهية ! ولذلك فاننا نجتنب فى الله اسم الاختلاف والفصل رعاية لوحدة الذات كما ننبذ اسم الافتراق والانقسام تأكيداً لبساطة الذات الإلهية وكذلك نرفض اسم التفاوت مراعاة للمساواة كما لا نقبل اسم المباين إثباتا للمشابهة ولا نقول بالجزئية لأن القول عن أقنوم بأنه إله جزئى كفر فليس يجب أن نعترف بإله منفرد أو مختلف ... وهكذا يظهر إيماننا بوحدة الأقانيم فى الجوهر من اعترافنا بأنها واحد فى الذات والألوهية وثلاثة فى الخواص والأقنومية .

ومع إقرارنا بالتمييز بين الأقانيم فاننا لا نؤمن بالانفصال بينهم أبداً بما لهم من طبيعة واحدة ، وهذا معناه أن سائر الكمالات والأوصاف الإلهية هى بنفسها لكل اقنوم منهم وذلك لأن لاهوت الآب والابن والروح القدس هو بذاته وعينه لكل منهم لأنهم جوهر واحد .

ومن ثم فلا يكون الإيمان المسيحى الذى يعترف بان سر الأقانيم فى تميزها ووحدتها يفوق الإدراك من مخترعات العقل البشرى ولا من أكاذيب الشيطان كما يقول شهود يهوه وأمثالهم واذا يكون ادعائهم بان هذا الايمان ليس من الكتاب المقدس هو احدى مفتريات ابليس التى يكمل بها ارتداد اثم النهاية ، وقانا الله تعالى من كل ضلال وحفظنا فى ايماننا فى كل حال لأجل خلاصنا الأبدى !!

تم هذا الجزء بعونه تعالى

فهـــرس

	صفحة
إيماننا الأقدس	١٢٤
الفصل الأول : وجود الأقانيم	
(١) إعلان الوحى عن وجود الأقانيم	١٢٧
(٢) الأدلة على وجود ثلاثة أقانيم	١٣٠
(٣) الاصطلاح على لفظة أقانيم	١٣٣
الفصل الثانى : وحدة الأقانيم	
(١) وحدة الأقانيم فى الجوهر	١٣٧
(٢) وحدة الأقانيم فى العمل	١٤٠
(٣) استحالة إدراك وحدة الأقانيم	١٤٤

صدورات اللاهوت السرمدية

عدد ممتاز من سلسلة الأضواء
يشرح معنى الأبوة والبنوة والانبثاق

بقلم
القس صموئيل مشرقي
راعى كنيسة الله الخمسينية
بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

مارس سنة ١٩٦٤

يطلب من المؤلف ٨ شارع أحمد باشا كمال بجزيرة بدران شبرا مصر ومن المكتبات المسيحية

إيماننا الأقدس

« نؤمن بإله واحد الآب ضابط الكل ، خالق جميع الأشياء . وهو مصدر الصدورات الإلهية بطبيعة الجوهر الذاتية ، وليس بحسب القصد أو المشيئة » .

الفصل الأول

تعريف بالصدورات الإلهية

« لا شك أن الجهل بالصدورات وإبطال الإيمان بها يجعل عقيدة التثليث وهما وخيالا إذ لا يكون للتمييز الأقنومى مجال » .

نؤمن بأن الجوهر الإلهى الواحد كائن فى ثلاثة أقانيم متميزة . وقد أطلق الوحى اسم الجلالة « الله » على كل أقنوم منهم إثباتاً لوحدانية الذات الإلهية، ولذلك فاننا نقول أن «الله» واحد ولا نعترف بتعدد الذوات فى جوهره الواحد ، فلا محل إذن لسؤال من يسألنا : هل إلهكم واحد أم ثلاثة !؟

وإيماننا هذا هو عقيدة المسيحية الأساسية بل سر أسرارها ، وقد قامت حوله المشكلات منذ البداية لمحاولة عقول المعترضين الإحاطة به مما تطلب تفسيراً يوضح معناه بحسب ما فى حدود طاقة إدراك العقل البشرى !!

ولقد قرر قادة المسيحية فى عصورها الأولى بعد التأمل العميق فى أقوال الوحى الإلهى بأنهم قد وجدوا التفسير الصحيح فى « الصدورات الإلهية » التى عبروا عنها بألفاظ « الإبوة والبنوة والانبثاق » الدالة عليها ، يشهد بذلك احد مشاهيرهم وهو القديس يوحنا الدمشقى بقوله عنها : « إن هذه الأسماء لم نطبقها نحن على اللاهوت المقدس بل على العكس قد وصلت إلينا من الله عن طريق الوحى » وهى صفاته الذاتية الثبوتية بل هى صدورات جوهره الطبيعية السرمدية !!

ومع أننا لم ندرك لله تعالى ولأقانيمه كنها لتعذر البحث فى الذات الالهية ولكن يجب علينا أن نتمسك بما أعلنه لنا سبحانه فى كتابه القويم الذى نجد فى عباراته فصل الخطاب فمنها نتحقق أن النسب الأقنومية سببها « الصدورات الإلهية » مما ينفى الادعاء الحديث «بأن الكتاب المقدس ينكر نظرية الصدور التى قال بها الفلاسفة انكاراً تاماً » ومع أنه ليس من الحكمة أن ننفى كل شىء قاله الفلاسفة وإلا كانت تسمية الكتاب للمسيح بكلمة الله خطأ لأن بعض الفلاسفة قال بمثل ذلك ، إلا أننا نؤكد

بأن الفلسفة لم تدرك « الصدورات الإلهية » التى اختص باعلانها كتاب الله وحده وغاية ما وصلت إليه أن الكائنات فاضت عن الله بحسب « نظرية الفيض الإلهى » التى نادى بها أفلوطين ، ونقلها عنه ابن سيناء ، ولما كان الجمع بين الله والمادة و بين كماله ونقصها أمراً مستحيلا لذلك قالوا بفكرة الوساطة التى تقوم على ما أطلقوا عليه « العقول العشرة » ودعوا أولها « العقل الأول » وسموه « اللوغس أو الكلمة » الذى وجدت فيه صور الكائنات بأسرها . ومعنى هذه النظرية على أى حال حدوث تفكك فى اللاهوت لأنه إذا كان هذا الفيض حقيقياً فأين كانت هذه الأشياء الفائضة قبل الفيض ؟ هل كانت مستكنة فى ذات الله أم كانت جزءاً منه ؟ وكلا الأمرين يؤدى إلى إمكانية التجزئة فى جوهره تعالى بل وإلى القول بوحدة الوجود أى أن الله والعالم جوهر واحد وكلا الأمرين محال لحتمية المغايرة بين المخلوق والخالق !! وإذن فنظرية الفيض هذه ليست بالصدورات التى أعلنها الوحى !!

* * *

ويدلنا الوحى على صدورين لواجب الوجود . صدور فيه تعالى بطبيعة الجوهر. وصدور عنه بالقصد والمشيئة — الأول صدور مرمدى صدور الواجب من الواجب ذاتيا وطبيعيا بموجب الاستلزام الوجودى وهو ليس من أفعال علم الله وإرادته وقدرته ، والثانى صدور عنه بمقتضى علمه وبحكم إرادته وعمل قدرته ، فهو العليم بكل شىء الفعال لما يريد والذى يتصرف فى خلقه كما يشاء !!

أما عن صدور الكائنات المخلوقة من العدم بفعل القدرة الإلهية فى الإبداع والخلق فهناك اتفاق عام فى التسليم به ، وهو صدور حادث مبدوء لأنه ليس للشىء الممكن من لا شىء أن يكون أزليا ، ومن ثم فليست هناك أزلية لشىء ما من الأشياء المخلوقة على الإطلاق ، إذ أن المخلوقات وهى حادثة لا تشارك الله أزليته !!

ولكن رغم هذا الإجماع فى إقرار هـــذا الصدور الثانى عنه سبحانه ، وهو صدور خارجى ومغاير، إلا أن الصدور الأول الخاص بالأقانيم الإلهية وهو صدور فيه تعالى ، وهو صدور داخلى وغير مغاير ، قد ذهب فيه الناس مذاهب واختلف

رأيهم فيه وتعذر على بعضهم فهم معناه لذلك جاهروا باستحالة وجوده زاعمين أن لا محل له فى اللاهوت ولم ينتبهوا إلى ما يترتب على ذلك من نتائج !!

فقد أوصلهم تشعب الآراء فيه إلى أقوال غريبة متناقضة فمنهم من قال بأن ما بين الأقانيم من نسب وما لهم من أسماء إنما هو على سبيل القياس والاصطلاح أو التشبيه والتمثيل : وهذا يجعل الأقانيم مجرد مظاهر ليس إلا — أى تعبيرات للظهور والعمل معاً ولذلك وصفوها بالألقاب والمراكز — فالله كآب خلق جميع الأشياء وهو بعينه يقال له الابن باعتبار تجسده من العذراء وهو بعينه يقال له الروح القدس باعتبار تقديسه الخليقة الناطقة وتحريكه إياها إلى الحياة . ولكن الأقوال الكتابية صريحة فى أن الابن ليس هو نفس الآب وأنهما ليسا الروح القدس وإلا فلا تمييز بين الاقانيم ولا اعتقاد بوجودها وهذا ما انتهى إليه بعض المبتدعين من منكرى حقيقة التثليث المباركة على حساب الوحدانية المطلقة — ومن الغريب أن مؤلف كتاب «شمس البر» الأرثوذكسى قد ذكر فيه بأن : «الثلاثة أقانيم هى ثلاثة مظاهر» وكذلك كتاب « الله فى المسيحية » الاسقفى فقد جاء فيه : « إن الله رأى إظهار ذاته بثلاثة أشكال . . . » وأيضاً كتاب « رب المجد » الإنجيلى فقد ورد فيه «أن الأقانيم مظاهر متنوعة لله » — وهذه تعبيرات خاطئة فما كانت الابوة والبنوة والانبثاق فى اللاهوت وهما أو مظهراً أو قياساً أو اصطلاحاً أو تشبيهاً على نحو ما بل هى صفات ذاتية ثبوتية متلازمة تسمو حقيقتها كسمو حقيقة وجوده تعالى على حقيقة وجود الخلائق!!

وهناك من اعتقد بالتجزئة فأعلن: «أن الابن هو جزء من الطبيعة الإلهية انعزل عن الآب وكذلك الروح القدس جزء آخر منه » : ولكن التجزئة والانعزال فى الجوهر الإلهى يؤديان إلى تعدد الذوات فى حين أن الذات الإلهية واحدة وهى لكل أقنوم ولذلك يدعى كل منهم بالحقيقة « إلهاً » مع عدم وجود تعدد ، ومن الغريب أن القول بالتجزئة والانفصال وتعدد الذوات قد ورد فى شرح بشارة يوحنا حيث جاء بلسان الابن : « لأننى بأخذى ذاتى منه فى ميلادى الأزلى قد

أخذت كمال القداسة . . . ، كما قيل فى تفسير قول الابن للآب : « مجدنى عند ذاتك » بأن هذا برهان جلى على أن المسيح ذات أزلى لأن الكائن عند ذات الله ذات مثله، فكأن لأقنوم الابن ذات أخرى غير ذات الله مما يُظن فيه التعدد أو كأن لله تعالى أكثر من كيان واحد بسبب الالتباس الذى يُوهم بالتجزئة كما يبدو فى لفظة «أخذى» وكلا الأمرين محال فليس فى الجوهر الإلهى تجزئة ولا تقسيم بسبب الأقانيم لأن ذلك الجوهر ليس مادة كثيفة بل روح صرف لا يقبل الانقسام ولا الانفصال مطلقاً وإذا لا أجزاء له يتركب منها وإلا كان محدثاً متناهياً بل وقابلا للانحلال والملاشاة وحاشا لله من ذلك !! ولكن نبذة « أقانيم اللاهوت الثلاثة » البليموثية قد قالت بالوحدانية المركبة فى اللاهوت التى تدخل الحدوث والتغيير على الله سبحانه المنزه عن التجزئة والتركيب !!

وتصور بعضهم « الأقانيم الثلاثة » فى حالة استقلال كوجود ثلاثة أشخاص مع بعضهم فى مكان واحد لاجئين للفظة « مع » واضعين إياها موضع لفظة « عند » محاولين بذلك الفرار من وجه حقيقة الصدورات . ولهم فى هذا التصوير أقوال تدل عليه فيقول مؤلف كتاب « براهين صدق الديانة المسيحية » : . بأن الثلاثة أقانيم مستقلة .. كل منها قائم بذاته لكونه أقنوما مستقلا» ويذكر كتاب «شمس البر»: « بأن كل أقنوم منفرد عن الآخر » بينما يؤكد كتاب « تثليث الأقانيم الالهية » : « بأن كل أقنوم كائن قائم بذاته مستقل ، وأن الأقانيم متساوية فى الاستقلال، وواجبة الوجود والاستقلال الذاتى » وقد استعمل شارح « بشارة يوحنا » ألفاظاً مماثلة إذ قال عن المسيح : « إنه مستقل فى كيانه مع الله — وذو شخصية مستقلة — وإن له أقنوماً مستقلا عن الله من غير انفصال » وهذه كلها تعبيرات غير صحيحة فمن المؤكد أن عبارة « التمييز الأقنومى » أصح من لفظة « الاستقلال » حتى لو قيل معها أنه من غير انفصال لأن التناقض فى ذلك واضح إذ لا يوجد استقلال بدون انفصال !! بيد أن هذه اللفظة «عند» قد وردت بمعنى الوجود المرتبط وليس المنفصل، فليست الاقانيم إذن ثلاثة آلهة مستقلين وما كانت لتعنى قط ما يتوهمون لأنه ليس ثمة ثلاثة جواهر للأقانيم الثلاثة بل الجوهر الواحد هو لكل منهم بغير تفرد ولا استقلال !! فهذا التصوير من جانبهم نفى للأقنومية وتكثير لواجبى الوجود

وأيضا كل صادر فهو مغاير لمصدره وليس فى الله تغاير بل بساطة تامة لأن ذلك الصدور الفريد يصدر فى الداخل صدورا عقليا فلا يجب فيه أن يكون مغايراً لمصدره بل بالأحرى كلما زاد صدوره كمالا زاد اتحادا بمصدره اتحادا كاملا دون أدنى تغاير ، ولذلك فقد شبهه القديس توما الأكوينى بالصدورات العقلية لأنها أقرب الموجودات إلى الصفات الإلهية . ومن ثم فليس فى الصدورات الإلهية مغايرة إذ هى ليست فى حركة ولا فى مكان ولا فى زمان بل هى صدورات فى اللاهوت خلواً من أى انقسام عارض !!

فالصدور الإلهى إذن صدور داخلى غير مغاير أو مخالف لأن له نفس الجوهر فهو صدور بطبيعة الجوهر ، إنه ليس لسبب احتياجه تعالى بل هو كما له الذاتى المختص به : فورود الابن من الآب ندعوه «ولادة» لكونها تعنى ابرازا طبيعيا وأما الانبثاق فهو انبعاث طبيعى كذلك وهما سران إلهيان غير مدركين اذ ليس للعقل هنا حكم لأنه أضعف من أن يتصور صانعه وباريه . . . . !! فانه تعالى بلا شبيه. إذ ليس كمثله شيء فلا يمكن وصفه وصفا كاملا ولذلك فاننا نرجع فى كافة الأمور الإلهية بما فى ذلك « صدورات اللاهوت السرمدية » — إلى الوحى الذى أفادنا بما يلزم وجوب إدراكه عنها بما قد أعلنه فى كتابه الكريم الذى تبين لنا منه بأن الاقانيم الثلاثة ليست ثلاثة أشخاص مستقلين أو ثلاث قوى مركبة أو ثلاثة إظهارات متنوعة أو ثلاث ذوات منفصلة لكنها ثلاثة « أصول ثابتة » فى الجوهر الإلهى كل منها « عين خاص » متميز فيه . ولقد عرّفت قواميس اللغة العربية معنى الاقنوم بأنه « الاصل » وليس الشخص مؤيدة بذلك حقيقة «الصدورات» التى تجمع الاقانيم الثلاثة فى لاهوت واحد ! !

* * *

وهو محال ، كما أنه لو كان صحيحا لجعلهم من المشركين لانهم بذلك يجعلون مع الآب اثنين آخرين غير صادرين منه صدوراً سرمدياً وذلك معناه وجود ثلاث ذوات منفصلين لا تربطهم سوى العلاقة الحبية والوحدة بينهم مجرد وحدة روحية. وهذا يختلف تماما عن إيماننا بالثلاثة أقانيم الذين يرتبطون معاً بالعلاقة الطبيعية الجوهرية فى الذات الإلهية الواحدة ، ولذلك لا يوجد أكثر من إله واحد !!

* * *

وإذن لا توجد طريقة أخرى غير «الصدورات» لمعرفة حقيقة وجود الثالوث المبارك فى وحدانية الجوهر ، ومن ثم فإننا نؤمن بها ولا نتخطاها فهى لا تقدح فى وحدة الذات مع انتفاء التجزئة والتركيب والتعدد والتجزيء فى الجوهر الإلهى الواحد!!

وأما الذين ينكرونها فقد ظنوا أن المراد « بالصدور الإلهى » حركة إلى الخارج ، وهذا ما ذهب إليه آريوس فزعم بأنه لا يقال للابن «الكلمة» بمعنى حقيقى لئلا يضطر بحكم حقيقة الكلمة الصادرة إلى الاقرار أن ابن الله ليس خارجاً عن جوهر الآب ، لأن الكلمة تصدر من العقل صدوراً داخلياً بحيث تلبث مستقرة فيه دون أن يقتضى ذلك فصلا أو تفرقة بين الصادر ومصدره وأما عن الروح القدس فالتوهم بأنه مضاف إلى الله من خارج كما فينا نحن المخلوقين ليس بحق وذلك بحسب ما زعمه مكدونيوس من أنه مجرد قوة أو تأثير أو عمل إلهى ، أما القديس باسليوس رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك فقد وصف صدوره بالقول : « فلا تفهمن من انبثاق الروح القدس من الآب أن ذلك كصدور شيء خارجى مخلوق » .

وإذن فالصدور فى الله ليس صدوراً خارجياً لشيء يصدر منه إلى خارج ، لأن الصدور السرمدى فى اللاهوت هو صدور داخلى ، صدور الغير محدود ولا متناه من غير المحدود ولا متناه ، فهو صدور فيه تعالى ومنه وإليه وسنعود إلى إيضاحه بالتفصيل فيما بعد .

* * *

الفصل الثانى

إنكار الصدورات وأسبابه

« لقد استند منكرو الصدورات فى عدم الاعتراف بها إلى استنتاجات ستظهر عند البحث الدقيق بأنها خاطئة ولا يجوز الارتكان إليها . »

هناك شهادة بالإجماع بأنه من المحال الاحاطة بالجوهر الإلهى وجوابنا على من يقولون كيف تكون هذه الصدورات هو أنه وحده سبحانه الذى يعلم ذاته وكيفية وجوده : وقد كشف لنا بأن هذه الصدورات طبيعية فى كيان جوهره وهذا يعنى أنه لابد من وجودها فيه تعالى لأنها من لوازم ماهية الأقنومية فهى استلزام وجودى للأقانيم كما أن الأقانيم استلزام وجودى لواجب الوجود ، ولذلك فان أولئك الذين ينكرون هذه الصدورات إنما ينكرون فى الواقع الأقانيم الثلاثة وهم لا يدرون ، فانهم إنما يعترفون بالأقانيم لفظا لا معنى ، لأنه كيف يستقيم المعنى لوحدة الأقانيم فى الجوهر الإلهى مع عدم وجود الصفات الذاتية الثبوتية فيه وهى الأبوة الحقيقية والبنوة الحقيقية والانبثاق الحقيقى !؟ بل كيف يثبت الوجود الحقيقى لها مع الادعاء بمجازية البنوة واسميتها وتفسير الانبثاق بالظهور والارسال !؟ وذلك لدى الذين ينكرون صدورى الولادة والانبثاق الأزليين فى اللاهوت ! فالآب لايدعى أبا إذا لم يكن مصدرا والابن لايدعى إبنا إذا لم يكن صادراً من أبيه ، والروح القدس لا يكون أقنوما إذا لم يكن صادراً من الآب كذلك .

ولكننا نأسف حقاً لبعض استنتاجات خاطئة حدت ببعضهم إلى الاعتراض على الصدورات وإنكارها مما سنبحثه هنا بتدقيق لإظهار بطلانها وعدم جواز التمسك بها :

(١) فقد زعم فريق إن المراد بالصدور فعل أزلى حدث فى الذات الإلهية : والفعل يدل حتما على إرادة ويعنى القدرة على إنشاء عمل وهذا لا يصح أن يكون وصفا لما هو كائن فى الجوهر الإلهى وذلك لأن الصدور فى الله هو صدور طبيعى ليس مما ينشأ عن فعل أو إرادة إذ لادخل للقصد أو المشيئة فيه. ولقد وصف صاحب كتاب « المسيحية فى الإسلام » هذه الصدورات بأنها شئون نفسية قائمة فى الذات السرمدية وهى بطريق التولد ... فقوله « شئون » و « طريق » خطأ لأن هاتين اللفظتين تعنيان الإرادة والقصد وأما ولادة الابن وانبثاق الروح فلا تدخل للإرادة والقصد فيهما ، وليسا هما عملا مستمراً فى الجوهر الإلهى بنشاط الآب ومشيئته ، ولذلك كان يجب أن يقول : « أن هذه الصدورات قائمة فى الذات السرمدية طبيعياً ، لأنها ورودات مصدرها الكيان الطبيعى للجوهر أى أن جوهر كيانه تعالى فيه هذه الصدورات تلقائياً بحسب طبيعة الوجود الإلهى » . فهى ليست من فعل الارادة لأن إرادة الله ليست علة لوجود — وكيان الأقانيم فالإرادة فى الله ليست خاصة أقنومية لكنها خاصة جوهرية فما تختلف إرادة الآب عن إرادة الابن عن إرادة الروح القدس كما لم يختلف جوهرهم » .

هذا ما أقره القدماء أما مفسرو العصر الحديث فقد تخبطوا فى هذه الحقيقة الأولى فقال مؤلف كتاب « الله ذاته ونوع وحدانيته » : « أنه لو كان المراد بعبارة مخارجه منذ القديم التى قالها النبى ميخا — الولادة الأزلية — لما وردت بصيغة الاستمرار — مبينا ذلك من كون فعلها المستتر فى اللغة العربية هو المضارع التام — لأن هذه الولادة فى عرفه لو كانت حقاً « لكانت عملا تم وانتهى » ولقد ظن بأن لهذه الولادة زمن . فقال بأنها فى وقت ما فى الأزل ونسب الاعتقاد بها باطلا إلى الهراطقة . ولقد جهل بذلك ان ولادة الابن صدور سرمدى أى أزلى بلا بداية وأبدى بلا نهاية فلا يصح أن يشار بشأنها إلى وقت ما ولو فى الأزل لأن الأزلية نفسها تنفى مبدأ المدة ولا تعرف زمنا ، ولما كانت هذه الولادة غير تابعة للإرادة بل للطبيعة وهى أزلية لذلك فالابن إذا أزلى نظير أبيه الأزلى : فهو مولود من أبيه

كائن معه مساوٍ له فى الأزلية فالولادة ورود حى مثل والده فان كان الآب أزلياً فالمولود منه أزلى مثله لأن المثل يلد مثله كما يلد النور نورا مثله ، والإنسان إنسانا مثله وهلم جرا . فكما أن الزمنيات يلدن زمنيات كذلك الآب البرىء من الزمان يلد ابنا بريئا من الزمان بحسب طبيعة جوهره الأزلى ! ولقد ذكر كتاب « أصول الايمان » المرجع الإنجيلى المشهور عن هذه الولادة : « أنها من التزام الطبيعة الإلهية وليس باختيار الإرادة ، غير أنه أخفق فى وصفها « بالفعل الأزلى » لأن الولادة وجود بالطبيعة وليس بالفعل الذى يتوقف على المشيئة وينفى عنه وصفه « بالأزلى » لأن ذلك يجعله حادثا ، ولهذا فاننا لا نقول الابن ولد والروح انبثق بل نقول الابن مولود والروح منبثق لأن العبارة الأولى تعنى الحدوث ولكن الثانية تفيد الأزلية ، ومن ثم فان الولادة الأزلية ، ومثلها الانبثاق الأزلى ، ليسا حادثين فى زمان مهما كان بعيداً ، بل هما حقيقة أبعد من أن تنحصر أو توجد فى وقت ما . ولذلك ليس صحيحاً ما جاء فى شرح بشارة يوحنا عن انبثاق الروح القدس من أنه عمل أزلى تم قبل كون العالم ، وكأن هذا الانبثاق نشأ وتم فى وقت ما بفعل الإرادة الإلهية وليس طبيعيا فى الجوهر وهذا يتنافى طبعا مع كون الانبثاق هو والولادة صدوران طبيعيان سرمديان استمراريان لامتناهيان فى اللاهوت دون مكان أو زمان وبلا وقت أو أوان ليس فيهما مدة قبلهما ولا بعدهما ولا معهما .

* * *

وإذن لا يراد « بالمصدر » معنى « الفعل » أو « العلة » بل هو ما يصدر عنه آخر بنحو من الأنحاء دون أن يستلزم ذلك « الفاعلية » أو « العلية » اللتين تفيدا سبق الإرادة والقصد وكذلك القبلية والبعدية ، فالفعل يحتم المشيئة ، والعلة تستلزم التقدم والتتابع بل والاختلاف فى الجوهر وتوقف شىء على آخر لذلك تسبق العلة المعلول فى الزمان كما يحدث فى الصدورات المخلوقة ومن ثم فاننا نجد فرقا ما فى الكمال أو القدرة بين العلة ومعلولها . وأما فى اللاهوت فمن المحال أن يوجد فى الذات الإلهية أو فيما بين أقانيمها علة ومعلول لأن الجوهر للثالوث كامل عديم البداية ، فلسنا نقول

عن الآب أنه علة وأن الابن والروح معلولان لأنهما مساويان له فى كل شىء ما خلا التمييز بينهم بالولادة والانبثاق الصدوران الطبيعيان فى اللاهوت : والمصدر هنا هو ما ليس فيه فرق من تفاوت أو تتابع لأننا لا نقصد به سوى « الأصل » ، وذلك لأن المصدر لا يقال فى الله بحسب التقدم بل بحسب « الأصل » ولذلك دعيت الصدورات « بأصول الذات الإلهية » . وإلحاقنا بالصدور لفظة « الأزلى » ينفى التقدم والتتابع الذى يرتبط بمدة ما ، ولكنه لا يناقض مبدأ « الأصل » لأن الصادر عن « الأزلى » « أزلى » مثله ، ولا يمكن القول عن كائن بأنه أزلى إذا كانت له بداية برز بها إلى الوجود . ومن ثم فان الصدور الإلهى - كما وصفه اثناسيوس - : « هو بلا تقديم وتأخير وليس فيه أكبر وأصغر ولا أول وثان ولا سابق ولاحق ومن ثم لا يوجد بين أقانيمه درجات تجعل أحدها أفضل مقاما أو أقدم وجودا فيتقدم بذلك على الآخر » بل كما جاء فى تسبحة الثالوث :

ليس له علة ولا معلول صفاته تفوق العقول
العقل والعاقل والمعقول لا منهم فاعل ولا مفعول

(٢) ولقد حسب فريق آخر بأن الصدور خلق وإبداع : وواضح مما سبق إثباته من التمييز الذى قدمناه بين صدور الأقانيم فيه تعالى ، وصدور الخلائق عنه بفعل قدرته الإلهية فى الخلق والإبداع ، أن الفرق بين الصدورين لا يقف عند حد فلا معنى للخلط بينهما ، وهذا ما فعله آريوس المبتدع من قبل فقد كان يقول أن الابن بالضرورة خليقة الله وهو يفرق عن الآب بالكلية وبالجوهر ولم يكن إلا أول المخلوقات ، فخليقة الابن هذه - فى عرفه - يسميها الكتاب المقدس ولادة ، وهذه الخليقة بحسب زعمه - تسمت ابن الله بالمعنى المجازى ، ولذلك فقد نادى بأن الابن صادر عن الآب على أنه خليقته الأولى والروح القدس صادر عن الآب والابن على أنه مخلوق منهما : وهو بذلك قد أنكر ولادة الابن الوحيدة فى جنسها والفريدة فى نوعها والتى هى ولادة طبيعية حقيقية وضل فى اعتباره إياها مجرد بنوة مجازية ! وجاء مؤلف كتاب « يهوه » البليموثى ليدلى بأقوال غريبة تخلط ما بين الولادة والخلق

وتمنع التمييز بينهما إذ قال : « أن المسيح هو الابن بغير ولادة أو خلق » و « أنه موجود بطبيعته وليس لبنوته كيفية كولادة أو خلق » و « أنه الابن الغير مولود والغير مخلوق ولا مفران شئنا أن نصدق الله » كما قال أنه لم يرد عنه قط أنه صدر من الآب أو خلق منه فان كلامنهما كائن أزلى فى الآخر بكيفية تفوق الإدراك، وقد نادى غيره « بأن الانبثاق هو خلق قديم محتوم » فربط مابين الانبثاق والخلق كذلك مع أن الروح القدس يحمل نفس العلاقة مع الابن كعلاقة الابن مع الآب لأنه كما أن الابن الذى هو فى الآب والآب فيه ليس مخلوقا بل ينتمى إلى جوهر الآب ، هكذا ليس جائزاً أن نحسب ضمن المخلوقات الروح القدس الذى هو فى الابن والابن فيه ونعرض الثالوث لعدم الكمال وإذن ليس هناك ارتباط قط بين صدورى الولادة والانبثاق والخلق، لأن الولادة والانبثاق صدوران ذاتيان كيانيان فيه تعالى لا يتوقفان ولا ينتهيان أبدا — إنهما من ذات جوهره وفيه وما كان كذلك لا يمكن أن يكون مخلوقا لأن كل ما يوجد فى الله فهو عين ذاته ، لذلك قال الابن « كل ما للآب هو لى » (يو ١٦ : ١٥) وقيل عن الروح القدس : « أنه يفحص كل شىء حتى أعماق الله » (١ كو ٢ : ١٠) مما يحتم أن جوهر الابن والروح غير مخلوق بل هو نفسه جوهر الآب : إنه الجوهر الإلهى الفريد الذى ليس منه ولا فيه شىء مخلوق ولا يتصل بسرمديته شىء حادث فالولادة والانبثاق إذن عكس الخلق تماما لأن الابن المولود والروح المنبثق لا يمكن أن يكونا مخلوقين لكونهما من ذات الله ، وأما المخلوق فى وقت معلوم فلا يمكن أن يكون كذلك لأنه مادة جديدة خلقتها المشيئة الإلهية من العدم التام !!

بيد أن هذا الأمر لم يفت آباء مجمع نيقية عند وضعهم « قانون الإيمان » الذى قضوا به على بدعة آريوس فذكروا ضمن كلماته الخالدة عن الابن عبارة « مولود غير مخلوق »

وقد أثبت إثناسيوس فى مناقشات ذلك المجمع الخالد الفروق الواضحة التى تميز بين الولادة الأزلية والخلق مما سبق أن سجلناه فى كتابنا « لاهوتيات قانون الإيمان » ونلخصه فيما يلى لأهميته البالغة :

(١) أن الولادة الأزلية ولادة من جوهر اللاهوت أما الخلق فهو إبداع من العدم
(٢) الولادة الأزلية ضرورة بطبيعة اللاهوت وأما الخلق فعرض بالإرادة النافذة
(٣) الولادة الأزلية اتصال دائم بالجوهر السرمدى فالمولود أزلياً له ذات الجوهر مع الوالد ، وأما الخلق فهو تكوين حادث مبدوء لذلك فان المخلوق جوهر آخر يختلف عن جوهر خالقه .

(٤) الولادة الأزلية صدور مستمر غير متناه فى الجوهر وهو ضرورى فى اللاهوت كالوجود والسرمدية ، وأما الخلق فعمل متمم لا تستلزمه ضرورة بل هو بفعل المشيئة المحض .

ومع أن أثناسيوس لم يحاول أن يوضح الولادة أو يشرح الانبثاق لكونهما قلب التثليث فهما صدوران بحال لا يعبر عنه ، إلا أنه قال لا الولادة والانبثاق خلق من لاشىء ، لأن ذلك يؤدى إلى الحط من درجة الابن والروح واعتبارهما خلائق الأمر الذى يتنافى مع مساواة الأقانيم فى الجوهر الواحد !

(٣) وقد ظن البعض أن الصدور يعنى وجود نقص وزيادة فى اللاهوت : وهذا أمر يدعو إلى الدهشة حقاً لأن الصدور الإلهى ليس تدريجياً ولا مادياً وهو لا يحصل فى حركة ولا يحتاج إلى عون أو مؤازرة ، ولما كان جوهر كيانه تعالى تاما فائق التمام وكل شىء من جوهره تام فوق كل تمام فليس فيه بعض أو جزء فانه سبحانه لا يقبل النقص والزيادة وهذا ما قرره كتاب « علم اللاهوت » الإنجيلى إذ جاء فيه : « أن الله جوهر بسيط غير مركب من أجزاء ولا يقبل التقسيم ولا يضاف إليه شىء لأن ما ليس بمحدود يستحيل أن يزاد عليه ، وكذلك لا ينقص منه لامتناع نقص واجب الكمال » .

ولقد انتبه القدماء إلى مثل هذا الظن فقالوا بأن هذه « الصدورات الإلهيـــة » ليست بتفريق وفيضان الأجزاء بل بنوع لا يدرك ولا يمكن التعبير عنه ، فما يكون جزءاً من اللاهوت فى الأقنوم ، وجزءاً فى الأقنوم الآخر لأن اللاهوت — وهو

عديم التناهى ـ لا يتجزأ ولا ينحصر ، لذلك فهو يلبث فى الثلاثة أقانيم بغير انقسام لأنها جوهر واحد بوجود واحد فيكون لذلك اللاهوت جملة وليس جزءاً منه فى كل أقنوم : لأنه كما أن اللاهوت موجود بجملته فى كل مكان وما يتجزأ بحسب الأمكنة كذلك لا يختص الأقنوم بجزء منه دون آخر ، ومن ثم فالقول بأن الروح القدس هو حد الأقانيم زعم باطل وكذلك الإدعاء بأن له فيض خارج اللاهوت لا داخله قول هراء وكلاهما يوهم بالنقص والزيادة فى اللاهوت .

ولكن من أثبت فيه تعالى زيادة أو نقصانا يكون قد التزم بالفصل فى اللاهوت والتفاوت بين الأقانيم التى لها المساواة فى الجوهر وإلا لما كانت لها ذات واحدة ولم تكن إلها واحداً وهذا محال !

وفضلا عما سبق ذكره فاننا لا نقول بأن « صدورات اللاهوت » تحصل بانتشار أو سريان الطبيعة الإلهية كما قال القديس توما الاكوينى فى كتابه « الأشعة اللاهوتية » لأن الأقانيم ليست امتداداً فى الطبيعة الإلهية لأن ذلك يتطلب وقتاً يحصل فيه ما يؤدى إلى الحدوث والتبعية بين الأقانيم الإلهية وقد أثبتنا بطلانه من قبل ، ونضيف إليه أن الله سبحانه يملأ الوجود بوجوده ومن ثم فان طبيعته الإلهية السامية الغير محدودة لا تقبل الانتشار ولا الامتداد بأى حال من الأحوال !!

(٤) وهناك من أدعى بأن الصدورات تعنى وجود تركيب فى الله لأنه لا يصدر شىء عن كائن إلا إذا كان ذلك الكائن مركبا : وهذا زعم باطل إذ لا تركيب فى الذات الإلهية كما سبق الإثبات والتركيب يعنى تكون الشىء الواحد من مجموعة أشياء ، وفى قاموس المعجم الوسيط نجد فى معنى الوحدانية « أنه تعالى أحدى الذات أى لا تركيب فيه أصلا » ، ومعلوم أن المركب يتحيز بحيز وهو محدود بكمية الأجزاء التى يتركب منها كما أنه لا يتكون إلا بعد وجود هذه الأجزاء ، فضلا عن أن التركيب يستوجب علة تجمع أجزائه ، فالتركيب إذاً يستلزم التجزئة والتأليف وهما مستحيلان فى اللاهوت لكونه جوهر فرد لا يقبل التجزئة ولا تركيب فيه على الإطلاق ! ونضيف إلى ذلك إقرارنا بأن الجوهر واحد عدداً ولم يزل هو ذاته مع التميز الأقنومى

وما ينتج من ذلك تركيب لأن التركيب يلزمه أن يكون هناك أكثر من جوهر ولكن فى اللاهوت الجوهر واحد هو ذاته وهو تام الكمال وغير متناه ـ فما كان فى آخر إذا كان مختلفا عيانا فحينئذ يصير تركيب ولكن إذا كان غير مختلف فلا يصير تركيب إذ النار تلد ناراً فيها والنور يلد نورا فيه فكون هذه بعضها فى بعض ليس كـكون المركبات فكم بالحرى كون الغير المتناهى فى الغير المتناهى يكون منزها عن التركيب ـ فالأقانيم بحسب جوهرها الواحد هى بعضها فى بعض ، فالجوهر هو واحد ويلبث دائما غير منقسم ولا محدود لأنه غير متناه للغاية ـ لأن الجوهر ليس مركبا لكنه بسيط وفريد الوجود والصدورات هى بحسب تمامه وهو عديم الاحتياج إلى شىء من خارج : فالثلاثة أقانيم إذن جوهر واحد لكونهما آخر فى آخر ، الصادر ليس خارجاً عن مصدره ...

أما كيف أن الابن هو مولود وماخرج من الآب ، وكيف أن الروح هو منبثق وما انفصل عن الآب فلا ينظر إليها ولا يحس بها ولا يتيسر قبولها إلا بالإيمان لذلك فإن الابن مولود منه ومستمر فيه ، وكذلك الروح منبثق منه ومستقر فى ابنه وموجود فيهما ولذلك دعى بروح الآب والابن دون أن يقتضى ذلك تجزئة ولا تركيبا !

(٥) وأما آخر ما زعمه منكرو « الصدورات » عن معناها فهو تصور الاشتقاق فيه : وهو يعنى الانفصال والافتراق فى الجوهر الإلهى ، فالزعم بأن الابن أخذ ذاته من الآب أو أن لاهوته مشتق منه كما سطر شارح بشارة يوحنا بقوله : « أن أصله ـ المسيح ـ من الله : فمنه أشتق جوهره وطبيعته ووجدانه باعتبار كونه أباه » وذلك تفسيراً لقول المسيح : « أنا أعرفه لأنى منه » (يو ٧ : ٢٩) ليس صحيحاً ومعلوم أن لفظة « منه » لغويا تفيد التبعيض (أى أخذ شىء من شىء) ولكن هذا محال فى اللاهوت لأن ورود اته أزلية بلا مفارقة وبلا انقطاع ، ولذلك فإن هذه اللفظة هنا تعنى الولادة حتما بدون أن تفيد الاشتقاق قطعاً . لأن الاشتقاق لا يجوز على الجوهر الإلهى ووضع العبارة فى صيغة الماضى « أشتق » يدل على أن المسيح حادث وليس أزلى وأن الجوهر الإلهى قابل للتجزئة والتقسيم ! !

فالظن بأن الولادة تعنى الاشتقاق شبيه بما يقول به المعترضون من أهل الأديان الأخرى بأنها تستلزم تقدم الوالد ذاتا ووجوداً على المولود ، مع أن حقيقة ولادته هى أنه مولود من الآب بغير انقطاع ولا انفصال ميلاداً طبيعياً دائماً معه ثابتاً فيه ، وبعد تجسده لم ينفصل عن أبيه ولم ينقطع ولم تفرغ ولادته بل هو دائماً مولود منه أبداً لأننا إذا قلنا أنه ولد وفرغ من ولادته فصلناه عنه بل نقول أنه والده أبدا وهو لم يزل ولا يزال أبدا مولودا منه بغير انقطاع ولا انفصال ! !

فاعتراض القائلين بالتوحيد المطلق على الولادة بقولهم عن الله بأنه «لم يلد ولم يولد» ينفون به تولده عن غيره أو أن يتولد عنه مثله لأنه لو تولد عنه مثله — كما قال ابن سيناء — لشاركه فى شىء وتميز عنه بآخر وبحسب زعمه لا يكون التولد والتميز إلا فى المادة ، ومن ثم لا يجوز له تعالى أن يفيض الوجود على مثله كما لم يكن وجوده من فيض غيره !! إنما يناقض إيماننا بابن مولود من آب غير مولود والأصل أى الجوهر فى كليهما واحد ! ! ومن الغريب أن المفسرين المحدثين بدأوا يقبلون العبارة سالفة الذكر ويثبتونها فى كتبهم (المسيحية) منكرين بذلك الولادة الطبيعية فى اللاهوت ظناً منهم أنها هى والتناسل الذى ينسب إلى المخلوقات سواء ومن أمثلة ذلك ما قال به مؤلف كتاب « الله ذاته ونوع وحدانيته » عن بنوة ابن الله بأنها بنوة روحية محض لأن ابن الله ليس كائنا مولودا من الله لأن الله « لا يلد ولم يولد » ويقول غيره فى رسالة المحبة عدد فبراير ٦٤ بأنه ليس هناك والد ولا مولود فى اللاهوت لأن هذه اعتبارات تصح فى المخلوقات وحاشا أن ننسبها لله تعالى لأن الله «لا يلد ولا يولد» فالمقصود بها مدلول البنوة لا حرفيتها فلا يقصد باستعمالها الولادة مطلقا بل هى مجرد تعبير بشرى ليكون مفهوما منا . » والكاتب مع الأسف ليسانسيه فى الفلسفة والناشر مجلة ارثوذكسية تكتب لأرثوذكس يرددون قانون الإيمان الخالد الوارد فيه عن يسوع المسيح أنه ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ». فترى ماذا حدث لمعلمى المسيحية وقادتها حتى وصل بهم الحال إلى ترديد نفس ذلك الكلام الذى يقوله الغير بدون روية أو إمعان ، فينكرون « الولادة » ويهزأون بها قائلين

« إن الابن ليس مولودا بالمرة » ، بل لقد بلغ المنطق الغريب بأحد أدعيائهم أن قال « أنه ما دام لا توجد أم فى اللاهوت فاذن لم تحصل ولادة بسببها عرفنا الابن كالابن» لأن التوالد — فى عرفه — حالة جسدية ليس إلا وهذا اقتصار باطل قد رد أثناسيوس عليه مبينا معنى الولادة فى اللاهوت بقوله : « لا تقولن كيف يلد الله ولا متى لأن الله فوق كيف ومتى ولا فى أى زمان لأن الله من قبل كل الدهور وليس يبلغه زمان : والولادة فى اللاهوت ليست كما فى الناس فهى بلا سيلان ولا تركيب ولا انتقال ولا تغيير ولا تكوين ولا تكثير ومعاذ لجلال الله من ذلك لأنه لا يلزم الله شىء منها » . وهى ولادة لطيفة غير متناهية من غير مباضعة ولا تناسل فالآب لم يزل والدا للابن المولود منه والابن لم يزل مولودا من الآب الوالد له دائما أبدا سرمدا كولادة النور من النور بغير مجامعة ولا تعب ولا حبل ولا نقص لأنها أيضا بلا أم فى اللاهوت فهى ولادة أزلية قبل أن تكون مريم بل الكون كله فى رحم الوجود . . وهى ليست فيضا فاننا لا نقول بأنه تعالى يفيض الوجود على مثله أى يخلق إلها مثله لأن ذلك من الأشياء المستحيلة على الله !! ولذلك قيل عن الابن أنه « مولود غير مخلوق » لأنه لو كان مخلوقا لم يكن مساويا لأبيه فى الجوهر لأن أحدا لا يقدر ولا يمكنه أن يخلق مثله بل يمكنه أن يلد مثله لأن كل ابن مثل أبيه ، وإنما ولادة «الابن الوحيد» الفريدة تتميز بأنها طبيعية متصلة فى الجوهر الإلهى واصطلاح «الاب» و «الابن» هما فى اللاهوت فقط ينحصران أبدا فى معنييهما فقط بخلاف ما هو حادث فى البشر لأن الله لا يماثل الإنسان وطبيعته لا تتجزأ لذلك فانه هو نفسه لم يلد ابنا بتجزئة نفسه ليصير أبا لغيره لأنه هو نفسه لم يولد من أب والابن ليس جزءا من الآب ولذلك فانه لا يلد كما ولد هو فليست ولادته إذن إلا كصدور الكلمة من العقل فهى تساويه فى الجوهر وهى شىء آخر غيره كذلك الابن هو آخر غير الآب ومساو له فى الجوهر . ومن ثم فلا تعنى هذه الصدورات وجود اشتقاق لأن الولادة والإنبثاق سرمديان والسرمدى لا اشتقاق فيه ولا انفصال ، والادعاء بهما زعم تكذبه الطبيعة نفسها فضوء الشمس يصدر من جرمها دون انفصال والحرارة تصدر من النار دون انفصال أيضا ! !

الفصل الثالث

الأدلة على وجود الصدورات

« هناك أدلة منطقية ونصوص كتابية تثبت حقيقة وجود الصدورات على نحو يليق بالذات الالهية » .

على الرغم من استحالة اكتناه الروح البسيط الصرف شاءت حكمته تعالى تشبيه نفسه بالشمس والنار والنور وهى من المحسوسات حتى لا نجهله كل الجهل فقال الكتاب « لأن الرب الله شمس » (مز ٨٤ : ١١) وأيضاً « لأن إلهنا نار آكلة » (عب ١٢ : ٢٩) وكذلك قال « أن الله نور » (١يو ١ : ٥) ومن أمعن النظر وجد فى هذه الأمثلة التى شبه بها تعالى ذاته صورة مصغرة للصدورات الإلهية السرمدية

فها نحن نرى قرص الشمس يصدر منه الشعاع والحرارة بدون تقدم أو تتابع بل هو لا يوجد خلواً منهما وكذلك النار لا توجد قبل نورها وحرارتها فليس اللهب بمفرده نارا ولا النور بمفرده نارا ولا الحرارة بمفردها نارا بل اللهب والحرارة والنور نار واحدة وذلك لأن لثلاثتها جوهر واحد وخواصه الثلاث المذكورة فى تلازم طبيعى لوحدة جوهرها فلا يمكن وجود أحدهما بدون الإثنين الآخرين . وواضح أن النور والحرارة يصدران من النار وهى لا تصدر منهما وأن لا إرادة للنار فى هذا الصدور كما أنه صدور ليس عن علة ومعلول فلا قبلية فيه ولا بعدية . فان كان الحال هكذا فى جواهر متناهية مخلوقة فأى صعوبة إذن فى تسليمنا ضرورة بالصدورات الإلهية السرمدية وهى فى جوهر غير مخلوق وعديم التناهى !!

* * *

ولقد أدركنا من اعلانات الوحى بأنه لا يوجد أكثر من مصدر واحد لهذه الصدورات الفائقة ، لأن المصدر الوحيد الذى يقال عنه بحق المصدر الأزلى لابد أن يكون واحدا ، وهذا المصدر هو « الآب » والد للكلمة وبائق للروح القدس ،

فالكلمة والروح صادران منه وهما فيه وإليه وليس بينهم أى اختلاف كان لا فى الجوهر ولا فى القدم ولا فى الكمال !! ولقد وردت عبارات الوحى الإلهى عن هذه الصدورات — القديمة بقدمه تعالى والباقية ببقائه — فى العهدين القديم والجديد على السواء ، إلا أن الاعلان الخاص بها قد اكتمل فى تصريحات العهد الجديد عن «ولادة الابن الوحيد» و «انبثاق الروح القدس» التى يستند إليها انسلموس فيقول : « نعم أن الوجود حاصل للابن والروح القدس من الآب ولكن على نحو مختلف فهو حاصل لأحدهما بالولادة وللآخر بالانبثاق بحيث أنهما متغايران بذلك .

وهذا يوضح لنا : أن « الولادة » و « الانبثاق » — ورودان وجوديان طبيعيان سرمديان فى اللاهوت وهما وجها وجود الابن والروح القدس لكونهما يدلان على حال وجودهما .

أما النصوص الكتابية التى يستند اليها صدور « الولادة » فهى : —

مزمور ١١٠ : ٢ «من رحم الفجر (أو من الرحم قبل الفجر) لك طل حداثتك»

أشعياء ٤٨ : ١٦ « منذ وجوده أنا هناك »

أشعياء ٥٣ : ٨ « وفى جيله من كان يظن » أو « وولادته من يخبر بها»

ميخا ٥ : ٢ « ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل »

يوحنا ٦ : ٤٦ « ليس أن أحدا رأى الآب إلا الذى من الله »

يوحنا ٧ : ٢٠ « أنا أعرفه لأنى منه »

هذا بخلاف لفظة « الابن الوحيد » التى أوردها الرسول يوحنا فى كتاباته خمس مرات وهى (يو ١: ١٤، ١٨، ٣: ١٦ و١٨، ١يو٤: ٩) وقد جاءت فى الترجمات الانجليزية والقبطية « الابن المولود الوحيد» وقد ترجمها ويموث « الإله المولود الوحيد» لأن بعض النسخ القديمة ورد فيها لفظة «الاله theos» بدلا من الابن «huios» وواضح أن الترجمة الحرفية لكلمة « الوحيد » كما وردت فى الأصل اليونانى

« monogenis » هى «المولود الوحيد» وقد اعترفت نبذة الايمان الأقدس البليموثية بهذا المعنى فى حاشية صفحة ١٧ فقال كاتبها أن لفظة « وحيد » ترجمت أحيانا

« بالمولود الوحيد » وأنها قد وردت فى اللغة الانجليزية « the only begotten » ولكنه أراد أن يفسر هذا المعنى بألفاظ إضافيه من عنده فحصره فى المحبة والمعزة وأسمى العواطف ، وجاء فى أعقابه زميل له وهو مؤلف كتاب «يهوه» فاعترف هو الآخر بأن لفظة مونوجنيس معناها «المولود الوحيد» ولكن من المدهش حقاً أن يقول بعدئذ بأن هـذا المعنى لا يمكن أن يؤخذ حرفيا بل فقط مجازياً كاستعارة مستمدة من بشرياتنا ، وهما بذلك قد أعترفا بالمعنى الحقيقى للفظة «الوحيد» بحسب ما ورد فى اللغة الأصلية المكتوب بها العهد الجديد وهو «الولادة» ثم عادا ينكرانها بالتفسير الاستعارى ، وفعلا ذلك فى آن واحد مما يدل على حيرتهما بين المجاز والحقيقة وهكذا انكسرت السفينة بهما فى خضم التشبيه !! وليس لتوقفهما فى معنى «المولود الوحيد» عند هذا الحد من سبب سوى إصرارهما على انكار الولادة الأزلية بالطبع مما يجعل بنوة المسيح لله — العديمة النظير بحسب قولهما — مجرد بنوة مجازية محض كبنوة آدم لله وهذا ما اعترفا به أيضاً فوآسفاه !!

* * *

وإذن فان شهادة يوحنا الحبيب عن هذه الولادة السرمدية صريحة فصيحة لا تقبل التأويل والتبديل فى المواضع الخمس التى سبق ذكرها وهو لم يكتف بذلك بل سجل لنا فى إنجيله ما قاله السيد له المجد عن نفسه بأنه من الله (يو ٦) ومن الآب (يو ٧) مما يدل على أنه ليس هناك فرق بين كونه ابن الله وكونه ابن الآب كما يزعم كتابهم « ابن محبته » بقوله : « أن بنوته لله نسبة تتعلق بالتجسد وأما بنوته للآب فهى تتعلق بالأزل فى غير ما ولادة» بينما يثبت الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا بأن كونه ابن الله وابن الآب شىء واحد !! وآيتى ١٤ و ١٨ من هذا الأصحاح لا تتعلقان بولادة له فى عرض الزمان دعى بسببها ابن الله كمن هو فى حضن العذراء مريم ، بل بولادته الأزلية «كمن هو فى حضن الآب» ويذكر أثناسيوس ذلك بقوله : « بأن ابن الله الأزلى الذى من قبل الدهور مولود ولادة أزلية من الآب قد ولد فى عرض الزمان لأجل خلاصنا بالجسد من مريم » (المطالب النظرية ص ١٨٨) ويقول

العلامة أبو الفرج فى تفسير المشرقى ج ٢ ص ٣٩٣ فى معنى حضن الآب : « بأنه يشير إلى ولادة الابن من جوهر الآب بدون أن يكون مفارقا له حتى وهو بناسوته على الأرض بعد التجسد » أما التفسير الحديث الذى يعلنه مؤلف كتاب يهوه واضرابه من المفسرين الحاليين فيقول ويا للأسف بأن « حضن الآب مجرد تشبيه عاطفى من رسول المحبة » . ولذلك قالوا فى تفسير « كالوحيد من الآب » بأنها تعنى « اتخاذه صفة من هو وحيد عند أبيه » أى « أن العلاقة بينهما كالتى بين المولود الوحيد وأبيه » أى أنه مشبه فقط بالمولود البشرى الوحيد لأبيه فى حين أن الوحى يستعمل لفظة « para » اليونانية المترجمة « من » وهى نفسها الواردة فى ص ٧ : ٢٩ حيث يقول السيد : « أنا أعرفه لأنى منه » وهى دليل الولادة القاطع كما سبق الاثبات !! ومن ثم فقد أخطأ السواد الأعظم من معلمى المسيحية الحاليين فى حسبانهم معنى « الإبوة » و « البنوة » فى اللاهوت على قياس بشرى كأن علاقة الأقانيم لم تكن إلا على سبيل الاصطلاح الجارى بين الناس ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالإبوة والبنوة بين الناس ما هى إلا ظل ضئيل لتلك الأبوة الفائقة والبنوة الفريدة فالآب آب حقا والإبن ابن حقا مولود بطبيعة الجوهر لم يزل قبل الدهور كلها بلا بدء فلم يكن من قبل مولد الإبن زمان ولا كان من يكن بعد ان لم بل لم يزل الآب الإبن مع الآب وفيه أزلى مع أزلى مولود منه بلا بدء للوالد ولا للمولود لأنه لم يكن قط إن لم يكن له ابن فلو كان لم يكن له إبن لم يكن هو أباً وإن كان قد صار له ابن من بعد فمن بعد صار أباً ولم يكن قبل ذلك أبا فأزلية الآب تستدعى أزلية الإبن وتستوجبها وإلا لما سمى الآب أبا ، ومن ثم فان ولادة الابن الأزلية إذن لا تعنى التناسل ولا تشبه ولادة البشر وأدوارها ، فقولهم أن المسيح يدعى ابن الله لا ولد الله مغالطة لا مبرر لها : فقد دعى الملائكة بحق أبناء الله لصدورهم عنه كما قيل عن الناس أنهم ذرية الله لصدورهم عنه أيضا بالخلق ، وندعى نحن المؤمنين أولاد الله بالولادة الجديدة أو الميلاد الثانى كما دعانا إشعياء بأننا « نسل المسيح » (ص ٥٣ : ١٠) فاذا كان الملائكة والناس والمؤمنون كل هؤلاء يدعون أبناء الله لأسباب مختلفة فما هو السبب الذى تقوم عليه بنوة المسيح لله ؟! إنهم يقولون أن السبب مجهول ولكنه فى الحقيقة وبشهادة

يسوع المسيح هذا ؟ فأثبت أنه هو المبـــارك العزيز « الوحيد » ملك الملوك ورب الأرباب ... الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه الذى له الكرامة والقدرة الأبدية آمين » وهذا بعينه ما كتبه الرسول يهوذا فى الكلمات الختامية الواردة فى رسالته بقوله عن يسوع المسيح أنه هو « الإله الحكيم الوحيد مخلصنا الذى له المجد والعظمة والقدرة والسلطان الآن وإلى كل الدهور . آمين » .

* * *

وأما الانبثاق الأزلى الذى للروح القدس فهو صدور طبيعى سرمدى متميز يدل على دوام الانبعاث كانبعاث النور من مصدره حتى أن كلمة انبعاث فى الأصل العبرى تحمل تماما معنى الانبثاق : وهو يختلف عن الولادة إذ هو خروج أصلى أزلى فى اللاهوت به يتميز أقنوم الروح لأن « منبثق » معناه « خارج » فى لفظة العربى . وعبارة العهد الجديد عن الانبثاق تدل على أنه صدور واحد تـام من الآب ونصها : « روح الحق الذى من عند الآب ينبثق » (يو ١٥ : ٢٦) وقد وردت فى الترجمة الانجليزية هكذا : « "Procedeth from the Father" أى « الذى ينبثق من الآب » وهى مثل العبارة الواردة فى ميخا تعنى « الخروج الاستمرارى » لا الإرسال كما يزعمون - فالإنبثاق شىء والإرسال شىء آخر ولا يجوز الخلط بينهما وهذا ما عناه السيد فى قوله مبينا أن الآب هو المصدر وهو الذى يرسل الروح بابنه إلى قلوب المؤمنين فاذن لا نصيب للصحة فى قولهم أن الإنبثاق معناه الظهور لا الصدور . كما أن لا صحة للقول شتان بين الإنبثاق من عند الآب والإنبثاق من الآب إذ أن لفظة From الإنجليزية الواردة فى العبارة تنفى وجود فرق بينهما . أما التعليم الدخيل بانبثاق الروح القدس من الآب والإبن فسنعود إليه فى الفصل الآتى ! ! وهكذا على أساس الولادة والإنبثاق يستقر إيمـاننا بالله وكلمته وروحه فى جوهر واحد غير مجزىء بين الثلاثة أقانيم كما عبر اليازجى بقوله :

للآب لاهوت ابنه وكذا ابنه ... وكذا هما والروح تحت تقنم
كالشمس يظهر جرمها بشعاعهـا ... وبحرها والـكل شمس فأعـــلم

الفصل الرابع

علاقة الاقانيم بالصدورات

« لما كان الكتاب يخشى أن ينصرف الى أذهان البشر أن ماقيل عن الروح مقول عن الإبن لم يستخدم لفظة مولود الخاصة بالابن بل استخدم لفظة منبثق لتمثيل الصدور الخاص بالروح القدس »

لو لم يكن فى الجوهر الإلهى صدورات طبيعية لما كان فى الله الواحد أقانيم . وقد أعلن الوحى بأنه ليس فى الله إلا صدوران فقط وإلا كانت الأقانيم أكثر من ثلاثة ! وهذان الصدوران مختلفان وهما بذلك متميزان ولكنهما لا يصنعان فرقا فى الجوهر بل كما أن آدم كان غير مولود وهابيل كان مولوداً وحواء واردة من ضلع آدم فاذا حال وجودهم مختلف وأما هم فليسوا مختلفين بحسب الجوهر كذلك الابن والروح من الآب يصدران بدون اختلاف فى الجوهر الذى تخصص له الكمال وهو لم يزل كاملا لأنه لا يحتاج إلى شىء ما خارج عنه ! !

ومن ثم فقد تميز صدور الروح عن صدور الابن بالانبثاق ، وصدور الابن عن صدور الروح بالولادة وإلا كانت الولادة والانبثاق جائزاً إطلاقهما على أى من الأقنومين : ولذلك فاننا نتمسك بالصدروات الإلهية ولا نتخطاها لئلا نجعل الوالد مولوداً والمولود والداً والباثق مبثوقا والمبثوق باثقا فلا نقول عن الآب أنه مولود ومنبثق ولا عن الابن أنه والد وباثق ولا عن الروح القدس أنه آب وابن والأسفار المقدسة قد ميزت بين الأقانيم فلم يدع الروح ابناً ولم يكتب عن الابن أنه الروح بل بالحرى اختص كل صدور بالاسم الموضوع للدلالة على حقيقته الخاصة به فلا مكان للتساؤل لماذا دعى الواحد إبنا والآخر الروح ؟! وبالتالى يكون الآب أبا والابن ابنا والروح القدس روحا قدوسا دون فحص ! وكما أن الآب لا يمكن أن يكون ابنا كذلك لا يمكن أن يكون الابن أبا ، وكما أن الآب لن يكف عن أن يكون الآب

الوحيد كذلك ان يكف الابن عن أن يكون الابن الوحيد أما الروح القدس فلم يطلق عليه فى الكتاب المقدس اسم الآب ولا اسم الابن ولكنه دعى روح الآب وهو روح الابن أيضاً . وهكذا نجد أن لاهوت الثالوث الأقدس واحد !!

أما عبارة إشعياء عن الابن بأنه « أبا أبديا » أو « أبو الأبدية » (ص ٩ : ٦) فليس المراد بها هذه الصدورات الإلهية السرمدية غير المتغيرة بل نسبة المسيح لنا بصفته آدم الثانى بالمباينة مع آدم الأول أبو الحياة الزمنية (١ كو ١٥ : ٤٥) يثبت ذلك قول المسيح لتلاميذه « يا أولادى . . . » (يو ١٣ : ٣٣) ولهذا فان إيماننا لا يجيز تبادل الخواص بين الأقانيم أو تغيير الأسماء بينهم بأن يطلق على الواحد منهم اسم الآخر ففى اللاهوت وحده الآب كان أبا ولا يزال أبا وسوف يستمر أبا لأنه آب بحصر المعنى وهو آب فقط ، والابن ابن بحصر المعنى وهو ابن فقط . والآب يدعى أبا بصفة مستمرة والابن ابنا بصفة مستمرة والروح القدس هو روح بصفة مستمرة وهكذا يكون الثالوث الأقدس غير قابل للتغيير . فليس صواباً أن يقال بأن الابن هو الآب أو أن الروح القدس هو الابن كأن الاسم يتغير لأن ذلك ضلال يتنافى مع وحدة لاهوت الثالوث !!

فالخواص الأقنومية المتميزة بالصدورات والقائمة بها علاقات الأقانيم غير متعدية وغير مشاعة أما الجوهر الإلهى فعلى النقيض من ذلك إذ هو مشاع بين الأقانيم الثلاثة على السواء وبدون تمييز ما ، وفى ذلك المعنى قال القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات : « أن الأزلية واللاهوت مشاعتان بين الآب والابن والروح القدس . على أن للابن والروح القدس خاصة الصدور من الآب : الابن بالولادة والروح القدس بالانبثاق » وهذا ما أكدته تسبحة الثالوث الأرثوذكسية بقولها :

الابن مولود فى الأزلية ... لا بتقديم الإرادة منه
ولكن الولادة طبيعية ... والروح القدس منبثق منه
كولادة شعاع الشمس وحرارتها ... من القرص الباعث للاثنين
وهذين صدورين طبيعيين ... لا منقطعين ولا منفصلين

فكما أن الابن مولود وحيد الجنس وهو واحد هكذا أيضاً الروح القدس المنبعث من الآب فانه واحد غير متعدد ليس واحداً من كثيرين بل روح وحيد : وهذا هو الإيمان المطابق للمكتوب دون أن يقول قائل لماذا كان هكذا ولماذا لم يكن هكذا . . فان إقرارات الإيمان لا تدرك بالبحث العقيم بل بالتسليم العظيم تمثلا بقول الرسول: « يجب أولا الإيمان بالله بأنه موجود » (عب ١١ : ٦) أنه لم يقل كيف هو موجود إنما قال فقط « إنه موجود » وأن لم يخجل المتسائلين هذا القول ، فليقولوا كيف يوجد الآب لكى يدركوا كيف يوجد كلمته وروحه ! ؟

* * *

أما قول الكاثوليك بأن الولادة الأزلية للابن هى معرفة الله لذاته ومشاهدته لها بفعل العقل الإلهى فالإبن فى عرفهم هو الصورة التى صورها الآب على ذاته بمشاهدة نفسه فهو اعتقاد غريب لأن رؤية العقل يتقدمها انفعال إذ أن العقل يتأثر عند قبوله صور ورسوم الأشياء ، السابق وجودها ولكن الله ليس فيه انفعال ، أيضاً الشيء الذى يراه العقل ينبغى أن يكون أقدم وجوداً من الرؤية وأما الآب والإبن فليس فيهما أقدم ، كذلك فى الولادة تنظر ثلاثة أشياء والد وولادة ومولود ، فان كان الآب برؤيته لذاته يلد فيكون هو بنفسه الوالد والولادة فأين يكون الإبن فان قيل أن الرؤية هى المولود فأين تكون الولادة ! ؟ (كتاب الهداية للبطريرك أنثيموس برحمة الله) .

وكما حسبوا صدور الإبن بفعل العقل ظنوا أن صدور الروح بفعل الإرادة أو الجذب والمحبة فقالوا أن من الحب المتبادل بين الآب والإبن ينبثق الروح القدس بل وصل الحال بالبعض أن قال بأن الروح القدس هو اليوبيل الإلهى أو القبلة الإلهية وتبادل التحية بين الآب والإبن ... وهذا الإعتقاد يجعل الإنبثاق فعلا تابعا لوجود المحبة فالمحبة أولا ثم الإنبثاق ثانياً وهذا لايجعله أزليا . وكذلك من المعلوم أن المحبة صفة موجودة فى طبيعة الله ولكنها ليست أقنوم الروح القدس بحسب زعمهم القائل بأن الروح نفسه هو المحبة الإلهية ، وإلا تصبح باقى الصفات الأخرى أقانيم وهذا خلط

بين الصفات الذاتية الثبوتية وغيرها من الصفات الإضافية!!

* * *

أما قضية « الإنبثاق » فان إضافة لفظة « والإبن » فيه يهدم عقيدة تثليث الأقانيم لأنه يمنع التمييز الأقنومى بينهما بخلاف ماقاله أثناسيوس من أننا « لا نخلط الأقانيم » لذلك قال انسلموس : « إن الروح القدس يتميز عن الإبن حالة كونه غير صادر عنه » كما قال الذهبي الفم فى عظة له عن الروح القدس : « كما جاء فى إنجيل متى ١٢ : ٢٨ قوله « روح الله » وفى كورنثوس الأولى ٢ : ١٢ قوله « الروح الذى هو من الله » كذلك جاء فى متى ١٠ : ٢٠ قوله « روح الآب » وقد أيد المخلص هذا التعبير بقوله : « الذى من الآب ينبثق » (يو ١٥ : ٢٦) فهناك جعل الكلام فى انبثاق الروح من الله وهنا حصره فى الآب هكذا شهد — بكلامه عن الروح القدس — أنه فى آن واحد : روح الله والروح الصادر من الله والمنبثق من الآب!!.

أما الإدعاء بأن الروح القدس منبثق من الإبن كما هو منبثق من الآب استنادا إلى قول السيد عنه : « هو يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم . جميع ما للآب هو لى » (يو ١٦ : ١٤و١٥) فهو زعم باطل لأن هاتين الآيتين تنصبان على التمجيد والأخذ والإخبار الزمنى فى المستقبل ، أما قوله « جميع ما للآب هو لى » فليس يفيد الإنبثاق بل معناه تمام الإتفاق بين ما سيتلقاه العالم من الروح القدس بعد صعود المسيح بدون أى اختلاف عما سبق أن تلقاه من المسيح له المجد فى أيام جسده من قبل :

نعم إن الآب والابن يرسلان الروح القدس بل الآب يرسله بالإبن لأنه مستقر فى الإبن ومعلن فيه ومستعلن به وعلى هذا الأساس استطاع المسيح أن يرسله من عند الآب ولكن هذا الإرسال هو غير الانبثاق الوارد ذكره فى نفس الآية منسوبا إلى الآب وحده ويشهد بذلك الترجمة الفرنسية كالانجليزية السابق اقتباسها فهى تقول: « qui procede du pere » وهذا الانبثاق أزلى وليس فى المستقبل كالارسال كما تفيد قواعد اللغتين اليونانية والعربية ولذلك لم يقل عنه « الذى سينبثق من الآب » مثلما قال « سأرسله » حيث أن المراد بالانبثاق ليس الارسال ، فهذا القول إذن لا يمكن

أن ينصرف إلى غير المعنى الذى فهمته الكنيسة الأولى منذ فجر المسيحية حتى القرن التاسع الذى بدأت فيه اضافة « والإبن » فى الانبثاق على لسان نيقولاوس الأول أسقف رومية !!

« وليس معنى الانبثاق من الآب وحده أن الروح القدس غريب فى طبيعته عن الإبن لأنه لا ينفصل عنه ولا عن الآب إذ الثالوث غير متجزىء — وعلاقة الروح القدس بالإبن تمثل تماماً علاقة الإبن بالآب وكل ما للآب فى الابن هو أيضاً فى الروح القدس بالإبن ، فمن يؤمن بالآب يعرف الابن فى الآب وهو لا يعرف الروح القدس بدون الآب أيضا. فالذين يعترفون بالمكتوب يقرنون الابن بالآب ولا يفصلون الروح القدس عن الإبن ، وبهذا يدركون أن الثالوث الأقدس غير قابل للتجزئة وأنه طبيعة واحدة» (رسائل أثناسيوس عن الروح القدس) .

فالانبثاق وإن كان لا يمكن أن يكون من الآب والابن بل هو من الآب فقط ولكن غايته تنصب فى الإبن : أى أنه منبثق من الآب فى الابن « وإلا فإن كلمة الانبثاق تصاب بعجز كلى يفقدها معناها ومبناها : لأن الانبثاق لزم أن يكون فى آخر أو إلى آخر فمن يكون هذا الآخر ؟ لا يمكن أن يكون العالم أو الإنسان لأن هذا معناه إما أن يكون العالم أو الإنسان قائما أزليا كأزلية الانبثاق ، وأما أن الانبثاق نفسه كمتعلق بالعالم أوالإنسان الغير أزليين هو أيضا غير أزلى وكلا الوضعين خطأ (كتاب العنصرة أويوم الخمسين صفحة ١٦) .

ولقد أحسن القدماء بتمثيلهم لحقيقة الانبثاق من الآب فى الابن بالمثال الآتى الذى اتخذوه من الشمس وشعاعها ونورها فقالوا: « كما يرد الشعاع من الشمس وليس هو بعدها أو قبلها بزمان لكنهما معا فى الوجود والاتصال فيهما غير مفارق مع أن أحدهما يميز عن الآخر ، كذلك الابن مولود من الآب أزليا برئيامن أن يكون أحدهما قبل الآخر أو بعده بل كلاهما معا فى الوجود الأزلى الذى لا ابتداء له ولا انتهاء ولم يزل الاتصال فيهما غير منفصل .

وهذه المقابلة الواضحة تبين أن لفظة « مخارجه » تحمل معنى « ولادته الأزلية » ولكن مؤلف كتاب يهوه يفسرها بمعنى « دائرة وجوده الأصلية » التى خرج منها أخيراً إلى العالم المنظور ، وهذا زعم ظاهر البطلان لأنه يجعل السماء أزلية معه وبذلك يدخل مع موحدى الوجود فى اعتقادهم بأن الله والعالم جوهر واحد وهذا محال ، فضلا عن أنه يجعل الابن منحصراً فى دائرة وجود بيد أنه تعالى يملأ الوجود بوجوده لاشريك له لوحده جوهر الأقانيم الثلاثة ، وكذلك يصور لنا هذا الزعم الانتقال الحرفى للاهوت من تلك الأماكن إلى العالم المنظور وهذا أيضاً باطل !! أما مؤلف كتاب « الله ذاته ونوع وحدانيته » فنجده ينفى « الولادة » لورود لفظة « مخارجه » بصيغة الجمع ظنا منه أنه لو كانت هى المقصودة هنا لكان قد قيل « مخرجه » بدلا من « مخارجه » ، وقد فاته أن صيغة الجمع هذه قد وردت فى المحدود فى قول الكتاب: « فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة » (أم ٤ : ٢٣) فلا عجب إذا استعملت فى غير المحدود . وإذن فحقيقة المراد بمخارجه هو ولادته الأزلية من الآب فى غير ما حيز ، لكونها صدور غير محدود من مصدر غير محدود !!

ولقد اقتفى الرسول العظيم بولس آثار يوحنا الحبيب فكتب بالوحى الإلهى لابنه تيموثاوس فى الرسالة الأولى ص ١ : ١٧ يقول « وملك الدهور الذى لا يفنى ولا يرى الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور آمين » ، وقد زعم شهود يهوه بأن الكلام هنا عن السرمدى الوحيد « يهوه » ، ولكن الإشارة فى هذه العبارة واضحة فهى إلى يسوع المسيح المذكور فى ع ١٦ السابق ، فبعد أن ذكر يسوع عاد فأعطاه المجد . وبعد أن ذكر اسمه بالناسوت عاد يبين من هو فى اللاهوت : فهو ملك الدهور أى مرتبها والمتسلط عليها ولا عجب فهو الذى قيل فيه : « كرسيك يا الله إلى دهر الدهور » (عب ١) وقد وصف هنا بالإله الحكيم وحده ، ولفظة « وحده » هذه موضوعة فى الحاشية « الوحيد » وهى ترتبط « بالابن الوحيد أو الإله الوحيد » كما سبق البيان ، وهذه الآية قاطعة بألوهيته فهو ليس « إلها » بل « الإله » ، وقد بين الرسول نفسه فى كلامه فى نفس الرسالة ص ٦ : ١٤ — ١٦ من هو

الكتاب غير مجهول فإن هذه البنوة الفريدة فى بابها سببها الولادة الأزلية العجيبة !؟ وكيف نكون نحن البشر المحدثين أبناء لله لأننا مولودون منه وهو والد لنا ولا يكون للابن الوحيد ولادة أعجب وأسمى فى الأزل !؟ وكيف يخشى من القول بولادته لئلا يفيد التناسل الجسدى الذى يزعمونه ولا يخشى من ولادتنا نحن أن تؤدى إلى معنى هذا التناسل مع أننا حقاً نسل المسيح كما قال أشعياء (٥٣) وذرية الله كما قال بولس (أع ١٧) !؟

فكل ما يتعلق بعالم الروح يختلف اختلافا بينا عما يتعلق بعالم الحس ولا يتنافى عدم الحرفية مع الحقيقة الروحية !! وهذا ماقد جهله كثيرون قديما وحديثا فاعتنقوا بدعة إنكار الوالد والمولود داخل المسيحية وخارجها بزعم أنه لا يمكن وجود التوالد فى الله لأنهم تصوروه بما هو متناهى فى الفظاعة إذ ظنوه شبيه بما يتم بين ذوى الأجساد الحيوانية من زواج واتحاد بانثى وهو ما لا يخطر على بالنا قط !! ولكن أليس من الجهل المركب أن تكون بنوتنا نحن البشر لله بنوة حقيقية أما بنوة المسيح الأزلية فلا تكون إلا مجازية استعارية !؟ إن ولادتنا الحقيقية هذه بالنسبة إلى ولادة المسيح من الله ما هى إلا كنسبة المجاز إلى الحقيقة ، ولكنهم عكسوا الآية وحاولوا طمس الحقيقة وهيهات !! أما زعمهم بأن المسيح فى صلاته للآب لم يقل أبداً يا والدى وهذا دليل على أنه غير مولود منه ، فإننا ندحضه بسؤالهم عما إذا كان الكتاب قد ذكر أن أحداً من المؤمنين خاطب الله بقوله « يا والدى » والجواب الأكيد طبعاً كلا ، فهل يتخذ من ذلك برهاناً على أن المؤمنين غير مولودين منه تعالى !؟ بدأ (مختار التعليم الخمسينى ج ٥) .

* * *

أما حقيقة هذه « الولادة » فهى صدور سرمدى طبيعى غير مدرك ولا متناه فى اللاهوت كقوله الذى أثبته أشعياء : « منذ وجوده أنا هناك » وهو قاطع بأزلية الإبن التى أشار إليها ميخا أيضاً بقوله : « ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » وقد أثبت ولادته فى بيت لحم بقوله عنها « . . . فمنك يخرج . . الخ » (أى يولد)

وأيضا كما أن النور يبرز من الشمس نفسها بروزا يفرق عن بروز الشعاع وهو والشمس كلاهما معا فى الوجود ويميز النور عن الشعاع والشمس ولكن اتصالهم غير مفارق كذلك الروح القدس يختلف وروده من الآب نفسه عن ورود الابن ولا يقال أن وروده ولادة بل انبثاقا ويميز عن الآب والابن فى أقنومه ومتصل بهما اتصالا غير مفارق وهو معهما فى وجودهما الأزلى .

وهذان ورودان وجوديان .

وكما أن بروز النور ليس هو من الشعاع بل من الشمس لكنه بواسطة الشعاع ليكون الاتصال فيهم جميعا غير منفصل كذلك انبثاق الروح القدس ليس من الابن بل من الآب ولكنه نافذ بالابن ليكون الاتصال بكل الأقانيم الإلهية من غير مفارقة .

فالانبثاق يتضمن معنى الإتصال والتمييز . فبحسب التمييز يخرج الروح من الآب خروجا وجوديا وأما بحسب الإتصال فانه غير مفارق للاب والإبن . فيكون انبثاقه من الآب وأما وروده أو نفوذه فمن الإبن ، فالإنبثاق من الآب وحده مختص به وأما الورود فبالإبن ! !

فالإعتراف بانبثاق الروح القدس من أسس الإيمان القويم لأنه قائم باقنوم مختص به صادر من الآب مستقر فى الإبن وغير منفصل من الآب الذى هو فيه ولا عن الإبن الذى إليه انبثاقه ! !

° ° °

وهكذا ثبت لنا من هذا البحث النفيس فى معنى الإبوة والبنوة والإنبثاق أن فى الله ثالوثا الآب والابن والروح القدس وأن لاهوت هذا الثالوث واحد وأن صدورات اللاهوت السرمدية هى الأساس الوحيد للربط بين هذا الثالوث المبارك ووحدانية الذات ! !

فهـــرس

	صفحة
إيماننا الأقدس	١٥٠
الفصل الأول : تعريف بالصدورات الإلهية	١٥١
الفصل الثـانى : إنكار الصدورات وأسبابه	١٥٧
الفصل الثالث : الأدلة على وجود الصدورات	١٦٧
الفصل الرابع : علاقة الأقانيم بالصدورات	١٧٤

هذا الكتاب

• مرجع هام فى توضيح إعلانات الوحى عن « الإلاهيات » كما وردت فى الكتاب المقدس دستور الإيمان القويم .

• يختص بالتعريف بذات الله ، الواجب الوجود ، الفرد الصمد : الآب الفريد ، والإبن الوحيد ، والروح القدس المجيد : الإله الواحد الذى له القدم والبقاء .

• يبين معنى إيماننا بأن هذا الاله الواحد الذى لا شريك له مثلث الأقانيم وأن ثالوثه الأقدس ليس فيه تركيب ولا تقسيم ومن ثم فلا شرك ولا تحديد ولا خروج عن التوحيد .

• من ألزم ما يحتاجه العصر الحاضر ـ عصر العلم الحديث ـ الذى يقوم على الحجة والمنطق فيطالب ببحث الموضوعات الدينية عقلياً ومناقشتها علمياً ، فلم يعد يقنعه تسليم الإيمان الذى درج عليه البعض فى سائر الأزمان حتى الآن . . وهذا يجعل لهذا الكتاب المكانة الأولى فى الأهمية فهو درع الإيمان بالله فى هذا العصر الذى عصفت به الشكوك وحطمته الأوهام .

• كما أن معرفة الحقيقة الالهية أمر تتوقف عليه الحياة الأبدية ، لذلك كان لابد من دقة البحث وعمق التأمل فى سبيل توضيحها ، وقد إستلزم ذلك جهداً مضنياً لتنظيم هذه الدراسات وقيامها على البحث الشامل وهذا ما سيدركه القارىء العزيز عندما يقف بنفسه على محتويات هذا الكتاب فيرى فيه دعوة هادية إلى الله تعالى لا يقصد من ورائها إلا إبتغاء مرضاته .

• وأخيراً قد كان الدافع الوحيد لإخراج هذا الكتاب هو الأمانة التامة للحق الإلهى ووجوب الالتزام به . وخاصة فى هذه الأزمنة الصعبة التى كثرت فيها البدع والأضاليل ، وازدادت حيل الشيطان للايقاع بالنفوس العزيزة فى حبائلها، بما يحرفه غير العلماء وغير الثابتين لهلاك أنفسهم ، والوصول بمن يتبعون تعاليمهم إلى متاهة الضلال .

الثمن ١٥ م؟

رقم الايداع : ٣٢٩٩ / ٨٧